الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

مالك بن نبي والفقه الحضاري

بمناسبة تخرج الدفعة التاسعة عشرة

جمادى الثانية 1427 - جويلية 2006

معلومات الاتصال بالجامعة :

عنوان الجامعة : نهج قدور بومدوس ص.ب 137 قسنطينة 25000

العنوان الإلكتروني :

E.MAIL. USIEAK.1.@.IST.CERIST.DZ

موقع الجامعة في شبكة الانترنيت :

WWW.UNIV.EMIR.DZ

المصالح المركزية :

- رقم الهاتف - المحول – 031.92.21.34
- الفاكس : 031.92.21.41 (الخارج 213)
- التلكس : USIEA.DZ M: 92.954

تمّ الطبع بشركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ☆ عين مليلة
http://www.elhouda.com

بسم الله الرحمن الرحيم

"مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا".

سورة الأحزاب، الآية: 23

صدق الله العظيم

الدفعة

التاسعة عشرة

مالك بن نبي

كلمة الأستاذ الدكتور/عبد الله بوخلخال

مدير الجامعة

بســـم الله الرحمن الرحيم

لقد تميز فكر الأستاذ/ مالك بن نبي في إطار الفكر الإسلامي المعاصر بوضوح الرؤية، وأصالة الفكر، والمنهجية العلمية والواقعية، وبجملة من الخصائص والمؤهلات الفكرية والمنهجية،.....جعلت منه شاهدا على عصره بكل جدارة، حيث حافظ على توازنه الفكري بين متطلبات ثوابت الذات الحضارية الإسلامية، في خضم الصراع الفكري مع الحضارة الغربية الغازية، وأسس لحوار فعال بين الذات والآخر، استطاع به أن يستفيد من إيجابيات حضارة الغرب، ويتجاوز سلبياتها إلى حد بعيد.

ورغم انشغال الأستاذ-رحمة الله عليه-بمشكلات وطنه وأمته، واهتمامه بترشيد الوعي الإسلامي المعاصر. ورغم غزارة إنتاجه الفكري في هذا المجال أكثر من 22 كتابا وعدد كبير من البحوث واللقاءات والحوارات المنشورة هنا وهناك، وعدد أكبر من الرسائل الجامعية في الجامعات العربية والأجنبية، كلها تجمع على الإعجاب به وبفكره، لدقة ملاحظاته ومنطقه. وقد أفنى عمره من أجل أن تستعيد الجزائر والأمة العربية والإسلامية سيادتها وتقدمها وازدهارها، إلا أنه بقي ككثير من المثقفين والمفكرين الذين لم ياخذوا حقهم من الاهتمام اللازم في الجزائر.

من أجل ذلك وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاده، وفي إطار الذكرى الخمسين لثورة نوفمبر المباركة، جاءت هذه الندوة السريعة تحت الرعاية السامية للسيد/ والي ولاية قسنطينة، وهي ندوة علمية للتعريف بالأستاذ/ مالك بن نبي وبمؤلفاته التي تركز في أغلبها على الفقه الحضاري والثقافي انطلاقا من ملاحظاته الدقيقة للواقع والأحداث بعيدا عن أسلوب الخطابة العاطفي الذي طغى على أدبيات الفكر العربي والإسلامي المعاصر فحالت دون الرؤية الواضحة لمشكالنا على حقيقتها.

وهذا مانجده في كتبه المتعددة منذ كتابه الأول "الظاهرة القرآنية" الذي ألفه سنة 1946م مرورا"بشروط النهضة" إلى " مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" إلى " مشكلة الثقافة" إلى " ميلاد مجتمع".

لقد تعمق الأستاذ/ مالك بن نبي في تحليل مشكلات التخلف المزمنة متجاوزا الظواهر الطافية على السطوح إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، باحثا عن السنن والقوانين الكفيلة بتحول الشعوب المتخلفة من العجز والتبعية إلى القدرة والفاعلية، ومفاتيح الحل عند الذات لا عند الغير مستشهدا دائما بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

سورة الرعد، الآية:10.

أ.د عبد الله بوخلخال

مدير الجامعة

تقديم

د/ إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر
نائب مدير الجامعة للتكوين العالي
والتكوين المتواصل والشهادات

منذ خمس سنوات خلت دأبت الجامعة على تفعيل حفل التخرج السنوي وجعله عرسا علميا حقيقيا من جهة، والتأريخ له بتخليد ذكراه من جهة، ومن جهة أخرى وهو جهد علمي وتربوي يضاف إلى ما يبذل من جهود خلال السنة الجامعية في شتى المجالات، وذلك بإدخالنا هذا التفعيل حيز العمل والتطبيق حيث أنجزنا ثلاثة كتب في ثلاثة تخرجات، هي: الشيخ أحمد حماني- أصالة ومعاصرة-.. 2002، والشيخ الفضيل الورتلاني- المجاهد الثائر رمز النضال-..2003، والرئيس هواري بومدين -التربية والتعليم-..2004 وقد كان من المقرر في تخرج 2005 أن تحمل الدفعة 18 اسم ((مالك بن نبي))، لكن الظروف التي مرت بها الجامعة في نهاية السنة الجامعية 2004 /2005 وبداية السنة الجامعية 2006/2005 حالت دون ذلك، وحفاظا على هذا التقليد الذي ألفته الجامعة، فقد أبقى المجلس العلمي للجامعة على الاسم نفسه لتحمله الدفعة التاسعة عشر (19).

وعليه فإن تخرج طلبة هذه السنة 2006/2005 سيكون برنامجه ثريا بداية بطبع كتاب حول حياة وجهود مالك بن نبي الذي شارك في إعداده نخبة من الباحثين داخل الجامعة وخارجها. إذ يعد هذا العمل إسهاما متواضعا من الجامعة في تخليد ذكرى علماء الجزائر وإحياء مآثرهم العلمية والفكرية لتكون نبراسا للأجيال تهتدي بها، وقدوة لها في أعمالها، وتواصلا يقوي لحمتها وأنتماءها.

إن هـــذا العمل لاشك أنه سيخلد الجهود العلمية والفكرية التي بذلت خلال السنة الجامعية 2006/2005 من الأساتذة والباحثين، والطلبة وكل الأسرة الجامعية، وسيبقى تاريخا وذكرى لهم جميعا وللجامعة.

فهنيئا لكل من جد وعمل، ونال وفرح، ومزيدا من العمل والجهد.

قال تعالى:" **وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ".

سورة التوبة، الآية :105.

د/ إسماعيل سامعي.

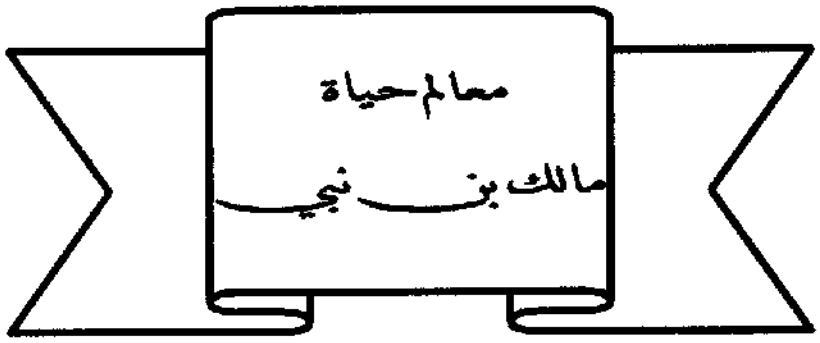
معالم حياة
مالك بن نبي

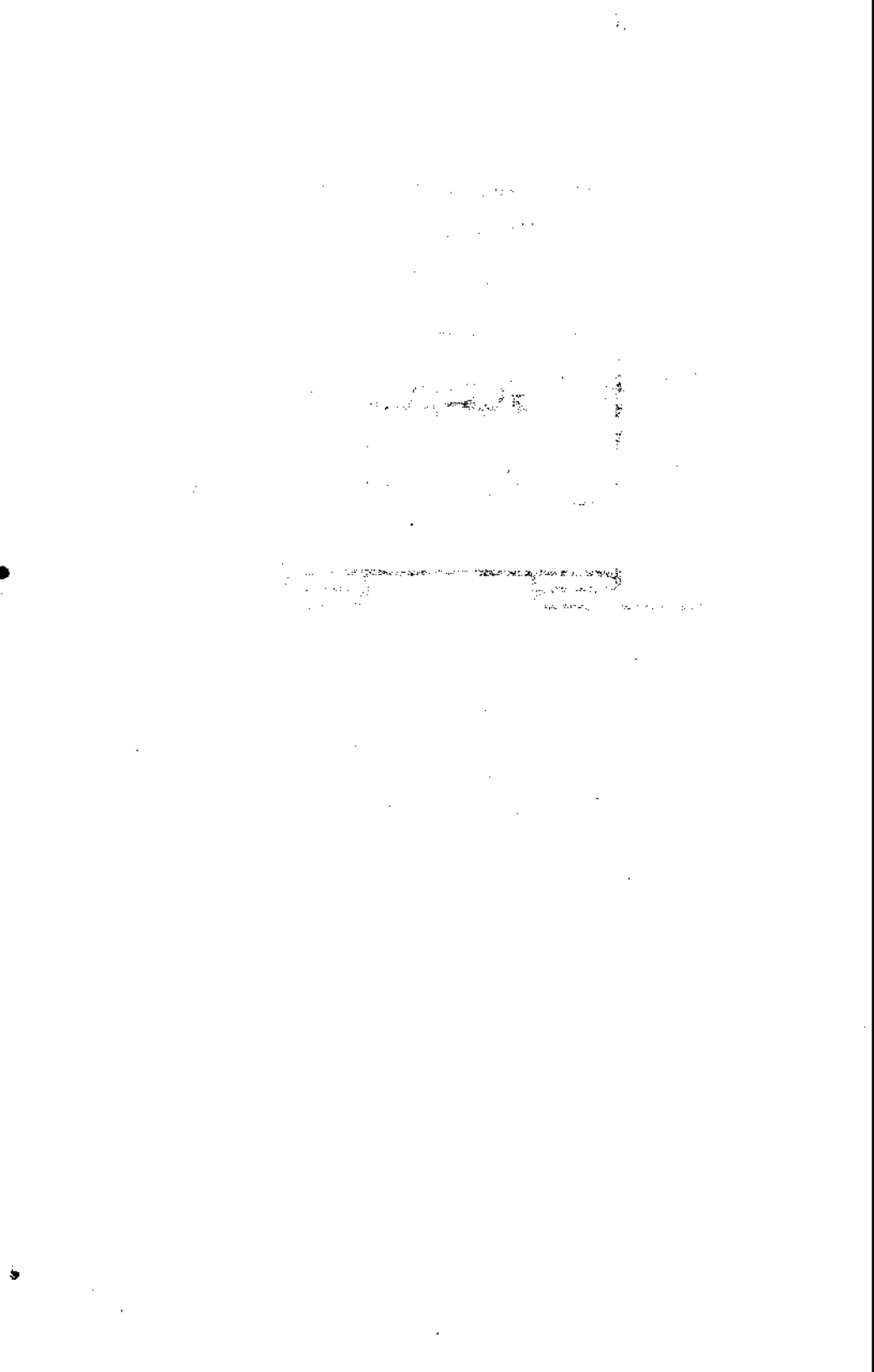

مالك بن نبي :
– حياته ونتاجه الفكري–

الدكتور/ موسى لحرش
جامعة باجي مختار – عنابة–

– مقدمة

– أولا: ظروف الميلاد والنشأة الأولى (1905 - 1911).

– ثانيا: ظروف التعلّم (1912 – 1935)

– ثالثا: ظروف ما بعد التعلّم: محطات أساسية أخرى من حياته (1936 – 1973)

- رابعا: نتاجه الفكري (آثاره).

- خاتمة

- مقدمة:

أن تتحدث عن مفكر كـ « مالك بن نبي »، فإنك تتحدث عن شخصية متعددة الأبعاد، متنوّعة النشاطات، منفتحة العقل، متحركة المواقع، تمثل بحد ذاتها مدرسة فكرية متكاملة جسمت الأبعاد المختلفة والمتعددة للفكر الإسلامي الإنساني المعاصر من خلال محاولتها الإجابة عن أهم الأسئلة إلحاحا في واقعنا المعاصر والمرتبطة أساسا بقضية الحضارة "عنوانا ومحتوى"، والذي يتتبع نتاجه الفكري الكبير كما ونوعا يجد ما يشكل أجوبة لجل ما يطرحه المشككون في قدرة الإسلام على التعامل الديمومي مع الحياة، لذلك فان أفكار " بن نبي " ترفع تلك الإشكاليات وتؤسس نظرية متينة تستمد قوتها من جذورها النابعة من العمق والأصالة الإسلامية ومن قدرتها الفعلية على التعاصر مع كافة التحديات الجديدة. ولاشك أن المنطلق المنهجي والموضوعي لفهم هذه الأفكار يبدأ بتعقل المواقع المتحركة في حياته، من طفولة حادّة الذكاء، إلى شباب ناقد لما حوله ولمن حوله، إلى كهولة وشيخوخة رافضتان لسلبيات الواقع، متجددتان في مواجهة تحديات العصر، ومتحركتان في الإنتاج والإبداع.

ضمن هذا المنظور سنحاول التعرض في هذه المساهمة إلى شخصية هذا المفكـــر، مبرزين أهم معالم العصر الذي عاش فيه والتي أثرت في فكره بشكل مباشر، لا سيما فيما يتعلق بموضوع الحضارة ومشكلاتها.

وهذا المسعى يقوم أساسا على المسلمات التالية:

1 – إن فهـــم الأفكـــار والنظريات العلمية لا يتحقق بدراستها في ذاتها، كما لو أنها كانت كائنات مستقلة، سائبة.

2 – إن أيـــة فكـــرة أو أية نظرية ليست في الواقع مقطوعة الصلة عن الأوضاع الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية والثقافية التي نشأت في إطارها.

3 – إن المفكـــر أو العالم نتاج لوسطه الاجتماعي (ابتداء من الأسرة)، وكـــذا لعصره بأوضاعه الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية والدينية، ومـــن ثم يتعين البحث عن أصول الأفكار والنظريات ليس في عقل المفكر أو العالم، وإنما في المعطيات التي تميزت بها المرحلة التاريخية التي عاشها وأبدع فيها أفكاره أو نظريته.

باختصـــار، فإن هذه المساهمة تمثل محاولة ضرورية وهامة لفهم وتفهم في الوقـــت نفســـه أفكـــار « مالك بن نبي » فيما يتعلق بموضوع الحضارة ومشكلاتها.

إنها محاولة تستند إلى إحدى مقولات علم اجتماع المعرفة الإسلامية التي تذهـــب إلى أن لا شيء يأتي من فراغ، وبالتالي إلى ضرورة الربط بين الأفكار (أو النظريات) والواقع الديني، الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي، الثقافي الذي ظهرت في سياقه بوصفه واقعا مؤثرا فيها بشكل أو بآخر.

أولا: ظروف الميلاد والنشأة الأولى (1905 – 1911):

ولـــد « مالك بن عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي » [*] في الفاتح من شهر جانفي 1905 م بمدينة قسنطينة، إحدى مدن الشرق الجزائري.

---

[*] وردت هذه التسمية الكاملة للمفكر الجزائري « مالك بن نبي » على الخصوص في المقال التالي للباحث « عمار طالبي »:

– عمار، طالبي: « مالك بن نبي ومشكلة الحضارة. »، مجلة الثقافة، الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة، العدد 18، ديسمبر – جانفي 1973، ص 9.

وكـــان يمكن في هذا الزمن – حسب رأيه – " الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حيا من شهوده، والاطلاع على المستقبل عبر الأوائل من الرواد "[1].

والاتصـــال بالماضي عبر آخر من بقي حيا من الشهود يمثل هنا وسيلة هامـــة ومميـــنة بالنسبة للأجيال اللاحقة لكي تتبين تاريخها، وتأثير ماضيها في شؤون حاضرها.

ومـــن بـــين الشهود الأوائل الذين تأثر « مالك بن نبي » بشهاداتهم وربطـــوه تاريخـــيا بحقائق الماضي: ماضي المجتمع الجزائري الذي وُلد فيه (سنة 1905) ونشأ فيه، والدة جدته لأمه والمسماة بـــ « بايا » التي عمرت طويلا، حتى أنها جاوزت سن المائة وماتت عندما كان هو في سن الثالثة أو الرابعة من عمره (على حد تقديره)[2].

ورغم أنه لم يعرفها – بحكم قصر الزمن – بما فيه الكفاية، إلا أنه يرى – كمـــا جاء ذلك في كتابه « مذكرات شاهد للقرن » [*] – بأنها " أورثت العائلة (المسلمة المحافظة) الكثير من مشاهداتها وذكرياتها القديمة "[3] خاصة تلك المتعلقة بالطريقة أو الكيفية غير الشرعية وغير اللائقة التي احتل بها الجيش الاستعماري الجزائر، ولا سيما مدينة « قسنطينة » التي كانت تقطن بها، خالقا بذلـــك جوا من الهلع والخوف في صفوف الأفراد الجزائريين الذين سارعوا – بدافـــع الحفـــاظ على النفس وعلى الشرف (عدم اغتصاب النساء على وجه

---

(1) مـــالك، بـــن نـــبي: مذكـــرات شـــاهد للقرن؛ القسم الأول: الطفل، ط 2، ترجمة عبد المجيد النعنعي، الجزائر، دار الفكر [بالتعاون مع دار الفكر بدمشق (سوريا)]، 1984، ص 15.

(2) – المصدر نفسه :ص 15

(*) – من المهم الإشارة في هذا الصدد إلى أن « مالك بن نبي » يعتبر أن هذه المذكرات لا تروي قصة حياته فقط، وإنما هـــي فوق ذلك تروي أيضا قصة حياة المجتمع الجزائري الذي وُلد ونشأ فيه برمته، بحيث يستطيع (هذا الأخير) من خلال الاستعانة بها قراءة تاريخه الصحيح.

[– انظر في هذا الصدد :

مـــالك، بـــن نـــبي: مذكـــرات شـــاهد للقـــرن؛ القســـم الـــثاني: الطالـــب، ط 2 ترجمة عبد المجيد النعنعي، مصدر سابق، ص 288.]

(3) – المصدر نفسه: ص 15.

الخصـــوص)– إلى الهـــروب نحـــو الخارج، مثلما فعلت بالضبط عائلة هذه الشـــاهدة (بايا) التي لجأت إلى تونس عند دخول المستعمر إلى « قسنطينة » لتعود إليها فيما بعد من جديد.

إن مثل هذه المشاهدات والذكريات القديمة التي أورثتها هذه الشاهدة المُعمِّـــرة (بايـــا) إلى العائلة قد انتقلت إلى « مالك بن نبي » خاصة عن طريق ابنـــتها التي هي جدته لأمه المسماة « زليخة »، والتي هي أيضا عَمَّرت طويلا بحيـــث جاوزت سن المائة، وقد كان يقول عنها بأنها " إمرأة كانت بارعة في قـــص الحكايـــات، إذ كانت تشدنا إليها ونحن متحلقون حولها، كانت هذه مدرستي الأولى، فيها تكونت مداركي...[1]، وفيها تعرف أيضا على الأخلاق الفاضـــلة ومعاني التضحية والإيثار، إذ كما يقول "سمعت الكثير من أقاصيصها وحكاياتها التي كان محورها العمل الصالح وما يليه من ثواب، وعمل السوء وما يتبعه من عقاب ... لا أزال أذكر كيف أنها اضطرت ذات يوم – تحت ضغط الظـــروف المادية الصعبة التي كانت تعيشها العائلة (الفقر) – لكي تدفع لمعلم القرآن الذي يتولى تدريسي، بدل المال سريرها الخاص... "[2].

وحالـــة الفقـــر الـــتي كانت تعيشها العائلة هي حالة غالبية العائلات الجزائرية الأخرى آنذاك. فالاستعمار الفرنسي حسب « مالك بن نبي » ضيق عـــلى الجزائريين مصادر الكسب إلى درجة أن بعض المهن التقليدية في المجتمع مثل صناعتي النسيج والجلود والتي " كثيرا من شوارع قسنطينة القديمة لا تزال محتفظة بأسمائها القديمة – مثل « رحبة الصوف » « وحذاء شبارليه »[*] "[3] قد اختفت تدريجيا لتترك مكانها لما يستورد من السلع المصنوعة.

وقد ترتب عن هذا – فضلا عن ضيق مصادر الكسب على الجزائريين – ظهور تغير في مظهر المدن. ففي شوارع مدينة قسنطينة مثلا بدأت تختفي – حســـب « بـــن نبي » – "العمائم والبرانس والملابس المصنوعة من الأقمشة المُطرزة. والمخازن التي كانت تصنع فيها تلك السلع – كمخازن الصَدَّارين –

---

[1] المصدر نفسه ص 16

[2] – المصدر نفسه: ص 19.

[*] – الشبرلة: تعني حذاء النساء.

[3] – المصدر نفسه: ص 17.

بدأت تقفل واحدة تلو الأخرى. وأخذت تظهر أكثر فأكثر في هذه الشوارع البضائع الأوروبية، وأحيانا الأثواب المستعملة المستوردة من مرسيليا " [1].

مقابل ذلك فإن تكاثر عدد المعمرين شيئا فشيئا من مختلف المناطق الأوروبية وتجمعهم، أدى ذلك كله في نظر« مالك بن نبي » إلى " أن تكون لهؤلاء مقاهيهم ومتاجرهم ومطاعمهم ومصارفهم وكهرباؤهم ومخازنهم ذات الواجهات الجميلة.هذا كله أخذ يضفي على المدينة (قسنطينة) طابعا جديدا، فحياة السكان الأصلية أخذت تتقلص لتنعزل في الشوارع الضيقة وزقاق «سيدي راشد » " [2].

ولقد رافقت كل ذلك أيضا تغييرات اجتماعية تدريجية مست العديد من العادات والتقاليد في المجتمع مثل الاحتفالات، الزواج، مراسيم الدفن، والأعياد وغيرها ... وبدت بوادر اللاتضامن بين أفراد المجتمع، وكذلك الانحراف الاجتماعي – الأخلاقي (مثل تعاطي الخمور) تشيع شيئا فشيئا [3].

والملاحظ في هذا الصدد أن مثل هذه الأحداث والتغيرات التي مست المجتمع الجزائري وغيرها تعتبر بالنسبة لـ « مالك بن نبي » مهمة جدا، إذ يقول في هذا الشأن " ... إنني أذكر هذه التفاصيل لأنني أعدها دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس نفورا لكل ما يسيء لذوق الجمال، ولأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصبح موضوع السخرية في المجالات ...»[4].

لقد كانت لهذه الأحداث والتغيرات علاوة على أثرها الأخلاقي والاجتماعي، تأثير نفسي كبير على الجزائريين المسنين آنذاك، ومن بينهم جده لأبيه الذي رفض المساكنة مع المُستَعْمِر والقبول بالوضع القائم، " فباع كل ما تبقى بحوزته من أملاك العائلة وهجر الجزائر المستعمرة ليلجأ إلى طرابلس " [5] رفقة شقيق له وابن له هو عم « مالك بن نبي »، وكان حينئذ

---

[1]) – المصدر نفسه: ص 18.

2)–. المصدر نفسه: ص 18.

3) المصدر نفسه: ص ص 16 – 17

[4])– المصدر نفسه: ص 273.

[5]) – المصدر نفسه: ص 18.

هذا الأخير (بن نبي) يبلغ من العمر ست (06) أو سبع (07) سنوات (على حد تقديره)[1].

ولقد آثر أبواه في هذا الوقت الاستقرار بمدينة « تبسة »، وكان أبوه فقيرا عاطلا عن العمل. وأثرت فيه حال الفقر هذه خصوصا بعد وفاة عمه الأكبر الذي كان قد كفله بقسنطينة أثناء طفولته. فهو في هذا الصدد يقول "... لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر. إذ مات عمي الأكبر في قسنطينة، وكان قد تبناني منذ أمد بعيد، مما جعل زوجه تعيدني إلى أهلي في تبسة على الرغم مما خلف ذلك من أسى في نفسها وفي نفسي. لقد فعلت ذلك، لأن مواردها لم تعد تسمح لها بإعالتي "[2]. فاستقر به المقام بالتالي في « تبسة »، حيث كانت والدته تشتغل في الخياطة لكسب قوت أبنائها وجلب الحاجات الضرورية لأسرتها[3].

وإذا كانت « قسنطينة » قد ظلت – بجوها العام – تستقطب تفكيره طيلة سنوات طفولته، فإن « تبسة » أصبحت هي الأخرى مجال استقطاب آخر أضاف إلى ذاته طابعه النفسي. ففي هذه المنطقة « لم تكن النظم التقليدية تفسح المجال كثيرا – كما هي الحال في الحواضر الكبرى – للمؤثرات الأخلاقية والاجتماعية الناتجة عن الوجود الاستعماري. فالسكان هنا لم يتخلوا (عموما) عن فضائلهم وتقاليدهم «[4].

هذا وما إن لبث أن حصل أبوه على منصب بالإدارة المحلية بـ « تبسة »، أهلته له دراسته بالمدرسة الرسمية، حتى بدأت أوضاع العائلة المادية تتحسن، وتمكن بذلك « بن نبي » من الدخول إلى المدرسة الابتدائية الفرنسية.

ثانيا: ظروف التعلُّم (1912 - 1935):

لقد دخل« مالك بن نبي» إلى المدرسة الابتدائية الفرنسية الوحيدة بمدينة« تبسة » والتي أُدخل فيها فصلا رابعا خُصص للصغار من أبناء الأهالي

---

[1]- المصدر نفسه: ص 16.

[2] - المصدر نفسه: ص 18.

[3]- المصدر نفسه: ص 19.

[4]- المصدر نفسه: ص 21.

« Les Petits Indigènes »، إلا أنـــه في الوقت نفسه ثابر على التردد على مدرســـته الســـابقة لتعلم القرآن. وفي هذا الصدد يقول "...كنت أقصدها (مدرسة تعليم القرآن) كل يوم في الصباح الباكر لأكون فيما بعد عند الثامنة صباحا في المدرسة الفرنسية... " [1]. لكنه فيما بعد انقطع عن مزاولة الدراسة بهـــذه المدرسة واستمر في التعلم بالمدرسة الابتدائية الفرنسية لأنه، كما يرى، لم يســـتطع – على الرغم من السنوات الأربع التي قضاها فيها – سوى حفظ عـــدد قليل من السور القرآنية، نظرا لعدم نجاعة الطرائق التربوية المعتمدة في عملية الحفظ. وبقي مع ذلك متمسكا بشعوره الديني ومحافظا عليه [2].

وأثناء دراسته بالمدرسة الابتدائية الفرنسية كان ينتقل إلى « قسنطينة » مســـقط رأسه لزيارة عائلته، خاصة بعدما عرفت الظروف المادية لزوجة عمه الأكبر بعض التحسن إثر حصولها على منصب شغل كأمينة صندوق في متجر، وعودة جده لأبيه – رفقة بعض أفراد العائلة – من « طرابلس » عقب احتلالها مـــن طرف الاستعمار الإيطالي. وقد أثرت فيه شخصية جده هنا الناقمة على الوضع العام للمجتمع، لا سيما وأن هذا الأخير كان من المؤيدين لـــ « صالح بن مهنا » أحد رواد رجال الإصلاح بالجزائر في نهاية هذا القرن الماضي [3].

وخلال تلك الفترة التي كان يدرس فيها « بن نبي » بالمدرسة الابتدائية الفرنســـية، سمحت له الفرصة بأن يتابع مجريات الأحداث الداخلية والخارجية عبر الصحف وبعض الكتابات. فهو في الصدد يقول:

" ... كنت أدرس بجد طيلة أيام الأسبوع. وبما أني كنت أحرص على كـــتابة وظـــائفي مســـاء السبت فقد كنت أحصل على شيء من الحرية يوم الأحـــد. وبالـــتالي كنت أقضي يومي كله تقريبا في مخزن السيد « الشريف بـــرقوقة » بقـــال الحي. وبسبب ظروف الحرب التي أدت إلى فقدان الورق الـــتجاري المستعمل في لف المشتريات، فقد اضطر كسائر زملائه إلى استبدال الورق المطبوع به.

---

[1] – المصدر نفسه: ص 24.

[2] – المصدر نفسه: ص ص 24 – 25.

[3] – المصدر نفسه: ص ص 30 – 35.

كانـــت قضـــية الحـــرب آنذاك تظهر في أجزاء مطبوعة، أجد معظم أعدادهـــا الصـــادرة في مخـــزن السيد « الشريف »، وكنت أغرق في قراءتها باهتمام مولع، خصوصا لما تحتويه من صور كثيرة ... "[1].

في هذه الفترة بالذات المليئة بالأحداث العالمية الكبرى: الحرب العالمية الأولى[*] وتجـــزئة "الإمـــبراطورية" العثمانـــية من طرف الاستعمار واحتلال « فلســـطين» من قبل الإنجليز ... نجح « بن نبي » في الحصول على شهادة الدراسة الابتدائية (سنة 1918) بدرجة « جيّد »، ووفق في اجتياز امتحان « المـــنح » " الذي كان له أكثر من معنى عند طفل من أبناء المستعمرات لا يستطيع أهله أن يرسلوه إلى الثانوية "[2].

فعـــن طـــريق هذه المنحة استطاع متابعة دروسه في المرحلة التكميلية بمدينـــة « قســـنطينة » في مدرسة « سيدي الجليس » التي كان يتحضر فيها المترشـــحون إلى المدرســـة « الرسمية » ودار المعلمين الابتدائيين والمساعدون الطبـــيون، وكـــان « بن نبي» يعد نفسه – تبعا للتوجيه الذي أرادته عائلته له واســـتقر علـــيه رأيـــه – للدخول إلى «المدرسة الرسمية » ليتخرج منها عونا قضائيا.

ولقد اضطره ذلك إلى تسجيل نفسه في الدروس الخاصة لـــ « الشيخ عبد المجيد» الذي كان أستاذا في هذه المدرسة، يعد فيها التلاميذ الذين يختارون هـــذا الاتجاه. وكانت هذه الدروس الخاصة التي تُعنى بالنحو تقدم كل صباح في الســـاعة الســـابعة في المسجد، أي قبل موعد الالتحاق بمدرسة « سيدي الجليس ».

وقد تأثر هنا « بن نبي » بـــ « الشيخ عبد المجيد » وآرائه، مثلما تأثر أيضا بأستاذه « مارتان Martin » (أستاذ بمدرسة « سيدي الجليس »)[3]، إذ يقول في هذا الصدد بشأن « الشيخ عبد المجيد » " وسرعان ما أدركنا عداءه

---

[1]– المصدر نفسه: ص 37.

[*] – والتي جُند لها الجزائريون عُنوة من طرف الاستعمار.

[2]– المصدر نفسه: ص 42.

[3]– المصدر نفسه: ص 47.

لـــبعض التقالـــيد الســـائدة في المجتمع الإسلامي كالطرق الصوفية، وكراهيته لتجاوزات الإدارة الفرنسية وتصرفاتها..."[1]، وقد شد ذلك انتباهه كثيرا. أما بالنســـبة لأستاذه «مارتانMartin » فقد قال بشأنه أنه كان " يثري تلاميذه بالمفـــردات ويطبع في نفوسهم الذوق وفن الكتابة وكان يقرأ لنا أحيانا القطع الجيدة التي كتبها من هم أكبر منا والذين قضوا في مدرسته أكثر مـــن سنة.

لقـــد طبع في نفسي هذا الأستاذ تذوق القراءة. ففي مساء كل سبت كـــان يعير الكتب للتلاميذ ... "[2]، وقد أتاح له ذلك الإطلاع على كتب عديدة ومتنوعة.

وفي نهايـــة الســـنة الدراسية تمكن « بن نبي » من اجتياز الامتحانات بـــنجاح، بحيث كان من الفائزين الأوائل، وتم قبوله ابتداء من السنة الدراسية (1921 – 1922) في « المدرسة الرسمية » التي تُخرج أعوان القضاء[3].

وفي هـــذا الوقـــت بالذات بدأ يقرأ للعديد من المؤلفين الأوروبيين من أمـــثال «بيار لوتي Pierre loti» و« كلود فاريرClaude Faré»[4] ... ولا سيما « بيار بورجي Pierre borjier » الذي كتب مؤلفا بعنوان « التلميذ le disciple»، والذي فتح أمامه عالم النفس الذي أتاح – كما يقول – " لعقل فَتِيّ كعقلي أن يتخلى عن شيء من أوهامه وسذاجته "[5].

ولقد كان لهذا الاتجاه أن يأخذ به حسب رأيه إلى أبعد من ذلك، لولا دروس الشيخ « مولود بن موهوب»[*] في التوحيد والسيرة وتلك التي للشيخ « بن العابد » في الفقه والتي كانت تصحح له من حين إلى آخر بعض المفاهيم والتصـــورات، فضلا عن دروس الشيخ « عبد المجيد » الذي كان يحلل فيها بعض وجهات نظره في انحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة الفرنسية، وقد أذكى ذلك – كما يقول –" في نفوسنا تأييدا وحماسة "[6].

---

[1] – المصدر نفسه: ص 48.

[2] – المصدر نفسه: ص 48

[3] – المصدر نفسه: ص ص 56و63

[4] – المصدر نفسه: ص 64.

[*] – أستاذ بالمدرسة ومفتي المدينة آنذاك وأحد تلاميذ رحل من رجال الإصلاح في الجزائر: الشيخ « عبد القادر المجاوي ».

[6] –المصدر نفسه: ص 66.

كما أن من بين الكتب الهامة التي عثر عليها في هذه الفترة واعتبرها من الينابيع البعيدة المؤثرة والمحددة لاتجاهه الفكري « كتاب (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لـ « أحمد رضا »، و (رسالة التوحيد) للشيخ « محمد عبده » وقد تولى الشيخ « مصطفى عبد الرزاق » ومستشرق فرنسي ترجمته للفرنسية "[1].

فالكتاب الأول لـ « أحمد رضا » مكنه من خلال الشواهد الكثيرة التي تضمنها من التعرف على صورة المجتمع الإسلامي المثلى وهو في قمة العطاء الحضاري، وكان ذلك بالنسبة إليه معيارا هاما يمكن من خلاله قياس أزمته في العصر الحاضر. أما الكتاب الثاني للشيخ « محمد عبده » فقد أعطاه – خاصة من خلال مقدمته حول غنى الفكر الإسلامي عبر العصور – مستندا للحكم على الفقر الكبير الذي يعيشه هذا الفكر اليوم.

لقد ساهم هذان الكتابان – في رأيه – كثيرا في تصحيح بعض التصورات التي كانت لديه سواء فيما يتعلق بالمجتمع الإسلامي أو المجتمع الغربي، وحالا دون انسياقه في « الرومنطيقية » التي كانت شائعة آنذاك في صفوف ذلك الجيل من المثقفين الجزائريين [2].

ومن بين المؤثرات المحددة لاتجاهه الفكري أيضا في هذه الفترة بالذات من حياته، ما تلقاه من صديقه « حمودة بن الساعي »– الذي تعرف عليه شخصيا بعد عدة أشهر من دخوله إلى « المدرسة الرسمية »–من تحليلات تركت في نفسه أثرا خاصا. فهو في هذا الصدد يقول:"... فـ«بن الساعي » الذي كان يكبرني لم يكن مخلصا ذكيا ومثقفا بالعربية والفرنسية فحسب، بل هو شخص مثال وقدوة ... ففي نزهاتنا معه أنا و « فضلي » (صديق آخر لهما) بين غابات الصنوبر، كنت أستمع إلى طريقته في توجيهه الآيات القرآنية لتتخذ تفسيرا اجتماعيا لحالة المجتمع الإسلامي الحاضرة، وكان ذلك يؤثر في نفسي كثيرا ... "[3].

---

[1] – المصدر نفسه : ص 66

[2] – المصدر نفسه ص ص 66- 67

[3] – المصدر نفسه ص 67

كمـــا أن الفرصة سمحت له بالتعرف أيضا – خارج المدرسة – على بعض تلاميذ الشيخ « عبد الحميد بن باديس » رجل الإصلاح الوطني، فشعر من خلال النقاشات التي شاركهم فيها أنهم وإياه يتقاسمون انشغالات واحد.

وفي نهايـــة الســـنة الدراســـية (1921 - 1922) تمكـــن من اجتياز الامـــتحانات بـــنجاح [1]" والتحق بأسرته في مدينة « تبسة » لقضاء العطلة الصيفية، حيث لا حظ هناك بعض التغير في المظهر العادي للمدينة. إذ يقول في هـــذا الصـــدد " ... لقد ازداد فيها الأوروبيون خصوصا بعد أن جاء عمال السكك الحديدية وعائلاتهم مع افتتاح الخط الحديدي لـــ « عين البيضاء » وإنشاء مركز لإصلاح القطارات .

كان هؤلاء الأوروبيون يقيمون حفلات 14 جويلية الراقصة في ساحة « كـــارنو Carnot» ... مـــن المساء حتى الفجر " [2]، وكانت ردود فعل الجزائريين المُستعمرين إزاء ذلك تتسم بالاستهجان والامتعاض [3].

في هـــذه العطلـــة الصيفية بالذات تمكن من التعرف على عدة صحف ومطالعتها، من بينها صحيفة « الإقدام » التي كان يصدرها « الأمير خالد » وصـــحيفة« الـــراية l étendard» التي كان يصدرها « دندان » وكان أبو يتلقاها باستمرار، بالإضافة إلى صحيفة تونسية جديدة بدأت تصل إلى«تبسة » وهـــي صـــحيفة « العصـــر الجديد » التي كان الاهتمام بها أكبر من زميلتها التونســـية القديمـــة « الزهـــرة »، على اعتبار أنها متخصصة في شؤون العالم الإسلامي بكامله، بينما الأخرى هي متخصصة في الشؤون التونسية فقط [4].

ومع انقضاء العطلة الصيفية عاد « بن نبي » إلى قسنطينة لمتابعة دراسته مـــن جديـــد بالمدرسة الرسمية. وخلال فترة الدراسة (1922 – 1923) كان يـــتردد مع زملائه على مقهى تسمي بـــ « مقهى بن يمينة » الموجودة بالحي العـــام الذي توجد به المدرسة، حيث تدور هناك نقاشات حول مسائل كثيرة تخص الوضع العام في الجزائر وفي غيرها من الدول. وكان مكتب الشيخ « عبد

---

[1]– المصدر نفسه : ص 77

[2]– المصدر نفسه ص 81

[3]– المصدر نفسه ص 81

[4] –المصدر نفسه ص 83

سعيد بن باديس » على بُعد خطوات من هذه المقهى، بحيث كان يستقبل فيه كما يقول « بن نبي » " أصدقاءه وتلاميذه ويُدير مؤسسته الصغيرة، التي اتخذت شكل شركة ذات أسهم تصدر مجلة «الشهاب »، التي جاءت في أعقاب احتجاب « المنتقد »، ولم تكن قد ظهرت إلا لفترة قصيرة ثم مَنعت الإدارة المحلية صُدورها.

إذن، كان حي الطلبة العام مجاورا لذلك المكان الذي سوف يصبح مهد «حركة الإصلاح »، وكان مرور تلاميذ الشيخ « بن باديس » أمام مقهى « بن يمينة » يُوثق عُرا الصلات بيننا وبينهم " [1].

في هذه الفترة بالذات، ازداد أيضا شغف « بن نبي » بمطالعة الصحف على مختلف توجهاتها السياسية، مثل صحيفة « الشؤون العامة لقسنطينة la dépêche de Constantine» وصحيفة « الإنسانية l'humanité» وصحيفة « الكفاح الاجتماعي la lutte sociale» ...وكان يستثمر كل المعلومات التي يستقيها من هذه الصحف في مناقشاته العامة مع زملائه بـ «مقهى بن يمينة »[2]، فضلا عن أنه أعاد قراءة كتاب «الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق » لـ«أحمد رضا » قراءة متأنية مثلما هو معتاد، وزاد عليه أيضا قراءة كتاب « أم القرى » لـ « عبد الرحمان الكواكبي » لأول مرة[3].

وكل هذه القراءات والمطالعات ساهمت – في نظره – مع غيرها في كسبه طريقة تحليل نقدية [4] للأوضاع العامة التي يعيشها ليس المجتمع الجزائري فحسب، وإنما أيضا مجتمعات العالم الإسلامي والعالم المتخلف ككل.

ولا شك أن مجلة « الإقدام » التي كان يصدرها « الأمير خالد » والتي كثيرا ما كانت تَرُدُّ وتُعلق على المضامين التي تحتويها مجلة « الجمهوري le Républicain » التي تصدر عن الإدارة الاستعمارية، قد ساهمت على الخصوص في هذا الوقت بالذات في أن تضع في فكره الحدود السياسية الدقيقة،

1- المصدر نفسه: ص 85

2- المصدر نفسه ص ص 88-89

3- المصدر نفسه ص ص 87-88

4- المصدر نفسه ص ص 89، 90، 93

بحيث كانت تكشف كما يقول عن " عمليات استغلال الفلاح الجزائري، وقد بلغت درجة لا توصف في تلك الفترة. فقد ضاقت بالمستعمرين في الشمال مزارع الكرمة والحمضيات والزيتون والتبغ، فأخذت تتجه نحو الجنوب حيث أراضي الحبوب. فقد بدأ عدد من المعمرين يستقرون في«خنشلة »و«باتنة » و« عين البيضاء » ... فكانت مجلة «الإقدام» تفضح رجعية الإدارة المستعمرة وسوء استغلالها للسلطة.

فالأرقام التي كانت تنشرها عن مساحة الأراضي الممنوحة للمعمرين، وعن عدد الأولاد الجزائريين الذي لا يذهبون إلى المدارس تثيرنا وتوجهنا "[1].

في نهاية السنة الدراسية (192 – 1923) استطاع « بن نبي » اجتياز امتحانات آخر السنة بنجاح، والتحق بعدها بأسرته في مدينة « تبسة » لقضاء العطلة الصيفية [2]، وقد تزامن ذلك مع عودة أحد رجالات الإصلاح من الأزهر في القاهرة وهو « الشيخ العربي التبسي » الذي عُرف بدفاعه الشديد عن شخصية المجتمع الجزائري ووقوفه ضد الطرقية والشعوذة، وقد كان له مؤيدوه في هذه المدينة (الشيخ « الصدوق بن خليل » والشيخ «عسول » ...)[3].

ومع انقضاء العطلة الصيفية عاد «بن نبي » من جديد إلى «قسنطينة» لمتابعة دراسته بالمدرسة الرسمية، واستمر خلال هذه المرحلة الدراسية (1923 – 1924) في تقصي الأحداث الوطنية والدولية من خلال مطالعاته الكثيرة، خاصة للصحف. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن هناك صحيفة أخرى جديدة ناطقة باللغة العربية، بدأ يطلع عليها في هذه الفترة، وتسمى بصحيفة « صدى الصحراء» والتي كانت تصدر بمدينة « بسكرة »، وكان قد أسسها كل من الشيخ « اللمودي » والشيخ « الطيب العقبي » الذي عاد من المملكة العربية السعودية في هذا الوقت بالذات، حيث كان يدير في « مكة » صحيفة تسمى بـ « أم القرى »[4].

---

[1] – المصدر نفسه ص 93

[2] – المصدر نفسه 97

[3] – المصدر نفسه ص 100

[4] – المصدر نفسه ص 105

ولقد بدأ « بن نبي » يلاحظ في هذه الفترة بالذات زوال كثير من الأوهام والمعتقدات التي كان يراها باطلة، وذلك بفعل الدور الهام الذي لعبته الحركة الإصلاحية في المساهمة في القضاء على الجهل. ذلك أن هذا الأخير (الجهل) عادة ما يحمل في نظره « احتراما وثنيا » (مثلا) لكل ما هو مكتوب. وفي المجتمع الجزائري كان هناك اعتقاد بخرافة الورقة المكتوبة، فقيمتها السحرية كما يقول " لا يمارسها فقط في النساء العجائز اللواتي يضعن لأطفالهن «حروزا » تقيهم من العين الشريرة، بل (إنه) يمارس قيمتها السحرية أيضا في ذلك الوسط الذي تَكوَّن في الزوايا الصوفية، إذ تستعمل فيه حجة لا جواب عليها في المناقشات.

« إِنَّهُ كُتْبِي » يقولها واحد للتأكيد إذا آنس في وجه مُسْتمعه بعض الشك. «إِنَّهُ كُتْبِي »؛ أي إنه في « كتاب »، يقولها وهكذا يسقَط الشك وتنحني الرؤوس أمام « الحجة الدامغة » ! " [1].

وبهذا، فالفكر النقدي كان قد توقف بمثل تلك الكلمة السحرية (كُتْبِي) خلال أجيال. وأما الآن فقد بدأ في نظر « بن نبي » يتحرر ويجد له طريقا في عقول الجزائريين بفضل جهود العناصر الإصلاحية التي ساهمت في جعل هذه الكلمة تفقد سلطانها الساحر في العقول [2].

موازاة مع ذلك فإن العائلات العريقة بـ « قسنطينة » اضطرت، بفعل ظروفها المادية الصعبة في هذه الفترة بالذات، إلى تصفية ما تبقى من ثرواتها (المحلات)، فضلا أيضا عن الفلاحين الجزائريين الذين أصبحوا في هذه الفترة يتخلون عن آخر قطعة من أراضيهم في نواحي « سطيف »،« قالمة » و«عنابة » ... [3]. ولقد أثر ذلك في «بن نبي» كثيرا وجعله يحس بالمأساة بصورة قوية [4].

هذا وقد تمكن« بن نبي»قبيل انتهاء السنة الدراسية(1923 - 1924)من الاطلاع على كتب ذات أهمية كبيرة في الساحة الفكرية، من بينها« مقدمة بن

---

[1] – المصدر نفسه: ص ص 106 – 107.

[2] – المصدر نفسه: ص 107.

[3] – المصدر نفسه: ص 112.

[4] – المصدر نفسه: ص 113.

خلـــدون» في ترجمة فرنسية قام بها «سلفستر ساسي»و« مروج الذهب»لـــ «المسعودي »و« كيف نفكر »لـــ« جون ديوي John Dewey» ... [1] .

ولقـــد ساهمت كل هذه الكتب – مع غيرها – في تكوينه الفكري وفي تطوير نظرته للأشياء.

ومـــع انـــتهاء السنة الدراسية، واجتياز امتحانات آخر السنة بنجاح، التحق كما هو معتاد بأسرته في مدينة « تبسة » لقضاء العطلة الصيفية، حيث كـــرس هـــنا جل وقته للمطالعة في البيت. وفي هذا الصدد يقول: "... وقد قضيت العطلة بعيدا عن ذلك الضجيج السائد في المدينة مهتما بقراءة صحيفة « العصـــر الجديد »، وقد قرأت أيضا الأجزاء الضخمة الثلاثة أو الأربعة من كتاب « تاريخ الإنسانية الاجتماعي » [*] الذي كان والدي قد أضافه مؤخرا إلى مكتبته الصغيرة " [2].

ومـــع انقضـــاء العطلة الصيفية عاد من جديد إلى مدينة « قسنطينة » لمتابعة دراسته بالمدرسة الرسمية. وخلال هذه المرحلة الدراسية (1924–1925) استمر في تتبع الأحداث الوطنية من خلال مناقشاته العامة مع زملائه ومطالعته للصـــحف (تضييق النظام الاستعماري مصادر الكسب حتى على الباعـــة الجزائريين المتجولين، التشديد على معركة الريف بقيادة« الأمير عبد الكريم »، نفي« الأمير خالد» ...)[3].

ومـــا هو جدير بالذكر في هذا الصدد هو أنه – فضلا عما كان يفكر فيه في هذا الوقت بالذات كسائر زملائه الذين بلغوا السنة الرابعة من الدراسة (مـــا العمل بعد التخرج من المدرسة ؟) [**]– كان يفكر أيضا في تأليف كـــتاب بعنوان« الكتاب المنفي Le Livre Proscrit».لماذا هذا العنوان ؟ وماذا سيكون محتوى هذا الكتاب ؟...

---

[1]) – المصدر نفسه: ص ص 113 – 115.

[*] – لم يذكر هنا مؤلف الكتاب.

[2])– المصدر نفسه: ص 125.

[3])– المصدر نفسه: ص ص 127 – 128 و 138.

[**] – هل هو متابعة الدراسة على مستوى أعلى ؟ أم العمل في إطار التخصص في إحدى الإدارات ؟ أم الهجرة إلى الخارج ؟ أم العمل في التجارة الحرة ؟ ...

تلـــك بعض الأسئلة التي قال بشأنها أنها " كانت تحرجني لو أن أحدا ســـأليها. ولكن الفكرة استهوتني ..." [1]. ويبدو أن ذلك راجع إلى شعوره بالغـــربة في بلـــده، أو بالظـــلم الـــذي كان يمارسه المستعمر الفرنسي على الجزائريين وهو واحد منهم.

بعد اجتيازه لامتحانات آخر السنة الدراسية (1924– 1925) بنجاح، وتخـــرجه من المدرسة الرسمية، فضل التنقل إلى « فرنسا» رفقة زميله بالمدرسة «قـــاواو»، وذلك للبحث عن عمل، فزارا « مرسيليا » و « ليون »، وعرّجا على « باريس » ولكنهما لم يحظيا بعمل مناسب، فعادا إلى الجزائر [2].

بعد عودته إلى « تبسة » حاول العمل بالمحكمة بصفة عون في القضاء، لكن لم يتسن له ذلك في البداية، لأنه لم يبلغ بعد (كجزائري) السن القانوني لممارسة هذه الوظيفة وهو اثنين وعشرون سنة [3].

ولما كان له في هذا الوقت بالذات صديق في محكمة «تبسة» يشغل هو الآخر وظيفة عون في القضاء،فقد اتفق معه على أن يقوم بمساعدته بدون أجر مـــادي حـــتى لا يشعر من الناحية المعنوية بأنه بدون حركة أو نشاط، إلى أن اعـــتمدته المحكمة في نهاية الأمر معاونا متطوعا.وفي هذا الإطار يقول:"فهم قد وجـــدوا في ذلك فائدة.وبالنسبة لي فقد كانت الفائدة مؤكدة؛ فبالإضافة إلى الخـــبرة المهنـــية، فقد كنت أرافق أعضاء المحكمة لتنفيذ الأحكام.والخروج مع أعضاء المحكمة إلى الريف التبسي [*] يستحق أكثر من التطوع،فلو كنت أستطيع أن أدفـــع عليه مالا لفعلت"[4].إذ هناك يوجد الوجه الآخر للمجتمع الجزائري في مقابل المدينة في بعدها الحضري.

لقد اكتشف هناك بأن بعض الظواهر القديمة لم تزل بعد حية.فالأفراد يدفعون فوق ضرائبهم الزمنية زكاة المنطقة بأسرها، ويتميزون بالكرم، والفلاح يؤرخ لأحداثه في قبيلته أو في المنطقة الريفية التي يقطن فيها بهذه الطريقة: عام

---

[1])– المصدر نفسه: ص 130.

[2]) – المصدر نفسه: ص ص 139 – 156.

[3])– المصدر نفسه: ص ص 159 – 160.

[*] – مثل إلى « أولاد سيدي يحي »، « الكويف » و « الونزة ».

[4])– المصدر نفسه: ص 161.

الـــرز، عام الجليد، عام الجراد، عام وفاة أو زواج فلان أو زيارة الشيخ فلان ... [1]. كما"أن الموجة الإصلاحية والسياسية التي بدأت تحرك تبسة لم تقتحم بعد حدوده"[2].

هذا وبعد العودة من الريف التبسي إلى المدينة، كان « بن نبي » يتردد عـــلى نـــاد أنشئ بمبادرة من صديقه السابق الذي يعمل بمحكمة « تبسة »، وكان الشيخ «العربي التبسي» ملازما لهذا النادي،يشرح فيه أفكاره ويبدي فيه مواقفـــه من الأحداث الوطنية والدولية [3].وإنشاء هذا النادي في هذا الوقت بالذات شكل نقلة نوعية أولى على طريق بعث وعي جماعي. إذ يقول في هذا الصـــدد:"... ففـــي تبسة منذ عام 1925 بدأت الروح الجماعية في البروز في وقـــائع محـــددة. فإنشـــاء النادي كان أكثر تعبيرا في هذا الإطار من عشرة انتخابات يزورها الحاكم أو الزعيم ...فـــ (المجتمع) كان يعمل بنفسه على تأسيس نواديه وبناء المساجد والمدارس " [4].

هذا ولّما بلغ سن الاثنين والعشرين سنة، وهو السن القانوني الذي يسمح لـــه (كجزائري) بممارسة وظيفة«عون في القضاء »، تم تعيينه في هذا المنصب ابـــتداء من شهر مارس 1927، وكان مكان عمله الأول « آفلو » [*]، حيث مكـــث فـــيها سنة كاملة يعمل في محكمتها[5].وهناك اكتشف ميزة أخلاقية أساســـية في أهـــل هذه المنطقة وهي الكرم وحسن الضيافة، إذ يقول في هذا الصـــدد:"...كانـــت«آفلـــو» بالنســـبة لي مدرســـة تعلمت فيها أن أدرك فضائل(المجتمع)الجزائري الذي لا يزال بكرا، وكانت هذه فضائله بالتأكيد في سائر أنحاء الجزائر قبل أن يفسد منها الاستعمار" [6].

---

[1] – المصدر نفسه: ص 164.

[2] – المصدر نفسه: ص 163.

[3] – المصدر نفسه: ص 167.

[4] – المصدر نفسه: ص 169.

[*] – كانت « آفلو » سابقا تابعة جغرافيا لولاية « وهران »، أما الآن فهي تابعة لولاية « الأغواط ».

[5] – المصدر نفسه: ص ص 171 – 176.

[6] – المصدر نفسه: ص 174.

ولكـــن الشيء الذي كان يستولي على ذهنه فورا مع شيء من القلق إزاء هـــذه المســـألة هـــو كمـــا يقـــول"ذلك الخطر الذي يتهدد ما أؤتمنت عليـــه«آفلـــو»من فضائل دون أن يدرك السكان أنهم الأمناء عليها"[1]لقد كان هـــؤلاء طاهرين في الأعماق "ما تزال تسودهم البراءة،ولم يعرفوا بعد الرذيلة المتأصلة.ثم إن الضجة التي بدأت تحرك الأفكار في قسنطينة(الإصلاح) لم تكن قـــد امتدت بعد إلى(هذه المنطقة)...ولم يكن الشيخ«البشير الإبراهيمي» قد وصل بعد إلى«تلمسان»(القريبة من«آفلو»)، وأظن أني أنا الذي أدخلت العدد الأول مـــن مجلـــة «الشهاب» إلى آفلو"[2] ،حيث يقوى نفوذ«المرابطون»أهل الطريقة(القادرية، الرحمانية)[3] وذلك بتزكية من الإدارة الاستعمارية وبإيعاز منها في غالب الأحيان. ففي هذا الصدد يقول«...ومن أجل أن تدخل الإدارة في رأس مستعمريها (أبناء البلاد) تلك الجرعات من السذاجة الضرورية لمصالحها الخاصـــة، كانـــت في تلك الفترة وخصوصا في وهران، تعمد إلى حرق أكوام قمـــح (شـــخص) أوروبي مســـتعمر رفض أن يعير أدواته ليحصد بها قمح «سيدي المرابط الفلاني ».

وكـــان المعلق يقول: أترى أية كرامة لسيدي فلان ؟ ! فالمعمر الذي رفض أن يعيره أدواته قد احترق موسمه "[4].

في مـــارس 1928 عاد إلى مدينة « تبسة » لقضاء عطلته بين الأهل، وفي طـــريقه إلى العـــودة توقف في مدينة « قسنطينة »، حيث اتصل بالشيخ «عـــبد الحمـــيد بن باديس » لأول مرة في مكتبه، وبثه ما يجده في نفسه من رؤى وأفكار تتصل بالمجتمع في قرية « آفلو »[5].

وأثـــناء قضـــاء عطلـــته بمدينـــة« تبسة» لا حظ بداية تقلص نشاط «الطرقـــية»وزيـــادة في نشـــاط«الحـــركة الإصلاحية»(بناء المسجد الجديد

---

[1] – المصدر نفسه ص 174

[2] – المصدر نفسه ص 180

[3] – المصدر نفسه ص 181

[4] – المصدر نفسه ص 182

[5] – المصدر نفسه ص 184

والمدرسة)[1] فالنادي الذي أنشئ قبل ذهابه إلى«آفلو» أضحى كما يقول " ... القلب الذي تنظم نبضاته جريان الأفكار وانتشارها.فالتبسيون كانوا يجتمعون فيه في الظروف التي تهم الناس جميعا. وكان رجال القبائل«اليحياوية»و«اللموشية » يترددون عليه أيضا حين يؤمون سوق المدينة. وكانوا يحملون معهم الأفكار التي ينشرونها، ليبذروها في « الدواوير »خلال السهرات تحت الخيمة " [2].

ومن بين الصحف التي كان يطالعها من حين إلى آخر خلال هذه العطلة، صحيفة «صوت المساكين La voix des humbles»وصحيفة «العصر الجديد» التي عادت الإدارة الاستعمارية عن قرار توقيفها، فسمحت بإصدارها من جديد، وكانت تزوده بمختلف المستجدات حول العالم الإسلامي .

ومن بين ما شد انتباهه في هذا الصدد من مستجدات حصلت على مستوى الحركة الإصلاحية بالجزائر العاصمة في هذا الوقت بالذات، دعوة بعض العائلات الجزائرية القاطنة بالعاصمة الشيخ « الطيب العقبي » ليقيم بينها، وذلك من أجل دعم الأفكار الإصلاحية بهذه المنطقة رفقة الشيخ «مبارك الميلي»والشيخ« أبو يعلى الزواوي ». وقد أنشأ « العقبي » في هذا الإطار«نادي الترقي» بالعاصمة ووصل الصراع بين«الإصلاح »و« المرابطية » إلى ذروته في هذا الوقت، وأسس المرابطون صحيفة تنطق بلسانهم تدعى بـ «السُّنة » [3].

بالموازاة مع ذلك طرأت أيضا مستجدات أخرى على مستوى الحركة الإصلاحية بمدينة«وهران» في هذا الوقت بالذات، فالسكان الجزائريون القاطنون بـ«S^t Denis du – sig »سابقا،بنوا بمبادرة منهم مدرسة دعوا من أجل إدارتها الشيخ «العربي التبسي» ويتكفلون بميزانيتها.وذلك ما يعبر–في نظر

---

[1] – المصدر نفسه ص ص 184-185

[2] – المصدر نفسه: ص 185.

[3] 2)– المصدر نفسه: ص 189.

«بـــن نـــبي»-عـــلى أنهم أضحوا"يلتزمون بملء اختيارهم دون أن يدخلوا في حسابهم رأي الإدارة"[1].

بعـــد العطلـــة تم نقـــل إلى محكمـــة «شـــلغوم العيد» وكان اسمها يومها«شاتودان Château dun»ولم يناسبه جو المنطقة آنذاك لأنه- كما قال- "...كانت هذه البلدة مركزا كبيرا للمستعمرين، كل شيء فيها يخضع لقانون الاستعمار.أما حياة السكان الأصليين فكانت نوعا من الإقامة في أرض أجنبية ... "[2]، كمـــا أنـــه لم يعجبه تسلط كاتب محكمة الصلح « الكورسيكي» الأصـــل، فانفجـــر خلاف بينهما، أدى به في النهاية إلى تقديم استقالته من الوظيفة[3].

عـــاد «بن نبي» بعد ذلك إلى مدينة «تبسة» ليصبح شريكا في مطحنة مـــع صـــهره (زوج أخته الكبرى)[*] وصديق آخر، ولكن لم يحالفهم الحظ في الـــتجارة طويلا،حيـــث وقعت أزمة اقتصادية سنة 1929 ارتفعت على إثرها الأسعار(البترين، القمح، الشعير)، فقرر هو وصهره بالتالي التخلي عن العمل بالمطحـــنة[5]. فاقـــترح والـــداه عليه بعدها أن يسافر إلى «باريس» لاستكمال الدراسة أسوة ببعض من سافر من الطلبة الجزائريين (مثل زميله «بن ستيتي ») والذين التحقوا بمدرسة اللغات الشرقية لمدة عام، تمهيدا لدخول كلية الحقوق، وتعهد والداه في هذا الصدد بتأمين حاجاته المادية هناك شهريا[6].

ســـافر « بن نبي » إلى « فرنسا »، ونزل بالضبط في « باريس » في شهر سبتمبر من العام 1930. وبعد وصوله قام مباشرة بتسجيل اسمه في قائمة الطلـــبة المعنيين بالمشاركة في امتحانات القبول بمعهد الدراسات الشرقية[7]. وفي هـــذه المدينة الفرنسية بدأ يتعرف شيئا فشيئا هذه المرة، وبصورة عملية، عن

---

[1] – المصدر نفسه: ص 190.

[2] – المصدر نفسه ص 190

[3] – المصدر نفسه ص 192

[*] – لـ ((مالك بن نبي)) أختين شقيقتين فقط.

[5] – المصدر نفسه ص ص 193-194

[6] – المصدر نفسه ص 196

[7] – مالك بن نبي مذكرات شاهد للقرن، القسم الثاني : الطلب، ط2، مصدر سابق، ص ص 203-204

جوانب من حياة المجتمع الأوروبي وتاريخه (خاصة المجتمع الفرنسي). فهو يقول في هـذا الصـدد مثلا:"... لقد صفا الجو لاهتماماتي الاستطلاعية وتجولاتي الاكتشـافية التي ساقتني ذات يوم إلى متحف الفنون والصناعات بقرب باب «سـان دونـيس»،حيـث وقفت تلك العشية أفكر لأول مرة في الجوانب التكنولوجـية للحضـارة، وأنا أشاهد بين روائع المتحف، القاطرة الأولى التي تحركت بالطاقة البخارية والطائرة التي عبر عليها «بليرو»بحر« المانش » "[1].

ويقول: أيضا"كنت أحيانا أقضي العشية في الناحية نفسها على سطح مقهـى... أتتـبع ببصري المتسكعين التائهين على الرصيف... لم أكن أرى الروابط التي تربط هؤلاء (المتسكعين) بمحيطهم ... "[2].

وبالنسـبة لـزياراته لبعض الأسر الفرنسية البورجوازية، فيقول أنها " كانت...تكشف لي عن الحياة الأوروبية من الداخل في نطاق عائلي، بينما لم أكن في الجزائر أعرفها إلا من الخارج ... "[3].

وفي« بـاريس» تعـرف صـدفة عـلى« الوحدة المسيحية للشبان الباريسـيين» التي تُدار وتُنظم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعـيدا عـن مكان إقامة الأهل. وهكذا أصبح«بن نبي»عضوا مسلما، مُذكرا بدينـه بكـل وضوح، في هذه الوحدة التي كان يديرها السيد«هنري نازيل» وزوجته روحيا وماديا.وما كان لأمر كهذا حسبه أن يكون عاديا في سجلات المنظمة، وقد ساهم ذلك في نظره كثيرا في تبادل الآراء وإثراءها وذلك انطلاقا من قناعات ومواقف فكرية مختلفة[4].

لم يوفق «بن نبي» لدخول معهد الدراسات الشرقية، لأن الدخول إلى هـذا المعهد كان يخضع في نظره – خاصة بالنسبة لمسلم جزائري مثله – إلى مقـياس غـير علمي. فهو في هذا الصدد يقول:"...لم تَبْدُ لي أية صعوبة في الاختبارات ولكن كانت خيبة أمل: لم أنجح!!...وليس هذا كل ما في الأمر، بـل لقـد طلـبني مدير المعهد، وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعرني بعدم

---

[1] – المصدر نفسه ص 205

[2] – المصدر نفسه ص 205

[3] – المصدر نفسه ص 214

[4] – المصدر نفسه ص ص 209-212

الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده، فكان الموقف يُجلّى لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع – بالنسبة لمسلم جزائري–لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي"[1]. وبعهدها دخل مدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء، وهناك أدرك بأنه قد دخل هذه المرة إلى الحضارة الغربية من باب آخر، بعد أن دخلها من باب« وحدة الشبان المسيحيين الباريسيين» [2]. فالساعات التي كان يقضيها في الورشة لم تكن كما يقول:"...مجرد لعب، بل كانت ممتلئة بشعور الوارد على «دين جديد » (تجاوزا)، يقوم بطقوسه في «معبد» هذه الحضارة الآلية التقنية.ولم تكن أيضا تخلو من ملاحظات وبواكير لتفكير اجتماعي بدأت تخامر عقلي.فبينما تلك الأدوات البسيطة في يدي، أشعر بأنها ليست لمجرد اللعب، بل هي دلائل على مقدار تطور المجتمع،لأن المجتمع« البدائي»آلته اليد والإصبع "[3].

لقد حرك ذلك فيه هاجس البحث أكثر عن سبل تطوير مجتمعه والتحاقه بالركب الحضاري، خاصة وأنه لم يكن في هذه الفترة بعيدا عن ذاكرته، وبقي يربطه به رابط روحي قوي، إلى درجة أنه كان يدافع عن شخصيته ويعبر عن أفكاره الوطنية الداعية إلى الاستقلال ويجهر بموقفه ضد الاستعمار في « فرنسا » ذاتها، على الرغم من المخاطر التي كان من الممكن أن يتعرض لها بسبب ذلك من قبل المستعمر [4].

أكثر من ذلك فإنه في الحي اللاتيني،حيث يسكن العديد من العرب المغاربة والمشارقة وحيث يوجد أيضا مقر«مركز طلبة الشمال الإفريقي المسلمين»،كان يدعو رفقة زميله الجزائري«حمودة بن الساعي»والوزير الأول التونسي الأسبق (في عهد الاستقلال) «الهادي نويرة»إلى الوحدة المغاربية والعربية والإسلامية[5].

---

[1] – المصدر نفسه ص 216

[2] – المصدر نفسه: ص ص 218 – 219.

[3] – المصدر نفسه: ص 221.

[4] – المصدر نفسه: ص 226.

[5] – المصدر نفسه: ص ص 226 – 229.

في عـــام 1931 تـــزوج بفستاة فرنسية اعتنقت الإسلام وسمت نفسها «خديجـــة»، وكانـــت له ســـندا قويا في حياته، بحيث وفرت له كل الراحة والرعاية البيتية [1]، وشاركته في التفكير فيما يخص مسائل عديدة. فهو في هذا الصـــدد يقول:"... كانت الحياة المنزلية تبتدئ بالنسبة لي، عندما أعود مساء مـــن المدرســـة، فآخذ استراحة قصيرة ... وأتجاذب الحديث مع « خديجة » حـــول القضـــية الجزائـــرية أو حـــول الدين تبدي رأيها في موازنة الإسلام والمسيحية بطريقة تفيدني أحيانا،أو تلفت نظري إلى أشياء لا تفقد أهمية بالنسبة لمن لا يحتقر الشيء البسيط لبساطته" [2].

وفي البيت كانت له لقاءات مع كثير من زملاء الدراسة،خاصة المهتمين مـــنهم بعـــلم الاجـــتماع والفلســـفة والـــتاريخ،وكان أبرزهم«حمودة بن الساعي»الذي عاضده كثيرا في نشاطه الطلابي الرامي إلى رفض كل تواطؤا مع الإدارة الاســـتعمارية[3]. ولقـــد ســـبب لـــه هذا النشاط مضايقات عديدة اســـتجوابات من طرف الإدارة الفرنسية،وتعداه الأمر حتى إلى أبيه في الجزائر، حيـــث أوقف عن العمل بسببه وضاعت حقوقه كاملة بوصفه موظفا[4].وفي هـــذا الصدد يقول:"...كنت أتأثر من هذه المحن التي بدأت تنصب على أهلي بســـبي،دون أن أُغير سلوكي بسببها،بل كانت الأحداث نفسها تزيدني تصلبا وتحديـــا في نظر الإدارة الاستعمارية، التي بدأت في ذلك الشهر بالذات(شهر فـــيفري من العام 1932)، تولي اهتمامها في الأوساط الطلابية بصدى حدث وقع بعاصمة الجزائر،حيث أمر الحاكم بمنع أي نشاط لجمعية العلماء ..."[5].

هذا وقد تيسر له- في هذا الوقت بالذات الذي بدأ يظهر فيه بقوة اسم القـــائد الحـــربي الألمـــاني «أدولف هتلر»-أن يقابل «المهاتما غاندي»(داعية اللاعـــنف) الذي زار«باريس» عام 1932،وألقى فيها محاضرة نظمتها الجمعية

---

[1] – المصدر نفسه: ص 236.

[2] – المصدر نفسه: ص 274.

[3] – المصدر نفسه: ص ص 236 – 238.

[4] – المصدر نفسه: ص ص 236 , 242.

[5] – المصدر نفسه: ص 242.

الـــتي كان عضوا فيها(*)[1].وتعرف كذلك على الطالب السوري «فريد زين الدين»الذي أصبح نائب وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة((من الوحدة بـــين سوريا ومصر)، وكان آنذاك مكلفا من طرف«شكيب أرسلان»بدعوة الطلـــبة العرب الموجودين بالعاصمة الفرنسية «باريس»لتكوين جمعية«الوحدة العربـــية».وفي هـــذا الصـــدد يقـــول«بـــن نبي»:"... وكأنما كانت هذه الدعوة...مقدمة للجامعة العربية الحالية..."[2].

اســـتمر«بن نبي»في الدراسة وفي النشاط ضمن الوسط الطلابي، ولكن ذلـــك لم يُعطل شيئا من مناقشاته مع زميله «حمودة بن الساعي».فهذا الأخير كان يزوره في بيته كل يوم جمعة مساء يرافقه أحيانا أخوه «صالح بن الساعي» الـــذي التحق بهم في هذه الفترة بـــ«باريس».وكانت هذه المناقشات تتسم بالتنوع؛فهي علمية أحيانا،وسياسية أخرى،واجتماعية-دينية غالبا،أو حتى مجرد نقـــد لكيفية تسيير الأمور في الجزائر من قبل المسؤولين عن الحركة الإصلاحية أو عن الحركة الوطنية[3].ولكن الشيء الأساسي الذي كان يميز هذه المناقشات هـــو كونها كانت تدور حول «محور الإسلام»، الأمر الذي قال في شأنه «بن نـــبي» أنـــه"جعلني أستفيد كثيرا من خبرة صديقي(حمودة بن الساعي)وسعة اطلاعـــه في الموضـــوع، لأنـــه قلما كان يغيب عنه أمر في الميدان الذي يُعنى بـــه«معهدالدراسات الإسلامية»في «السربون»..فكان يدخلني معه في الميدان بصـــفة مـــريد مبـــتدئ، ولكنني ربما كنت أفيده من ناحية تنسيق ومنهجية الأفكار.."[4].

عـــاد « بـــن نبي»إلى الجزائر في صيف 1932 ليقضي فترة العطلة بين الأهل[5].فوجد نشاط الحركة الإصلاحية قد تكثف وعرف انتشارا كبيرا [6].

(*) – لم يُذكَرْ هنا بالضبط عنوان المحاضرة.

[1] – المصدر نفسه: ص 244.

[2] – المصدر نفسه ص 250

[3] – المصدر نفسه ص ص 251-252

[4] – المصدر نفسه ص 251-252

[5] – المصدر نفسه ص 254

[6] – المصدر نفسه ص ص 262-263

واستمر هناك في مراجعة بعض الدروس التي أشار إليها بعض أساتذته (خاصة في مـــادة «الترمو ديناميك Thermodynamique»)، وذلك تحضيرا للموسم الدراســـي المقبل [1]. وبعد عودته إلى « باريس » زار منطقة « دروكس »، حيـــث تقيم والدة زوجته، وذلك قبل يوم افتتاح المدرسة، وهناك سمحت له الفرصة بالتعرف على الصورة الأخرى لحياة المجتمع الفرنسي، لم يكن ممكنا بـــ « باريس » (وسط المدينة) التعرف عليها. فهناك- كما يقول-:"... توجد هـــذه الصورة بنماذجها الأصيلة وأصولها البعيدة في الريف؛ في الطبيعة حيث تكونـــت صـــلة الإنســـان بالتراب على مدى القرون ..."[2]. وأثناء الفترة الدراسية الجديدة كثف من مجهوداته في الدراسة، وفي الوقت نفسه عكف على تـــبادل الـــرأي مـــع زملائه الطلبة في الحي اللاتيني حول طروحات عدد من المفكرين العالميين أمثال « نيتشه » و« سبينوزا» ...[3]"وبقي يشهد التطورات السياســـية في أوروبا وفي العالم الإسلامي وفي الجزائر خاصة، حيث كان يتابع باهتمام خاص مستجدات الحركتين الوطنية والإصلاحية. بعد عودته إلى الجزائر في صـــيف 1933 لقضاء العطلة الصيفية بين الأهل، لاحظ بأن وتيرة الحركة الإصلاحية قد عرفت تسارعا، بحيث فقدت « الطروقية » مكانتها الأولى في صـــفوف أفراد المجتمع، وبدا هناك اهتمام بإنشاء النوادي والمدارس ومعارضة الاستعمار بشكل منظم [4]. وبعد عودته إلى « باريس » بقي مكثفا لمجهوداته في الدراسة، وفي الوقت نفسه راصدا للتطورات الفكرية والسياسية الحاصلة في أوروبا وفي العالم الإسلامي وفي الجزائر خاصة [5].

هذا ومع انقضاء السنة الدراسية (1933-1934) واستعداده للالتحاق بأســـرته لقضاء العطلة الصيفية، فوجئ بنبأ وفاة أمه، فأثر ذلك فيه كثيرا [6]. ولكـــنه لم يمنعه كلية من متابعة التطورات التي شهدها المجتمع الجزائري في هذا

---

[1] – المصدر نفسه ص 265

[2] – المصدر نفسه ص 268

[3] – المصدر نفسه ص ص 274 - 275

[4] – المصدر نفسه ص ص 287 ، 290

[5] – المصدر نفسه ص ص 298-309

[6] – المصدر نفسه ص ص 312-314

الوقـــت بالذات. إذ لاحظ في هذا الصدد تنامي الشعور بالتذمر والاستياء في صفوف أفراد المجتمع من الوضع الاستعماري [1]. وبعد عودته إلى فرنسا بقي مركزا لمجهوداته في الدراسة خلال السنة الدراسية (1934 – 1935) ومتابعا في الوقـــت نفســـه للتطورات المجتمعية الحاصلة في أوروبا وفي العالم الإسلامي ككل [2].

فضلا عن أنه كان يفكر – من حين إلى آخر – في هذه الفترة بالذات في الســـفر إلى عدة دول (المملكة العربية السعودية، مصر، إيطاليا ...). ولكـــن جميع محاولاته في هذا الإطار باءت بالفشل، نظرا للعراقيل الإدارية التي كـــان الاســـتعمار الفرنسي – حسب رأيه – يجتهد في خلقها بالنسبة لأبناء المستعمرات، خاصة لأولئك الذين كان يتحسس منهم الرغبة والقدرة في آن واحد على التملص من الدائرة الاستعمارية [3].

كمـــا أنه بقي متابعا لمناقشاته الفكرية المتنوعة مع زملائه الطلبة بالحي اللاتـــيني وكذا بالبيت، خاصة مع « حمودة بن الساعي » وأخيه « صالح بن الســـاعي ». وبشـــأن هذه المناقشات يؤكد بأنه لا يمكن تصور إلى أي حد كانـــت هـــذه الأخيرة مراقبة من طرف الغير، أي من طرف السلطات العليا القائمة برعاية الطلبة الجزائريين بباريس [4].

ولأول مـــرة في حياته، واجه في هذه الفترة بالذات عملية توليد الفعل الكـــتابي في مقالـــة كان من المنتظر أن تصدر بجريدة لـــ «الأمين العمودي» تســـمى (الدفاع)، اختار لها عنوان « مثقفون أو مُثَيْقفُون ؟ »،وجاءت كرد فعـــل على مقالة نشرت في جريدة « اتحادية النواب » بعنوان « أنا فرنسا»، بحيـــث كان – كما يقول –« على وعي تام، مع « حمودة بن الساعي» بـــ «المهـــزلة » التي بدأت في الجزائر،ومن الاختلاس الكبير الذي بدأت خيوطه تظهر على مسرحنا السياسي منذ ظهرت عليه «اتحادية النواب »، كما كنت أدرك أن الصـــراع لم يكـــن صراع أفكار، وإنما صراع مصالح تشرف عليه

---

[1] – المصدر نفسه ص ص 314-318

[2] – المصدر نفسه ص ص 320-325 و331-337

[3] – المصدر نفسه: ص ص 338، 345، 349 – 353، 363 و 369.

[4] – المصدر نفسه: ص ص 356 – 357.

السلطات العليا، متظاهرة بمقاومته أحيانا، عندما تعلن غضبها على هذا «العدو لفرنسا » أو ذاك، حتى يرى (المجتمع) المغرور في تلك «العداوات» بطولات توجب عليه السمع والطاعة لأصحابها " [1].

لكن هذه المقالة لم تُنشر في النهاية في جريدة « الدفاع ». لماذا ؟. لأن المشـــرف على هذه الجريدة كان يريد تجنب ظهور مقالات على أعمدتها تبرز الاختلاف في الآراء بين الجزائريين. وما كان على « بن نبي » في هذا الوقت بالذات إلا الاهتمام أكثر بالنجاح في هذه السنة الدراسية الأخيرة، والتي بدأت تـــأخذ منعطف الامتحانات [2]، وهو الذي يقول عن نفسه " ... أنني كنت أقدس العلم لأنني أؤمن بقيمته الأخلاقية ... " [3].

اجـــتاز الامتحانات بنجاح، وتخرج سنة 1935 مهندسا كهربائيا [4].

وهـــنا بـــدأت مرحلة أخرى من مراحل حياته، تميزت بظروف خاصة كما سيتبين ذلك من خلال ما يأتي.

ثالثا:ظروف ما بعد التعلم: محطات أساسية أخرى من حياته (1936 – 1973):

قرر«بن نبي »، بعد تخرجه من مدرسة اللاسلكي، الهجرة إلى « ألبانيا»، لكـــنه تـــراجع فيما بعد عن هذا القرار عندما علم بأن الظروف المعيشية هناك صعبة وفرص العمل محدودة جدا [5]. فاستقر به المقام في « فرنسا » إلى حين، وبقي يُتابع هناك التطورات الجارية في العالم.

ومـــما شد انتباهه في هذا الصدد هو تجند الفرنسيين (أفرادا وهيئات) مـــن أجل إيواء وتشغيل المهاجرين الأسبان الذين كانوا يعانون أوضاعا صعبة في بلدهـــم آنذاك، في حين لم يفعلوا ذلك مع المغاربة. وفي هذا الصدد يقول: "... أصـــبحت أُوازِنُ (بتعجـــب كـــبير) هـــذا الموقف الإنساني للتقدميين الفرنسيين – كما نقول اليوم – بموقفهم الجامد إزاء البؤس الفظيع الذي يتجلى في حـــياة العمال المغاربة، الجزائريين خاصة، الذين يتيهون في أتعس الأحياء

---

[1] – المصدر نفسه: ص 360.

[2] – المصدر نفسه: ص ص 361 ; 366.

[3] – المصدر نفسه: ص 367

[4] – المصدر نفسه: ص 369.

[5] – المصدر نفسه: ص ص 370 – 374.

الباريسية دون أن تنشط أية همة إسعاف نحوهم، بينما القانون يضعهم في إطار الجنسية الفرنسية " [1].

كما بدأ في هذه الفترة بالذات يطالع بكل إمعان واهتمام كتب «بلزاك». فكانت مطالعته هذه تزيده–كما يقول–كثيرا في معلوماته عن«حياة المجتمع الفرنسي عندما بدأت،بعد العهد النابليوني، انطلاقته في العهد الصناعي ..." [2].

لقد كانت هذه المطالعة وهذه الملاحظات وهذه الموازنات كلها –كما يقول–" حقلا خصبا لأفكاري الاجتماعية الناشئة " [3].

لم يتوان في الوقت نفسه في البحث عن منصب شغل، ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك [4]، فرجع إلى الجزائر في صيف سنة 1937 حاملا معه عقدا مؤقتا مع دار باريسية للنشر تخصصت في طباعة وتوزيع الكتب العلمية المبسطة. هذه الدار التي رأت من مصلحتها أن تمد نشاطها إلى الجزائر[5]. وقد كان حريصا عند وصوله إلى الجزائر، أن يتحسس عن كثب الظروف الراهنة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري آنذاك. فوجده يعيش في حالة وعي زائف بالقضية الوطنية، وفقر مدقع أكثر من ذي قبل [6].

لم تطل مدة عمله المحددة في الجزائر، فعاد إلى فرنسا سنة 1938 بدعوة من بعض الجزائريين له، والذين أرادوا تأسيس « نادي المؤتمر الجزائري الإسلامي » الذي كان هدفه الأساسي هو المساهمة في محو الأمية في صفوف العمال الجزائريين المهاجرين، ليعين بذلك مديرا على رأسه[7].

---

[1] – المصدر نفسه: ص 375.

[2] – المصدر نفسه: ص 376

[3] – المصدر نفسه ص 376

[4] – المصدر نفسه ص ص 380 – 382

[5] – المصدر نفسه ص 383

[6] – المصدر نفسه ص 383 – 394

[7] – المصدر نفسه ص 383 – 394

ولقـــد ســـعد بذلك كثيرا لأنه شعر بأنه وجد فضاء يسمح له بترجمة أفكـــاره، والمشاركة – مع بعض أعضاء النادي الآخرين – في توعية العمال وتثقيفهم.

فهو في هذا الصدد يقول:"... كانت كلماتي المشحونة بكل ما أؤمن بـــه وبكـــل مـــا أسخط عليه، تنفذ إليهم (العمال) بحدة أرى أثرها على وجوههم ..." [1].

كما يقول أيضا:"...في هذه اللحظة من السعادة الشاملة شعرت بأني سعيد؛ سعيد بأول انتصار لي(بعد فترة من الحصار) على الاستعمار ..." [2].

يحـــدث هـــذا في الوقـــت الـــذي كان فيه الرأي العام العالمي متعلقا – كما يقول–" بأحداث الشرق الأقصى، حيث تواصل اليابان حربها التوسعية ضـــد الصين، وكانت يومئذ تشرع في هجومها الكبير على ميناء «شنغهاي» لـــيحطـــم طيرانهـــا أكـــواخ الأحيـــاء الشعبيـــة الصينيـــة وقصور مناطق النفوذ الأوروبي"[3].

لكـــن بعـــد فترة من النشاط بالنادي، ورد إليه من مفتش « أكاديمية مرســـيليا » اســـتدعاء يخـــبره من خلاله بأن نشاطه بالنادي أضحى محظورا، بدعـــوى أنه ليس لديه " شهادة تسوغ (له) التدريس ، بالإضافة إلى أن المكان نفسه لا يصلح لهذا الغرض بسبب النقص في تهويته ..." [4].

بعـــد هـــذه التجربة قصد « بن نبي » « تبسة »، ولكن ما لبثت أن اندلعت الحرب العالمية الثانية، وضاقت عليه سبل العيش، قرر العودة إلى فرنسا مـــع زوجته في 22 سبتمبر 1939 [5]، ليستقر فيها حتى مجيئه إلى «القاهرة » سنة 1956 [6].

---

[1] – المصدر نفسه ص 396

[2] –المصدر نفسه ص 400

[3] – المصدر نفسه ص 401

[4] – المصدر نفسه ص 416

[5] – المصدر نفسه ص ص 417 –428

[6] - sadek L'islam et les muslmans en France paris éditions tougui 1987 p 371 - sellam

وفي « القاهـــرة » ركز هناك اهتماماته على إتقان اللغة العربية، فبدأ يحاضر ويكتب بها. ثم قام بترجمة كتبه إلى العربية بمساعدة بعض الطلبة، فلقيت استحســـانا كبيرا في أوساط المثقفين، الشباب منهم خاصة، في مصر والأقطار العربية والإسلامية المجاورة[1].

كما أنه كان يعقد ندوات فكرية أسبوعيا في بيته، يؤمها طلاب المعرفة من جميع أنحاء العالم الإسلامي[2].

فضلا عن ذلك فإنه التقى هناك بالرئيس المصري الراحل « جمال عبد الناصر»، وسمحت له الفرصة أيضا – أثناء وجوده دائما في القاهرة – بزيارة أكثر من مرة سوريا ولبنان لإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات العلمية التي تعالج مواضيع شتى تتعلق بالوضع الحضاري العام لمجتمعات العالم الإسلامي [3]، بالإضافة إلى زيارات أخرى قام بها إلى عدة أنحاء من العالم: الصين، إندونيسيا، أمريكا، الاتحاد السوفياتي (سابقا)، ألمانيا والمملكة العربية السعودية [4].

هـــذا وما تجدر الإشارة إليه أيضا في هذا الصدد هو أنه بمجرد وصوله إلى القاهرة وضع نفسه تحت تصرف « ثورة التحرير الجزائرية »، ولم يكتف بعـــرض ذلك شفاهيـــا، بـــل كتـــب إلى المسؤولين خطابـــا مطـــولا في 01 سبتمبر 1956 جاء فيه على الخصوص ما يلي [*] [5]:

" إنني حضرت إلى القاهرة للقيام بواجبين:

أحدهمـــا يخص مهمتي ككاتب يريد نشر كتابه « الفكرة الإفريقية – الآسيوية»، وقد يدلكم عنوانه على صلته بالقضية الجزائرية سواء اعتبرناها من الناحـــية الداخلـــية « كتوجـــيهات تخص الكفاح » أو من الناحية الخارجية «كنشر هذه القضية في المجال الدولي ».

---

[1] قاسم أحمد الشيخ، لحاج نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي الجزائر منشورات التبيين الجاحظية 1998 ص 12

[2] –عمار طالبي: " مالك بن نبي ومشكلة الحضارة"، مجلة الثقافة، الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة.

[3] – أحمد السحمراني: مالك بن نبي ؛ مفكرا إصلاحيا . ط2، بيروت، دار النفائس، 1986، ص ص 17 – 18.

[4] – عمار طالبي: « مالك بن نبي ومشكلة الحضارة.»، مجلة الثقافة، الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة، العدد 18، مصدر سابق، ص 11.

[*] قد يبدو هذا الاقتباس طويلا نوعا ما، ولكن الاستشهاد به على هذا النحو ضروري ومفيد جدا في توضيح الأهداف الأساسية والبعيدة التي أدت بـــ « مالك بن نبي » إلى التشبث بثورة التحرير الجزائرية ووضع نفسه تحت تصرفها.

[5] – مالك بن نبي: في مهب المعركة (إرهاصات الثورة). دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، 1986، ص ص 80-81.

وبخصـــوص هـــذا الواجب فقد قمت به بالقدر المستطاع، حيث أنني وضـــعت كتابي في أيدي من سيُعْنَى بنشره، حتى أنني أعتبر نفسي متحررا في المستقبل من مسؤولية هذا النشر.

وأمـــا الواجب الثاني الذي حضرت من أجله إلى القاهرة، فهو يتعلق بشخصي كجزائري ساهم في الكفاح ضد الاستعمار منذ ربع قرن، ويأتي الآن كي يواصل هذا الكفاح تحت راية الثورة التحريرية.

وأعـــتقد أنـــني إذا وُجهت داخل الجزائر كممرض عسكري في جبهة القـــتال، أســـتطيع في الوقت نفسه أن أقوم بكتابة تاريخ الثورة الجزائرية على طريق المشاهدة تقريبا.

كمـــا أعـــتقد أنه يفيد أن أوجه بهذه المناسبة خطابا مفتوحا إلى رئيس الوزراء الفرنسي، حتى يعلم ما هي الأسباب الإنسانية التي تدفع بكاتب جزائري في المعركة. "

وهكـــذا يُلاحـــظ مـــدى تعلـــق « بن نبي » بالقضية الوطنية وانخراطه فيها، باعتبارها قضية إنسانية حضارية.

وفي ســـنة 1957 عـــين كـــأحد مستشاري « المؤتمر الإسلامي » في القاهرة، وبقي هناك حتى سنة 1963، حيث رجع إلى الجزائر ليعين مديـــــرا عامـــا للتعليم العالي. وفي سنة 1967 قدم استقـــالته من هذا المنصب ليتفرغ بذلـــك للنشـــاط الإبداعي وكذا لتنظيم الندوات الفكرية في بيته والتي كان يحضـــرها الشباب الجامعي خاصة[1]. وقد تحولت هذه الندوات فيما بعد إلى «ملتقيات الفكر الإسلامي » التي تنعقد في مختلف مناطق الجزائر، كان آخرها الملـــتقى الرابع والعشرون بالجزائر العاصمة سنة 1990. وفي 31 أكتوبر 1973 تـــوفي « مالك بن نبي » بالجزائر العاصمة عن عمر يناهز الثامنة والستون [2]، تاركا وراءه نتاجا فكريا متعددا يدور محوره حول «مشكلات الحضارة ».

---

[1] – أنظر في هذا الصدد:

– عمـــار، طـــالبي: « مـــالك بن نبي ومشكلة الحضارة.»، مجلة الثقافة، الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة، العدد 18، مصدر سابق، ص ص 11 – 12.

– أحمد، السحمراني: مالك بن نبي؛ مفكرا إصلاحيا. ط2، مصدر سابق، ص 18.

[2] عمار، طالبي: « مـــالك بـــن نـــبي ومشـــكلة الحضـــارة.»، مجلة الثقافة، الصـــادرة بالجزائـــر عـــن وزارة الإعـــلام والثقافة، العدد 18، مصدر سابق، ص 12.

رابعا: **نتـــاجه الفكري (آثاره):**

لقـــد تـــرك « مالك بن نبي » عدة مؤلفات شددت كلها على إبراز مشـــكلة «العـــالم المـــتخلف » بما في ذلك العالم الإسلامي، باعتبارها قضية حضـــارة أولا وقـــبل كل شيء، فوضع كتبه جميعها في سلسلة تحت عنوان «مشكلات الحضارة».

ويمكن ذكر آثاره تبعا لتاريخ نشرها لأول مرة كما يلي [1]:

1- الظاهـــرة القرآنية (الجزائر: 1946): وهو كتاب صدر باللغة الفرنسية، تـــبنى فيه مؤلفه رؤية خاصة للعقيدة، تُركز على فعالية دورها في بعث المجتمع؛ أي أنـــه محاولة للتأمل الواعي في الدين، الذي يضع النهضة في اللحظة الحاسمة، حينما تنطلق الشرارة الروحية في اتجاه تغيير مجرى التاريخ.

2- لبيك (الجزائر: 1947): وهي رواية وحيدة تتسم بالشاعرية صدرت لـــه باللغة الفرنسية، وتعبر عن حيرة الإنسان ومعاناتـــه في العالـــم المتخلف حضاريا، لا سيما في العالم الإسلامي (الجوع، الأسمال؛ الجهل...).

3- شروط النهضة (الجزائر: 1948) : وهو كتاب صدر له باللغة الفرنسية يتـــناول مســـائل من الحاضر والتاريخ والمستقبل، والغاية من وراء كل ذلك البحـــث عـــن نهضة حقيقية للعالم الإسلامي، بل ولـــ« العالم المتخلف » ككل.

وهـــو يـــتحدث أيضا – كما سيتبين ذلك بالتفصيل فيما بعد – عن عناصر الحضارة الثلاثة: الإنسان والتراب والزمن، وعن أثر الفكرة الدينية، أو بالأحـــرى الفكرة الخالصة، في تكوين الحضارة، وعن توجيه الثقافة والتوجيه الأخلاقي والجمالي، وعن توجيه العمل ورأس المال.

إنـــه يظهر بوجه عام المشكلات التي تعيشها مجتمعات العالم الإسلامي والعـــالم المـــتخلف ككل، باعتبارها مشكلات تمت إلى علم الاجتماع، أي باعتبارها وقائع اجتماعية ينبغي فهمها وتعقل آلياتها.

---

[1] – تمت الاستعانة في هذا الصدد (من حيث التاريخ لنشر بعض الكتب لأول مرة) بالمرجع التالي :

- عمر طالبي : ((مالك بن نبي ومشكلة الحضارة)) مجلة الثقافة الصادرة بالجزائر عن وزارة الإعلام والثقافة، العدد 18، مرجع سابق، ص ص 12-13.

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، هو أن هذا الكتاب الذي صدر سنة 1948 يمثل، فضلا عما سبق ذكره، خطابا للمجتمع الجزائري المستعمر والخارج آنذاك من الحرب العالمية الثانية، يدعوه فيه إلى المواجهة المستمسكة بالأصالة والواعية بمنهجية التغيير.

فهو في جانب هام منه يمثل كلمة نقد ذاتي لمسيرة التغيير في الجزائر كلمة تُنبه إلى خطورة العمل المرتجل وغير الواعي الذي يظهر – في بعض الأحيان – في شكل نداءات الاحتجاج وخطط المطالبة التي تسوقها المنابر، فتتخذ طريقها إلى صناديق الاقتراع ...

إنه يركز على أن النهضة عملية تغيير ترفع الفرد إلى مستوى المسيرة الاجتماعية التاريخية التي تأبى اختراقات الخطط التربوية والسياسية التي يرسمها الاستعمار لأبناء المستعمرات.

4– وجهة العالم الإسلامي(باريس:1954): وهو كتاب صدر باللغة الفرنسية، بحث فيه مؤلفه مشكلة مجتمعات العالم الإسلامي المشتركة (الأزمة الحضارية)، بحيث استعرض تاريخها انطلاقا من العهد الذي ظهر فيه الإسلام، وكذا المراحل التي مرت بها، ليقف بعد ذلك مطولا عند العقدة الأساسية في المرحلة الحاضرة من مراحل الإنسانية. وهنا يوسع تحليله أكثر ليبرز المشكلة في صورتها العالمية؛ أي في صورة مشكلة إنسانية.

كل ذلك من أجل تبيان المخرج وكيفية حل العقدة بتسليط الضوء أكثر على واقع مجتمعات العالم الإسلامي.

5– الفكرة الإفريقية – الآسيوية (القاهرة: 1956): وهو كتاب صدر أيضا باللغة الفرنسية، وذلك بمناسبة انعقاد « مؤتمر باندونغ »، حيث وضع فيه مؤلفه الأسس النظرية والمناهج التطبيقية لبروز كتلة جديدة على الصعيد العالمي والتاريخ البشري، يحتل فيها العالم الإسلامي مكانة هامة.

لكن هذه الفكرة لم تتجسد على أرض الواقع، نظرا لغياب الإرادة عند بعض الأعضاء لتحقيق ذلك.

6– النجدة للجزائر (القاهرة: 1957): وهو كتاب صدر باللغة الفرنسية، وجه من خلاله مؤلفه نداء للضمير الإنساني (العالمي) من أجل اتخاذ موقف

إنساني حضاري حازم بشأن عمليات الإبادة التي كان قد تعرض لها المجتمع الجزائري من طرف الاستعمار الفرنسي.

7- مشكلة الثقافة (القاهرة : 1959) : وصدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية، تناول فيه مؤلفه قضية الثقافة في مجتمعات العالم الإسلامي وفي غيرها من المجتمعات المتخلفة حضاريا، من زاوية خاصة؛ أي من زاوية الذي يبحث عن ضالة افتقدها هذه المجتمعات، وليس من زاوية الذي يصف واقعا اجتماعيا ماثلا أمام عينيه في نظم بلاده، وفي فعالية السلوك حوله، وفي ذلك الترابط الذي هو في جوهره التزام متبادل بين المجتمع والفرد .

8- حديث في البناء الجديد (بيروت : 1960) : ويتضمن هذا الكتاب خمس (05) محاضرات مترجمة من الفرنسية إلى العربية، ألقاها«بن نبي» في مناسبات مختلفة أثناء زيارته لـ«لبنان» و« سوريا ». وتشكل هذه المحاضرات في مجموعها وحدة في الموضوع، بحيث كل واحدة منها تُتَمِّمُ الأخرى.

ولقد جاء ترتيبها في هذا الكتاب على هذا الأساس(وحدة الموضوع)، بغض النظر عن الزمن الذي أُلقيت فيه كل محاضرة، بحيث جُعلت المحاضرة التي ألقاها « بن نبي » في « بيروت » يوم 08 جويلية 1959، والتي تتحدث عن « الفعالية »، في أول المحاضرات لأنها تعالج مشكلة الفرد، حيث يخطئ في صياغة مشكلاته. أما محاضرة « الثقافة » التي ألقاها في « طرابلس (لبنان) » يوم 28 جوان 1959، فقد جُعلت الثانية، لأنها تُتَمِّمُ معنى الفعالية التي هي من نتائج الثقافة. أما محاضرة «كيف نبني مجتمعًا أفضل؟» التي ألقاها في « طرابلس (لبنان) » يوم 01 سبتمبر 1959، فقد جُعلت الثالثة لأنها تُثبت القضية من ناحية أخرى؛ أي أنها تُثبت أن انفصال الفرد عن مجتمعه سوف لا يحقق له الضمانات الأساسية لحياته.والمحاضرة الرابعة التي ألقاها على مدرج جامعة«دمشق » يوم 16 سبتمبر 1959 بعنوان «خواطر عن نهضتنا العربية » توضح الأخطاء التي ترتكب في بناء الحضارة وتقترح الوسائل الصحيحة لها (من وجهة نظر « بن نبي »). أما المحاضرة الخامسة التي ألقاها في نادي الطلبة المغاربة في « دمشق » يوم 22 جوان 1959 بعنوان« رسالتنا في العالم » فإنها تُبرز بشكل خاص مشكلة اتجاه الحضارة في العالم.

9- الصـــراع الفكري في البلاد المستعمرة (القاهرة 1960): وهو كتاب صدر أصـــلا باللغـــة العربية، حاول فيه مؤلفه الكشف عن حقيقة الصراع الفكري ولغته؛ تلك اللغة التي ليس لها من معنى واضح إلا بالنسبة لمن عاش بدوره تجربة شخصية.

10- الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي (القاهرة: 1960): ويتضمن هذا الكـــتاب محاضرة مترجمة من الفرنسية إلى العربية، ألقاها« بن نبي » في الاتحاد القومي في « دمشق » يوم 29 أوت 1960. وتناول فيها عقدة، كثيرا ما عان مـــنها الأفـــراد في مجـــتمعات العالم الإسلامي، وتتمثل في استسهال الصعب واستصـــعاب الســـهل، وهـــي في وجه من الوجوه صعوبة تعترض، في المجال النفسي، مسيرة النمو أو النهضة في هذه المجتمعات.

إن هـــذا الكـــتاب هو محاولة لتوضيح الصعوبات التي تعاني منها هذه المجتمعات اليوم في مواجهة ضرورات البناء الداخلي. وقد استهدف فيه مؤلفه المساهمة في إزاحة مركب النقص هذا عن كل فرد فيها، وذلك بمحاولة تنبيهه إلى أن الصـــعوبات الـــتي تحـــيط بحياته الاجتماعية لا يمكن إيعازها إلى طبيعة المشـــكلات، وإنمـــا إلى نفسه أولا، وذلك من الناحية العقلية في إدراكه لهذه المشكلات، وكذا من الناحية الأخلاقية في سلوكه إزاءها.

11- فكرة كومنويلث إسلامي (القاهرة : 1960) : وهو في الأصل عبارة عـــن مخطوط كتبه « بن نبي » باللغة الفرنسية في نهاية الخمسينات، ثم ترجم فيما بعد إلى العربية. وفيه حاول رسم إطار عام لمشروع يمنح العالم الإسلامي موقعـــا ضـــمن خارطة العالم المعاصر؛ موقعا يُنَمُّ عن الإدراك والوعي بدقائق مســـيرة العالم الحديث؛ وفوق ذلك عن القدوة في السلوك والمبادرات، وكذا الحضور المؤثر في هذه المسيرة.

12- تـــأملات في المجـــتمع العـــربي (القاهرة : 1961) : ويتضمن هذا الكتاب خمس (05) محاضرات مترجمة من الفرنسية إلى العربية، ألقاها « بن نبي» في مناسبات مختلفة خلال زيارته لـــ « سوريا ». وتعالج هذه المحاضرات في مجموعهـــا موضوعا مشتركا، يدخل في نطاقه المجتمع العربي كما يدخل في نطاقـــه أيضا العالم الإسلامي والعالم المتخلف في عمومه: إنه موضوع العوائق المجتمعية التي تحول دون التقدم وكذا كيفية تجاوزها.

ولقد رُتبت هذه المحاضرات بشكل يراعى فيه تسلسل الأفكار، وليس تسلسل الزمن، بحيث جُعلت المحاضرة التي ألقاها « بن نبي» في الاتحاد القومي يوم 29 أوت 1960، والتي صدرت فيما بعد في شكل كتاب مُستقل بعنوان بـ « الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي »، في أول المحاضرات لأنها تتطرق إلى الصعوبات التي تعترض حركة النمو أو النهضة. أما كلا من محاضرة « المبررات في المجتمع »، والتي ألقاها ببيت الطلبة العرب يوم 8 أفريل 1961، وكذا محاضرة « قيم إنسانية وقيم اقتصادية »،والتي ألقاها بنادي الطلبة الفلسطينيين سنة 1960، فَجُعلتَا الثانية والثالثة على التوالي، لأن كلتيهما حاولتا الإجابة على السؤالين: كيفَ ولماذا تنشأ هذه الصعوبات في عالم النفوس أكثر مما تنشأ في عالم الأشياء؟. والمحاضرة الرابعة التي ألقاها بنادي الطلبة المغاربة سنة 1960 بعنوان « الديمقراطية في الإسلام » توضح أكثر أن كل مشروع ديمقراطي قبل أن يصبح بناء مؤسسات أو هياكل سياسية شكلية ذات الطابع الديمقراطي، فهو بناء الإنسان بناء سليما؛ بحيث يضع في ضميره قيمته وقيمة الآخرين حتى يستطيع تجاوز الصعوبات التي تعترضه، لا سيما في المجال النفسي. أما المحاضرة الخامسة التي ألقاها- دائما في سوريا - يوم 29 ديسمبر 1960 بعنوان « التضامن الإفريقي – الآسيوي »، فهي توضح لكل فرد في العالم الإسلامي نصيبه في مسؤولية التخلص من العوائق التي تعترض حركة النمو أو النهضة، وذلك ضمن القوى التي تجمع جهودها في العالم من أجل التخلص من الاستعمار، ومن أجل مناصرة الإنسانية في «معركة » السلام والحضارة.

13- في مهب المعركة (القاهرة:1961) : وهو عبارة عن مجموعة مقالات كتبها « بن نبي » في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات (1949 – 1954)، ونشرها في جريدتين جزائريتين ناطقتين بالفرنسية هما «الشباب المسلم » و«الجمهورية الجزائرية ».

ولما لجأ إلى القاهرة سنة 1956 بدا له من المُفيد جدا أن يُترجم هذه المقالات وينشرها بالعربية في شكل كتاب عَنْوَنَهُ بـ « في مهب المعركة » وظهرت طبعته الأولى سنة 1961.

وتعالج فصول هذا الكتاب مسائل عديدة تتصل بواقع المجتمع الجزائري خصوصا، وواقع مجتمعات « العالم المتخلف » عموما.

فهي من الناحية التاريخية تصف ظروفا معينة مهدت لاندلاع الثورة الجزائرية مثلا، ومن الناحية الفكرية تكشف عن بعض جوانب الاستعمار الخفية، ومن الناحية النفسية – الاجتماعية تحاول فك بعض العقد التي نشأت في نفوس أفراد المجتمع وحالت دون مواجهتهم لبعض المشكلات التي لا زالت قائمة حتى بعد الحصول على الاستقلال السياسي، ومن الناحية الثقافية الواسعة تحاول تعميق الفكر عند الشباب المثقف حتى تكون مواقفه إزاء القضايا المتصلة بمصير الإنسانية تتميز بالوعي والفعالية.

14– ميلاد مجتمع ؛ شبكة العلاقات الاجتماعية (القاهرة : 1962) : وهو كتاب صدر أصلا مترجما من الفرنسية إلى العربية، ويمثل نظرة تحليلية لمكونات المجتمع، ومحاولة تأمل في كيفية نشأته أو ميلاده، وكذا وظيفته في التاريخ.

15– آفاق جزائرية (الجزائر :1964) : ويتضمن هذا الكتاب ثلاث 03 محاضرات مُترجمة من الفرنسية إلى العربية، ألقاها« بن نبي » في الجزائر. وتعالج المحاضرة الأولى التي ألقاها في «الجزائر العاصمة» يوم 09 جانفي 1964 « مشكلة الحضارة ». أما المحاضرة الثانية التي ألقاها في مدينة « قسنطينة» يوم 30 جانفي 1964، فتعالج « مشكلة الثقافة ». وأما بخصوص المحاضرة الثالثة، والتي ألقاها في« الجزائر العاصمة» في شهر فيفري 1964،فتعالج مشكلة المفهومية De l'idéologie. وكل هذه المحاضرات تحاول في جوهرها الكشف للجيل الصاعد عن السبيل الذي يضع الجزائر (وغيرها) في رؤية عليا للتاريخ، في أفق عالمي يتمازج مع التطور الشامل للعالم.

16–مذكرات شاهد للقرن : القسم الأول (الطفل – الجزائر 1966) : « Mémoires d'un Témoin du siècle » وتحدث فيه « بن نبي» عن المرحلة الأولى من حياته (1905 – 1930) وما رافقتها من أحداث وطنية ودولية . وكان في كل التفاصيل التي يذكرها يحاول أن يُجسد رؤيته الفكرية، وذلك باعتباره شاهد بصر وفكر في آن واحد.

17- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكرالإسلامي الحديث (القاهرة:1969) : وهـو كـتاب صدر باللغة الفرنسية، تعرض فيه مُؤلفه إلى جهود الغرب في تكوين الفكر والثقافة في المجتمعات المتخلفة حضاريا، لا سيما مجتمعات العالم الإسلامي، وذلك عبر نتاج المستشرقين الذي ينبغي وضع بعضه – في نظره – في إطار الصراع الفكري الذي تعامل على أساسه الاستعمار مع المجتمعات المُستعمرة؛ تعامل استغلال لمواردها واسترخاء في إرادتها.

18- مذكرات شاهد للقرن : القسم الثاني (الطالب) (بيروت: 1970) : وصدر القسم الثاني من هذا الكتاب باللغة العربية، حيث تحدث فيه «بن نبي» عـن مرحلة أخرى من حياته في فرنسا (1930 – 1939) قضى أغلبها في الدراسـة. وكان في كل التفاصيل التي يذكرها يحاول – كما فعل في القسم الأول – أن ينقل إلى القارئ تبصره بالأحداث، ويكشف عن هاجسه القوى الذي رافقه طيلة حياته: هاجس الحضارة ومشكلاتها.

19 - مشـكلة الأفكـار في العالم الإسلامي (القاهرة: 1971): وصدر هذا الكـتاب باللغـة الفرنسـية، حيث حاول فيه مؤلفه تبيان أن مجتمعات العالم الإسلامي تواجه منذ تدهورها الحضاري مشكلة أفكار وليس مشكلة وسائل.

20- المسلم في عالم الاقتصاد (بيروت: 1972): وصدر هذا الكتاب باللغة العربـية، ركـز فـيه مؤلفه على ضرورة تخليص الفكر في المجتمع الجزائري، ومجـتمعات العـالم الإسلامي بصفة عامة، من بعض العقد التي تستولي على اجتهاده في مجال الاقتصاد فتُجمده، أنه يرى (في هذا المجال) حتمية اختيار، لا مـناص مـنه، بين الأفكار والحلول المقدمة في إطار النظام الرأسمالي والأفكار والحلول المقدمة في إطار النظام الاشتراكي.

كمـا ركـز في هذا الكتاب على أن القضية الاقتصادية، بالنسبة لهذه المجتمعات ليست قضية إمكان مالي بدرجة أولى، وإنما هي قضية تعبئة الطاقات الاجتماعـية (الاستثمار الاجتماعي) في مشروع، تحركها إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات.

21- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين(بيروت:1972): ويتضمن هذا الكتاب الذي صدر باللغة العربية محاضرتين متسقتين ألقاهما«بن نبي»في «دمشق»، بحيث تُعالج المحاضرة الأولى التي أُلقيت يوم 28 مارس 1972

« دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين » والذي يتم في نظره (الدور) طبقا لضرورات إنشاء وتشييد في الداخل، وضرورات اتصال وإشعاع في الخارج. أما المحاضرة الثانية التي أُلقيت يوم 22 ماي 1972، فتُعالج « رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين» والمتمثلة في تخليص نفسه من التخلف الحضاري ومشاركة الإنسانية في التغلب على مشكلاتها.

22- بين الرشاد والتيه (طرابلس ، لبنان: 1977): وهو عبارة عن مجموعة مقالات كتبها « بن نبي » بالفرنسية ونشرها في جريدة « الثورة الإفريقية La révolution Africaine» إثر عودته إلى الجزائر بعد الاستقلال في الستينات (1964 - 1968).

وفي صيف سنة 1972 جمعها وترجمها إلى العربية، ثم بَوَّبَها ووضعها في شكل فصول ضمن كتاب عَنْوَنَهُ بـ « بين الرشاد والتيه » والذي اختتمه بكلمة إضافية عن الصراع الفكري.

ومادة هذا الكتاب تعكس في مجملها أحداث الستينات في الجزائر والعالم الإسلامي على العموم. وهي فضلا عن ذلك تطرح مشكلات « العالم المتخلف» (العالم الثالث سابقا) بعد الاستقلال السياسي، بحيث تحاول إبراز حقيقتها وأبعادها وكذا كيفية مجابهتها.

23 – من أجل تغيير الجزائر (الجزائر: 1989): وهو أيضا عبارة عن مجموعة مقالات كتبها« بن نبي » بالفرنسية. ونشرها في جريدة « الثورة الإفريقية La révolution Africaine »،حيث أودعها مجريات الأحداث في الستينات (1964 – 1968)؛ في زمن كانت فيه الجزائر تحاول أن تسجل حضورها الدولي، وتلج عهد الاستقلال بعد زوال الاحتلال الفرنسي.

وقد جمعت هذه المقالات بعد وفاته (أي سنة 1989) وبُوِّبت وَوُضعت في شكل فصول ضمن كتاب عُنون بـ « من أجل تغيير الجزائر Pour changer l'Algérie»، يتناول بالتحليل مسائل في جوانب مختلفة: الاجتماع، الثقافة، الاقتصاد، العلاقات الدولية، وكلها تبحث في حقيقة واحدة هي: «الحضارة ».

هذا، ومن المهم الإشارة، فضلا عن كل ما سبق ذكره، إلى أن هناك بعضا من مؤلفات « مالك بن نبي » المذكورة آنفا قد تم جمعها وترتيبها معا – بعد وفاته – في إطار كتابين مُعَنْوَنَيْن كالتالي:

1)– القضايا الكبرى :les grands thèmes وهو كتاب صدر باللغة الفرنسية في « الجزائـــر العاصمة » سنة 1976، ويشتمل على محتويات كل من المؤلفين التاليين:

أ– آفاق جزائرية.

ب– إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث.

2)– تـــأملات: وهـــو كـــتاب صـــدر باللغة العربية في « دمشق» سنة1986، ويشتمل على محتويات كل من المؤلفات المترجمة التالية:

أ– حديث في البناء الجديد.

ب– الصعوبات كعلامة نمو في المجتمع العربي.

ج – تأملات في المجتمع العربي.

كمـــا تجـــدر الإشـــارة أيضا إلى أن البعض من مؤلفاته كـــ «الظاهرة القرآنية » و« شروط النهضة » قد تمت ترجمته إلى لغات أخرى غير« العربية»، مثل « الأوردية » و « التركية » [1]، وذلك للتعريف بأفكاره أكثر.

–خا تمـــــة:

وأخـــيرا ماذا يمكن استخلاصه من هذه المعالجة لحياة « مالك بن نبي» وآثاره ؟ .

في الواقع هناك ملاحظات هامة ينبغي إبرازها إجمالا في هذا الصدد:

1 – لقد نشأ « بن نبي » في أسرة محافظة كانت بالنسبة إليه مدرسته الأولى، وعاش حياة فقر وحرمان، وعاصر أحداثا هامة في بلاده وفي العالم [الاحتلال الفرنســـي لـــلجزائر، الحرب التحريرية، الأزمة الاقتصادية العالمية (1929)، الحـــربين العالميـــتين الأولى والثانية ...] كان مقامه منها مقام الشاهد بالبصر والفكر.

---

1 – المرجع نفسه: ص 14.

2- لقـــد سمحت له تنقلاته العديدة داخل الجزائر بالتعرف أكثر على حقيقة المجـــتمع الجزائـــري في الحضر وفي الريف وفي الصحراء ... وكذا على طبيعة تعامله مع كل من الاستعمار والحركة التحررية.

3- لقـــد سمحت له الفترة الطويلة التي قضاها في فرنسا (1930 – 1956)، وكذا تنقلاته العديدة إلى مختلف الدول الغربية بالتعرف عن كثب على أسلوب « الحضارة » في الغرب، وبالتالي الوقوف على جوانب القوة والضعف فيها.

4- إن نـــوع الـــدروس التي تلقاها سواء في إطار تكوينه الدراسي بالجزائر أو بفرنســـا، وكـــذا الأساتذة والزملاء الذين احتك بهم وأخذ عنهم، والمجالس العلمـــية والثقافـــية الـــتي انتظم فيها (النوادي)، والمطالعات التي قام بها في الصحف والمجلات السياسية والكتب في مختلف مجالات الفكر (سواء الإسلامي أو غيره) ... كل ذلك ساهم في إثراء وتعميق تفكيره الذي انصب أساسا – كمـــا هـــو واضح من خلال العديد من مؤلفاته – حول مشكلات الحضارة، ليمـــثل بذلك الشخص المفكر، الشخص المنهج، الشخص الذي كان حركة منفتحة على قضايا الإنسان والواقع بكل امتداته، وكانت إنسانيته تنفتح على إســـلاميته، وكانت إسلاميته تنفتح عنده على عنصر العمق في الإنسان الذي يكتب مستقبله من أجل أن يعيشه.

معـــالم من سيرة مالك بن نبـــي فقيـــه الحضـــارة

الدكتور/ نذير حمادو
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة.

قال مالك بن نبي رحمه الله :"إن الكتب والأفكار التي تؤثر في التاريخ؛ إنها العواصف التي تغير وجه العالم".

ولـــد الأستـــاذ مالك بن نبي في 05 ذي القعدة 1323 هـــ الموافق لـــ 01 جـــانفي 1905 بقســـنطينة، مدينـــة العـــلم والعـــلماء. انتقلـــت أسرته إلى مدينـــة تبسة ثم لحق بها بعد فترة قضاها في قسنطينة عند أقاربه، وفي تبسة انـــتظم في حلقـــة لحفـــظ ما تيسر من القرآن الكريم، و أتم تعليمه الابتدائي والإعدادي.

ثم عاد إلى قسنطينة لمزاولة المدرسة التكميلية، ثم ثانوية التعليم الفرنسيي الإســـلامي حيـــث نـــال شهادته سنة 1925. كان بن نبي يتمتع بفطنة وذكاء ورهافة حس، فكان يلاحظ و يحكم على ما يحدث في المجتمع الجزائري آنذاك، مـــن جـــراء الوجود الاستعماري منذ قرابة القرن بما أحدثه من تمييز واغتصاب الأمـــلاك وعـــدم المســـاواة ... و بعـــد انـــتهائه مـــن الدراســـة، بحـــث عن عمل يناسبه، لكن إذا استثنينا مدة قصيرة اشتغل فيها عادلا، (أي مترجما) بالمحكمـــة الشـــرعية بمدينـــة آفلو، وبعدها إلى مدينة شلغوم العيد، باءت كل محاولاته بالفشل؛ لأن الإدارة الاستعمارية أوصدت كل الأبواب في وجهه.

في ســـنة 1930، غـــادر ابن نبي الجزائر متوجها إلى باريس (فرنسا)؛ لمواصلة دراســـته، فحيل بينه وبين رغبته في دخول معهد الدراسات الشرقية، فتوجه إلى

مدرسة اللاسلكي، التي تخرج فيها مهندسا كهربائيا سنة 1935، فكان بذلك أول مهندس جزائري في الكهرباء.

في سنة 1946 انطلق في إنتاجه الوفير، و هو يتمتع بثقافة مزدوجة، بنشره كتاب "الظاهرة القرآنية"، وكرس بن نبي حياته للبحث والتفكير في "مشكلات الحضارة"، وطور نظريته الخاصة حول الحضارة، فجاء فكره متميزا و قويا، يظهر فيه تشبع المفكر بالثقافة الإسلامية والغربية في آن واحد. و حمل عمله في طياته نضال المفكر ضد الاستعمار وضد الوضعية التي آل إليها شعبه تحت وطئته، لكن دون أن يلين في حكمه عليه، بل لائما إياه على خموله و استسلامه التاريخيين.

كان يهدف من خلال كتاباته إيقاضه من سباته الطويل الذي غرق فيه على غرار الشعوب الإسلامية الأخرى، لقد كان يريد توجيهه في طريق نهضة أخرى غير تلك التي وضعت كل الوزر على الاستعمار، كان بن نبي يريد أن يتخلص شعبه من "القابلية للاستعمار" أي التخلص من استسلامه لوطأة المشاكل و عجزه على حلها؛ و ذلك بأن يبذل الجهد الهائل الضروري للوصول إلى أهدافه، بدلا من انتظار الحل من الصدفة أو من الغير.

فالإسلام لا ينبغي على الإطلاق أن يصبح وسيلة لتنويم الشعوب المسلمة؛ بأن نحدثها باستمرار على ماضيها المجيد، بل يجب أن يكون "قوة عاملة"، وحقيقة محركة تعيدها إلى الحياة، و تشدهم إلى مصير الإنسانية المشتركة.

وبين 1948 و1955، نشر مقالات في صحيفتي "الجمهورية الجزائرية" و"الشاب المسلم". كتب حوالي 300 مقال تحتوي على جانب من فكره.

كان في القاهرة ينشط ندوات و محاضرات، و عند اندلاع الثورة الجزائرية، طلب إرساله على الحدود الجزائرية للمشاركة في الكفاح، وكتابة مذكرات الثورة، غير أن طلبه لم يحظ بالقبول.

بعد الاستقلال عاد إلى الجزائر وأسندت إليه وظيفة مدير التعليم العالي بين 1964 و1967، وهي السنة التي قدم فيها استقالته للتفرغ لعمله الفكري. وكان ينشط ندوات أسبوعية في بيته، ومحاضرات في الجزائر

و الخارج. وهو صاحب فكرة الملتقيات الإسلامية السنوية التي دامت أكثر من عشرين سنة.

كتب من جديد في صحيفة "الثورة الإفريقية" إلى غاية 1968 حول الحضارة و الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع ...

وفي 04 شوال 1393 هـ الموافق لـ 31 أكتوبر 1973 توفي بالجزائر العاصمة فارس الفكر، وفقيه الحضارة، وأكبر مفكر مسلم في عصرنا، تاركا وراءه عملا، يجدر بإنسانية القرن الواحد والعشرين استغلاله من أجل إيجاد طريق جديدة تؤدي إلى تلاقي الحضارات ومنها تكوين "الحضارة الإنسانية" رحمه الله رحمة واسعة وجعل اسمه للخلود وروحه للخلد.

مؤلفاته:

1-الظاهرة القرآنية (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1946.
2-لبيك (فرنسي)، طبع سنة 1947.
3-شروط النهضة (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1948.
4-وجهة العالم الإسلامي (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1954.
5-فكرة الإفريقية الآسيوية (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1957.
6-نجدة الجزائر (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1957.
7- فكرة كومنويلث إسلامي (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1958.
8-مشكلة الثقافة (عربي)، طبع سنة 1959.
9-الصراع الفكري في البلاد المستعمرة (فرنسي)، طبع سنة 1960.
10-البناء الاجتماعي الجديد (عربي)، طبع سنة 1960.
11-تأملات (عربي)، طبع سنة 1960.
12-في مهب المعركة (عربي)، طبع سنة 1960.
13-ميلاد مجتمع (عربي)، طبع سنة 1962.
14-آفاق جزائرية (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1964.
15-مذكرات شاهد للقرن:
الجزء الأول: الطفل (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1965.
الجزء الثاني: الطالب (عربي)، طبع سنة 1970.
16-إنتاج المستشرقين (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1967.

17-الإسلام و الديمقراطية (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1968.
18-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1970
19-معنى المرحلة (فرنسي)، طبع سنة 1970.
20-المسلم بين الرشاد و التيه (عربي)، طبع سنة 1972.
21-المسلم في عالم الاقتصاد (عربي – فرنسي)، طبع سنة 1972.
22-دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين (عربي)، طبع سنة 1973.

من قاموس مالك بن نبي.

"القانون السامي: غير نفسك، تغير تاريخك".

"إن الثقافة بما فيها الفكرة الدينية التي هي أساس كل ملحمة إنسانية، ليست علما، لكنها البيئة التي يعيش فيها الإنسان حامل الحضارة، إنها بيئة كل شيء، مهما كان دقيقا، و علامة مجتمع يسير نحو مصير واحد، فيها تتكاتف جهود الراعي و الحداد و الفنان و العالم و رجل الدين ... إن تركيب العادات والمواهب والتقاليد والأذواق والسلوك والمشاعر هو الذي يعطي لحضارة ما وجهها وقطبيها اللذين تعيش بهما : العبقرية والروح".

"إننا بدل أن نبني حضارة، قمنا فقط بتكديس منتجاتها، لم تكن النهضة الإسلامية بناء، بل تكديس المواد، فيمكننا القول إذن: إن عمر نهضة العالم الإسلامي قارب القرن من الزمن و لم تصل لهدفها، مثل مجتمعات انطلقت من نفس النقطة، إن ذلك ليس بسبب الوسائل، بل بسبب الأفكار. وما أكثر الأشعار التي نظمناها للتغني بنهضتنا، بدل السعي الحثيث مثل اليابان الذي حقق نجاحات باهرة ... نعم لقد نجحت اليابان حيث لم يستطع العالم الإسلامي تحقيق أي فوز يذكر على التخلف؛ لأنه أراد النهوض بعالم الأشياء بدل النهوض بعالم الأشخاص و الأفكار".

"في الداخل، علينا أن نعيد بناء حضارتنا، و في الخارج يجب علينا المشاركة في العمل الذي تتفق عليه الإنسانية في عالم يؤدي دورد التاريخي، وفيه الفكر واحد، و فيه يولد فن عالمي كما يرى الكاتب الفرنسي مالرو".

"إن محـــرك القـــيم الاجتماعية هو الدين، لكن الدين و هو في مرحلة النمو والتوسع والحيوية، أي عندما ينتج فكرا جماعيا ... لكن عندما يتقوقع الدين، ويصبح أنانيا و يفتر إشعاعه، و عند ذاك تنتهي مهمته التاريخية في الأرض، ولا يقـــدر عـــلى إخراج حضارة للوجود؛ فيصبح إيمانا لنساك يهربون من الحياة ويهـــربون مـــن واجباتهم مثلما فعل الإنسان المعاصر لابن خلدون حينما آثر الانعزال و الاعتكاف السلبي".

"علينـــا إذن النظر إلى كل عملية دمقرطة، خاصة في بدايتها، على أنها عمـــل تربوي على مستوى الشعب برمته بكل ما يقتضيه العمل التربوي من عمل نفسي و أخلاقي و اجتماعي و سياسي. إن الديمقراطية ليست مجرد نقل الســـلطة مـــن طرف إلى آخر، بين السلطان و الشعب مثلا. إنما الديمقراطية ترسيخ الشعور و السلوك و القيم التي تؤسسها في روح الشعب و في ضميره وفي تقالـــيده، فالدستور الديمقراطي لا يعبر عن ديمقراطية حقه إلا إذا سبقته عملـــية دمقرطة؛ ولذا نقول: إن البلدان الفتية التي تأخذ دساتيرها من البلدان ذات التقاليد الديمقراطية العريقة لا يجب أن تكتفي بذلك، و إنما عليها إدخالها في نفسية شعوبها".

ملامح من عبقرية مالك بن نبي في تحليل الظواهر واستشرافها
– تطبيق على الواقع المعاصر–

الأستاذ/ بشير قلاتي
جامعة الأمير عبد القادر — قسنطينة–

عناصر الموضوع:

–تقديم.
–مالك بن نبي ،الرجل المثقف.
–مالك بن نبي ،الرجل اللمّاحة.
–مالك بن نبي وظاهرة القابلية للاستعمار.
–دور الفكر التنويري لمالك بن نبي في ترشيد الحركات المتطرّفة.

–تقديم:

مـــرّت بنا الذكرى المئوية لميلاد المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله تعالى– الذي ولد في شهر جانفي1905م/1323ه .. دون أن يتذكر مقامه. العالم الإسلامي الذي عاش له وخدمه بعصارة فكره... ،وحري بنا ونحن في الجامعة الإســـلامية التي وضعت على عاتقها الواجب التوعوي والنهضوي كأحد أهم أهدافها الاستراتيجية أن لا نتنكر لجهد هذا المفكر الفذ.....

فإذا كان البعض منا لا يتذكّر إلا سقط المتاع من جماعة المدندنين،ممن يســـمونهم نجوما ..!!،فان من واجبنا أن لا نغفل ذكرى النجوم الحقيقيين من العظماء ممن انشغلوا بخدمة قضايا دينهم وأمتهم ،وبذلوا في سبيل ذلك عصارة جهدهـــم الفكـــري والعملي ،وقد كان مالك بن نبي —بلا مواربة– في طليعة هؤلاء....

جـــاء في (معجم أكسفورد) أن العبقرية هي:"قوة فكرية فطرية من نمط رفـــيع كتلك التي تعزى إلى من يعتبرون أعظم المشتغلين في أي فرع من فروع

الفن أو التأمل أو التطبيق ،وهي طاقة فكرية وغير عادية على الإبداع التخيلي أو الفكر الأصيل في الابتكار أو الاكتشاف".[1]...ونحن نعتبر مالكا من كبار العباقرة الذين برزوا في مجال الفكر الإسلامي المعاصر من حيث منهج تحليل الظواهر الاجتماعية ونقدها ،واستشراف ظواهر جديدة من خلال ملاحظات دقيقة لجوانب البنى الاجتماعية الأساسية داخليا وخارجيا.....

_مالك بن نبي الرجل المثقف:

ليست الثقافة شهادات تنال و لا ألقاب أو مراكز تشترى بالأموال، إنما الثقافة وعي اجتماعي ،وسلوك ينبثق من مشكلات المجتمع وفكر يحمل همّ الآخرين، و لذا كانت الثقافة عند مالك –رحمه الله– نظرية في السلوك قبل أن تكون نظرية في المعرفة[2]،أما حاملوا الشهادات العليا ،وان حصلوا بها على معرفة ،إلا انهم ما نالوا بها ثقافة إلا إذا حملوا في وجدانهم هموم أمتهم وساهموا إيجابيا في البحث الجاد والمخلص عن حلول لها ،وهذا ما يتنافى كليا مع ما عرف به الكثير ممن يعتبرون أنفسهم مثقفين عندنا من تعالي أجوف لا ينم إلا عن عقدة تسامي متأصلة تخفي الخواء الفكري والسلوكي معا....

وقد كان مالك بن نبي ممن جسّدوا فعلا وصف المثقف الحقيقي،....فلم يكن رحمه الله يحمل الشهادات العليا و ما كان حريصا عليها لكنه كان يحمل فكرا عاليا يشير إلى عقل جبّار قلّ مثيله إلا في المعدود من المثقفين من أمثال محمد إقبال و علي شريعتي ... ولا نقول ذلك عن تعصّب قومي ولا عن هوى أيديولوجي،لكنها شهادة بعض كبار المفكرين ممن يعتد بشهادتهم للرجال كمحمد المبارك ومحمود شاكر–رحمهما الله تعالى– وغيرهم ...

_مالك بن نبي الرجل اللمّاحة:

كان محور تفكيره – رحمه الله – مشكلات الحضارة باعتبار أن مشكلة كل شعب هي مشكلة حضارته ،وما باقي المشكلات إلا أعراض أو إفراز لهذه المشكلة الأساس في كل ما تعانيه أمتنا، ....

---

[1] –جيلون مري،العبقرية،تاريخ الفكرة،ترجمة محمد عبد الواحد محمد،مراجعة عبد الغفار مكاوي،سلسلة عالم المعرفة208،الكويت:المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أفريل1996م/ذو القعدة1416هـ،ص14

[2] –مالك بن نبي،مشكلة الثقافة،دمشق: دار الفكر،1404/1984م،ص:49،50

وفي سبيل بعث حضارة أمته هيّأ لها مالك أولا أرضية الانطلاق وأساس البعث، فحلّل الظاهرة القرآنية،ثم وضع لأمته شروطا للنهضة ثم وضح لها بيّنات الوجهة.

لقد كان تخصّص الرجل كمهندس كهربائي يؤهله – على قلّة المهندسين الجزائريين آنذاك – لتولي مناصب وظيفية عالية يحصل من خلالها المال الوفير،لكنّه آثر الاشتغال بنوع آخر من هندسة الأفكار ومعادلات الحضارة وبيانات الصعود والهبوط الاجتماعي.بما ينال منه الأجر العظيم في خدمة أمته كمثل شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..

تجاوز مالك بن نبي –رحمه الله–تلك الدراسات الذّرية(التجزيئية) التي لا تحاول سبر الأغوار العميقة للظاهرة الشؤم ،ظاهرة التخلف الحضاري المزمن،فالرجل يصدر عن إيمان عميق وفكر ثاقب واطلاع واسع على مصادر الفكر الغربي،وهو اطلاع معاينة لا اطلاع سماع،ولذا كان لتحاليله مصداقية المفكر المستنير ،مثله في ذلك محمد إقبال وعلي شريعتي،....و لعل هذا ما جعله يستشرف الكثير من قضايا المستقبل منطلقا من مقدمات منطقية في تحليل حصيف للواقع، وهو ما نعيش نتائجه اليوم،... من ذلك قضية العولمة؛ فقد أشار في وقت مبكر جدا إلى ظاهرة (أمركة)[3]شاملة يتّجه إليها العالم الغربي إن طوعا أو كرها،وخاصة في المجال الإعلامي،كما أنّه ترقّب سيطرة أقانيم ثلاث على العالم:اليهود، الدولار والمرأة[4](أي باستغلالهادعائياوجنسيا)..وهو ما نعيشه اليوم فعلا.....

ولعلّ من إبداعه ،تحليله لظاهرة الصراع الفكري التي تمثل ساحة الأفكار ميدانها الذي تصول فيه بكل رشاقة مراصد الاستعمار، معتمدة على معرفة لا بأس بها بالخريطة النفسية الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية، فتعمل بذلك إلى تحويل الفكرة المجردّة إلي فكرة مجسّدة في شخص أو شيء، ليسهل التلاعب بها ،فيعمد إلى استخدام"الفكرة المجسّدة في مستوى الطبقة المثقّفة، فيقدم للمثقفين (يقصد المتعلمين عندنا)شعارات سياسية تسد منافذ إدراكهم إزاء الفكرة المجردة"،وقد يفضل استخدام لغة الدين لأنها تسد بأحكام منافذ

---

[3] مالك بن نبي مذكرات شاهد القرن الطبعة ط 2 دمشق دار الفكر 1404هـ/1984م ص 40

[4] –نفسه،ص224

الوعـــي الفكـــري ....أمـــا المال فيستخدمه ليصنع به صداقات يحتاج إليها في مخططاته الرهيبة وفي الوقت المناسب[5] ....فيقوم بتوزيع الجوائز السنية والعطايا السخية على مواهب الأدب أو الفن ممّا يستهدف النيل من المقدّس الديني ، أو يحـــثّ على التمرّد على قيم الأصالة في ثقافتنا كما يحدث عادة في مهرجانات باريس وروما!!!!...

وفي مجال الصراع الفكري يلاحظ مالك بن نبي حرص الاستعمار على الحيلولة بين الفكر والعمل السياسي(بنشر جو من عدم الثقة بين المثقف ورجل الدولة)، حتى يبقى الأول مشلولا والثاني أعمى !!!!، ،،

كما يعمد إلى استثمار أعداء وهميين ويثير حولهم اللغط لاستنفاذ طاقاتنا في الردود الدفاعية، تماما كما يحدث في لعبة صراع الثيران الإسبانية،حين يلوّح اللاعـــب بقطعة قماش أحمر أمام الثور فيثور ويزداد هيجانه،،،وبدلا من الهجوم على محرك قطعة القماش يعمد إلى مهاجمتها .....حتى تنهار قواه فيسقط أرضا ...وبذلـــك يكون الاستعمار بطل الصراع الثوري في المجال السياسي.. ونحن نعـــتقد أن ((الآيـــات الشـــيطانية)) وما أثير حولها ،(و قد وجدنا من يرصد الجوائز الكبرى لمن يغتال كاتبها!!!!)...وكذلك ((البوكيمون)) وما أثاره مما وجهـــت إليه الطاقات من خلال اجتهادات فقهية هزلية !!!....وكلها تصبّ فيما عناه مالك بن نبي (رحمه الله) وحذّر من الوقوع في شراكه.....

وكان يرى أنه ينطبق على السياسة العاطفية التي تسود عندنا ،حيث لا تجـــد مبرراتها في كسبها بل في خسارتها (لا حظ مثلا موقف الرئيس العراقي الســـابق في خطبه التي اعتبر فيها حرب الخليج الثانية وتحرير الكويت من أكبر الانتصارات !!!!)....

ولا عجـــب إذ أنه كلّما تقطّعت أنفاس الثور ازداد هجوما على المنديل الأحمر!!![6]...

أمـــا بقية آليات الصراع الفكري التي أبدع مالك في تحليلها كأسلوب البتر،حيـــث يعمد للاستعمار إلى إيقاف الفكرة الحية عند منتصف الطريق ، أو قلب الصفحة كإيقاف نشر كتاب ،أو حذف لجزء من الأفكار....

---

[5] -مالك بن نبي،الصراع الفكري في البلاد المستعمرة،د ط ،دمشق: دار الفكر،د ت، ص15....17

[6] -نفسه ،ص 62،63

والاســـتبدال، حيث يعمد إلى طمس الفكرة الأصيلة و تقديم بدلها فكرة أخرى أقـــل خطرا على مصالحه،أو فكرة لا تؤدي الهدف المراد منها.(كاستبدال فكرة الجامعـــة الإسلامية التي دعا إليها الأفغاني بفكرة الجامعة العربية التي دعت إليها بريطانـــيا الاســـتعمارية....).....،والمزلقة، بتمييع الفكرة الأصلية بإكثار عدد الأفكار كما يحدث في الملتقيات حيث تكثر عدد التوصيات ثم لا يتحقق منها شيء....!!.

والإضـــافة ،، بـــأن تضاف فكرة أخرى إلى الفكرة الحية لتشويهها أو تحـــريفها.....وهـــي كلها أساليب يستخدمها خبراء الصراع الفكري لتمييع الأفكار الحية أو تحريفها أو دحرها وتشويهها وهو ما نحيله إلى مراجعة كتاب مالك بن نبي المتميّز((الصراع الفكري في البلاد المستعمرة))....

-مالك بن نبي وفكرة القابلية للاستعمار:

لعـــل من أهم القضايا الاجتماعية التي ذكرها ،وارتبطت باسمه،ظاهرة القابلـــية للاســـتعمار،وهو ما أثار عليه الكثير من اللّغط حتى وجد من يتهمه بالشـــكّ المرضي أو الوسواس كما ذكر لي (عبد الصبور شاهين) في إحدى المناســـبات التي جمعتنا به في مكتبه بكلية دار العلوم ،،،،،،و لم يكن ذلك –كما تـــبيّن لي – إلا نتـــيجة غيظ قديم ما يزال الدكتور المحترم يحمله لمالك بسبب حـــرمانه – كمـــا يقول- من حقوقه المالية في الترجمة !!....وهي عادة درج علـــيها الكـــثير من متعلمينا من حيث تحكّم العواطف والأحقاد الشخصية في إطلاقهم للأحكام جزافا.... ودون رادع..[7].

غير أن الأحداث في هذا العصر تشهد بصحة ما ذهب إليه مالك بن نبي وصدق تحليله بما تتالى من هزائم نالت الأمة وانتهت باستسلام عربي سموه- عـــلى عـــادة تسمية المحظورات بغير أسمائها لتبرير اقترافها- معاهدة السلام مع إســـرائيل ...ومـــا(حلّيت) به أخيرا هـــذه الهزائـــم مـــن كارثـــة احتـــلال العراق !!!!.....

إن ظاهـــرة الاســـتعمار نتيجة منطقية لظاهرة القابلية للاستعمار ليس بســـبب أصـــول عنصـــرية كما قد يفهم البعض خطأ،، ولكن من حيث توفر

[7] -نلاحظ أن مالك نفسه استشرف ذلك الاتهام الذي سيثار عليه بالذات،،،انظر م س ، ص 91،92

شـــروط نفسية –اجتماعية تسبب في الوسط الاجتماعي الثقافي عوامل الضعف والعجز داخل الذات الفردية والجماعية بحيث يضعف جهاز مقاومته وتعجز قواه عن رد العدوان الخارجي ،بما يسلمه لقمة سائغة للاستعمار،،،، وهو ما نوافقه عليه تماما ،،ولعل من أكبر الأمثلة على ذلك ،قضية(فلسطين) التي كان يلحّ عـــلى عـــدم اعتـــبارها مجـــرد قضيّة سياسيّة،بل إرجاعها إلى أصولها النفسية الاجتماعية بما تميز به ميراث مجتمع ما بعد الموحدين من جراثيم الفكر والسلوك مما تسبّب في هزيمة العرب المخزية أمام اليهود ، وتمظهر ذلك بنوعين متقابلين من الذهان الذي سبّب الشلل القاتل:

-ذهـــان الســـهولة،،، وتمثله مقولة الزعيم المصري جمال عبد الناصر((سنلقي بإســـرائيل في الـــبحر؟!!!)) ..أو تعبير((إسرائيل المزعومة))كما درجت عليه وسائل الإعلام العربية في ذلك الزمان.....

_ذهـــان الصعوبة،،ويمكن أن نمثله بما اعتذر به أحد وزراء الخارجية العرب مـــن أن أمـــريكا فوق الجميع وأمريكا مع إسرائيل ،،،،فإسرائيل فوق الجميع ،،،،وهو استلزام منطقي كما نرى..؟!!!..

لكن مالك يرى ضرورة تحليل الخلفية الحقيقية للهزيمة والبحث عنها في أنفســـنا إذ إننا نحن من يصنع هزائمنا....فيذكر على سبيل المثال أن مجلة تجارية تســـمى ((بـــوم))نشـــرت في عدد تشرين الثاني عام 1949م، قائمة ما تطلبه إســـرائيل،والذي يشـــمل حديـــد ،مـــواد بـــناء، منـــتوجات كـــيماوية وصـــيدلانية...،وفي المقـــابل تطلب بعض الدول العربية(العراق،شرق الأردن، الكويت): مجوهرات،مساحيق، عطور وألعاب.....!!!!.[8]

ولم يكـــن مـــالك في ذلـــك عنصـــريا ولا ماز وشيا (من دعاة جلد الـــذات،،)،، وفي المقـــابل لم يكـــن من هوات تغطية الحقائق أو ممن تغريهم الشـــعارات القومـــية الباعـــثة للأحـــلام الورديـــة الخائضـــين لـــلمعارك الدونكشوتية؟؟؟....

---

[8] –مالك بن نبي،مستقبل الإسلام،ترجمة شعبان بركات،د ط، بيروت:المكتبة العصرية،ص123...127

ولا جرم أن تكون ظاهرة عبادة الزعيم ودروشة التسلّق السياسي فيما يسمّيه مالك بن نبي ـرحمه اللهـ (البوليتيكا) من أبرز الظواهر التي يتميّز بها مجتمعاتنا العربية ثمّ نعجب من أين تأتينا الهزائم ....

وقد أبدع من قال :

أوراقي مبعثرة.....يتناهبها الأطفالُ..

وأقطف الأزهار .....وأدّعي حبّ الجمال..

خلعت ردائي...إذ اشكوا البردَ...

ونصّبت خيمتي في واد العواصف...في ليلة شهباء .....ثمّ أعجب من أين يأتي السّعالُ!!!.....

وهي المفارقات التي أشار إليها مالك بن نبي في دراساته الاجتماعية للمجتمع المتخلف ،حيث تمتد هذه المفارقات في أوصال ثقافته بما ينهش جسم المجتمع ويمسخه، باحثا بعمق المفكر العبقري عن منهج علمي للخلاص، وهو ما يستحق منا كل العناية والتقدير بما يحوله مشاريع للتنمية الحقيقية كمشروع استثمار إنساني إذا كنا حقا نرجوا الخلاص.فنحتاط لأنفسنا من الصقيع حتى لا نعجب من أين يأتينا السّعالُ؟؟!!.....

-دور الفكر التنويري لمالك بن نبي في ترشيد الحركات المتطرّفة:

اطلعت على تصريح لأحد قادة الحركات الجهادية في مصر ممن اتّهم باغتيال الزعيم المصري أنور السادات --رحمه الله-بأنه فوجيء بالفكر التنويري لمالك بن نبي الذي اطلع عليه في السجن، و نقله لبقية إخوانه في خطب الجمعة فتأثروا به كثيرا، وأبدى أسفه لتأخر اطلاعه على مثل هذا الفكر الثاقب!!!.....فلا غرو أن يكون لفكر مالك أثر تنويري في تلك المراجعات التي انتهجها أصحاب الفكر المتطرف مما دفع بالكثير منهم إلى التوبة والاعتذار عما اقترفوه في حق كليات المجتمع المسلم...

ولم يكن ذلك غريبا على فكر تناول أزمة العالم الإسلامي من جذورها الأساسية ونظر إليها بشمولية حضارية بعيدا عن الفكر التجزيئي والنظرة القاصرة أو التلفيقية،من خلال تحليل الظواهر المرضية في ثقافة الأمة ومنهج تفكيرها بما تماهت به مع الفساد أو تماهي الفساد معها،مما جعل المسلم-كما يقول- منبوذ القرن،يعيش في عالم إما متّهما له ، أو متهما منه...

ولم تستطع الحركة الإسلامية في الجزائر-مع الأسف- أن تستفيد من فكر هذا الرجل العبقري لأسباب ليس هنا المجال لتحليلها،،وبذلك وقعت في مآزق الشيئية والتكديس والغوغائية،وتشخيص الفكرة الوثن(حسب تعبير مالك بن نبي) في شخص الزعيم الملهم الذي حذّر مالك ،من خطورته في تزييف الوعي وتحريف الحركة كما يقدمه نموذج (مصالي الحاج)[9] الذي عرفه مالك بن نبي عن قرب، وذلك في خضمّ ما يسميه((البوليتيكا)) وهي جماع الدجل السياسي الذي يضع أمام صاحبه مرآة مزيّفة تريه الفأر فيلا..!!!...ومن خصائصها أنها تنادي بشعارات النفخ الفارغ المحكوم بعقدة التسامي الأجوف،الذي طالما حذّر مالك بن نبي من إغوائها وهو ينظر إلى المظاهرات الصّاخبة التي تهيّج الجماهير المتحمّسة ،تقودها نخبة إسلامية استولى عليها حب الظهور ورغبة الزعامة و"أحولها"[10] بريق الكرسي،.....فكان القوم يتصارعون على الانتخابات ليصبحوا زعماء وأبطال غافلين عن مشاكل الأمة الحقيقية،" سالكين بشعوبهم ملتويات السياسة ومنعرجاتها بدعوى أنهم يختصرون الطريق،في حين أنهم زادوا في طولها؟..."[11].

وكان -رحمه الله- يرى أن هذا المنهج التغييري الذي يركّز على مجرد الهياج العاطفي في النّظال السياسي، دون تفكير منهجي عقلاني، يخفي داخل الذات رغبة في الفرار من الواجبات ونيل الحقوق[12]،وهو من أبرز شروط التخلف التي تقر لها عين الاستعمار،فيسعى إلى دعمه ماديا ومعنويا!!!..مما يوجب على نخبتنا الإسلامية المثقفة التفطن إليه جيدا إذا أرادت فعلا أن تنهض بأمتها من سبات طال واستطال.....

---

[9] - مصالي الحاج:أحد أبرز زعماء الحركة الوطنية الجزائرية،ولد بتلمسان عام1898م ،استقر في فرنسا ،أسس حزب نجم شمال إفريقيا عام1926م،وتعرض لمضايقات الاستعمار الفرنسي وحل الحزب،فظهر باسم حزب الشعب الجزائري عام1937م الذي نادى بالاستقلال..لكنه اختلف مع بعض أعضاء زملائه في حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بسبب تزعم الحركة النضالية واستفحلت الأزمة عام1953م ،،توفي عام 1974م.

[10] - أحولها، من الحول؛ أي سبب لها حولا ....

[11] -مذكرات شاهد للقرن،م س،ص228

[12] -نفسه،ص385

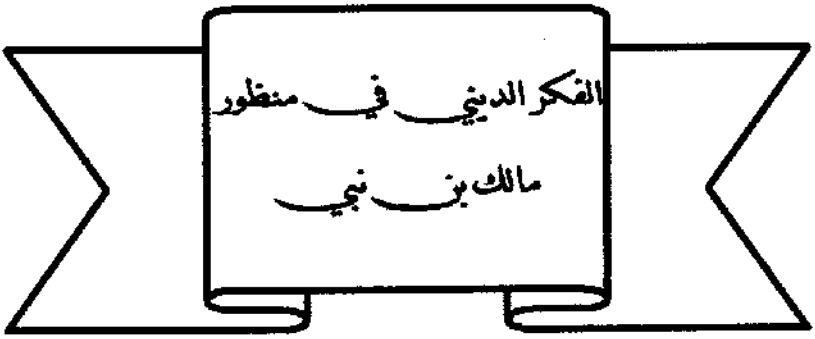
الفكر الديني في منظور
مالك بن نبي

الفكرة الدينية في الإسلام منطلق للتفاعل الحضاري عند مالك بن نبي

الدكتور/ إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر

إذا كان الفكر الديني منطلق أي تنظيم اجتماعي، وتطور حضاري، وهو ما يستخلصّ من المسار التاريخي للبشرية، لأن البشرية تلتقي في توجهاتها عند قيم عامة ومطلقة، كما تتقاطع في نماذج تطورها تقاطعا يكاد يصل إلى حد التكامل وعليه فالفكرة الدينية تصبح مرتكزا أساسيا لأي بناء حضاري، أو تفاعل حضاري، فالتفاعل عملية فكرية روحية تسمو بقيمها المطلقة فتسهم في البناء، وتدفع إلى الأمام وإلى الأعلى، حتى إذا نزلت إلى مستوى المادة تحول التفاعل إلى صدام حضاري تكون من نتائجه الصراع السياسي، والصدام العسكري.

فهذا الرأي أو الفكرة الدينية منطلق أي حضارة-يعود إلى المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي الذي طرحه في كتابه شروط النهضة[1] في حديثه عن الثورة الخالدة، فالحضارة عنده لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية[2] ويرى أن أدوار الحضارات الإنسانية تتشابه مع أطوار الحضارة العربية الإسلامية ، إذ تبدأ الحلقة الأولى منها بظهور فكرة دينية[3]. وهكذا كانت فكرة التوحيد ومرتكزها الإيمان بإله واحد ولا معبود سواه، فتحررت بذلك رقاب العباد من عبادة

---

[1] ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصابور شاهين، (ط3 بيروت: دار الفكر 1969)، 69.

[2] نفسه 75

[3] نفسه 79

المخلوق وبالتالي إيجاد إنسان جديد يتكامل مع غيره في هذا الكون فكان غرس الإيمـــان في الســـور المكية و الدعوة إلى تركيزه، وهو تأسيس في نفس الوقت للإنسان الذي يدرك ما يتطلبه المجتمع من أخلاق وسلوك ودفاع[1]، فالإيمان هو الخلفية الأساسية لأي انبعاث حضاري، أو كما يقول مالك بن نبي مهد الطريق للحضـــارة فالحضارة تولد مرتين : الأولى: فميلاد الفكر ة الدينية، أما الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس أي دخولها في أحداث التاريخ[2].

ومـــن هنا يبدأ ميلاد المجتمع الجديد الذي يسوده العدل كفريضة وليس مجرد حق من الحقوق[3]، حيث يلاحظ إن هذا المجتمع الجديد تظهر فيه علاقات اجتماعـــية جديدة ترتكز على قواعد متينة أولها العلاقة الروحية بين الله، وبين الإنسان، والتي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط مابين الإنسان وأخيه الإنســـان فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني[4].

يقـــول تعالى:"**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألـــف بينهم إنه عزيز حكيم**"[5] والعلاقات هذه هي التي تمكن أفراد المجتمع مـــن العمـــل والابـــتكار في عـــالم الأشـــياء-المادة- لان الفرد يدرك معنى لإسهامه،وعطائه، وبالتالي فعالية جهوده الفكرية والعلمية ومن هنا تجد الأفكار فعاليـــتها حيـــث تخضـــع لشبكة العلاقات فلا يمكن تصور عملا متجانسا من الأشـــخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية، وكل ما كانت شبكة العلاقات أوثق كان العمل فعالا مؤثرا[6].

وللتفاعل الحضاري انطلاقا من هذا التحليل والتقعيد دورا فعالا في بلورة قـــوة الفكرة الدينية، فرغم أنه بعد ظهورها تتجاذبها الأرض (المادة) فتتحول عندئذ عملية التفاعل الحضاري إلى صدام حضاري قد يأتي على معالم الحضارة

---

[1] النومي محمد، المجتمع الإنساني في القرآن الكريم: (الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب 1986) ، 47.

[2] شروط النهضة ص: 81

[3] عمامرة محمد ، العطاء الحضاري للإسلام ،(القاهرة ، دار المعارف 1997)، 25.

[4] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين،(بيروت دار الفكر 1986)، 52.

[5] الأنفال، 63.

[6] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص، 35

نفسها- فإن الفكرة الدينية في الإسلام يتواصل تأثيرها في مختلف أوجه الحياة، والتطور الحضاري، وتقوم بدور حفظ التوازن مما يسهل التحاور بين الشعوب، والجماعات، والقوى الصناعية، والنخب الفاعلة لأن هذه الفكرة تغذي في الإنسان روحه وتستجيب لمتطلبات حياته، وانطلاقا من هذا كانت الحضارة العربية الإسلامية بمثابة الوعاء الذي يسع تراث الشعوب، ويحافظ على بقائه حيا بغض النظر عن اختلاف الأمم، وتنوع مكوناتها العقدية، وأنماط تركيبها الاجتماعي والسلوكي، ولم يتأت لها ذلك إلا لأن لها القدرة على التفاعل انطلاقا من الفكرة الدينية (الإسلام) مع اكتساب المناعة الذاتية التي تقيها تبعات التفاعل الحضاري.

فالتفاعل الحضاري — الرفض للانغلاق والتقليد — التبعية — هو القانون الذي حكم ويحكم العلاقة الصحية بين الحضارات على مر التاريخ فهو قانون . وليس اختراعا كما يقول محمد عمارة [1] .

لقد انفتح المسلمون على حضارة الهند.. لكنهم أخذوا حسابها وفلكها دون فلسفتها وفيها العقدية أو الدينية.

وانفتحوا كذلك على الحضارة الإغريقية والرومانية.. لكنهم أخذوا عنها تدوين الدواوين، ولم يأخذوا شريعة الرومان وقانونهم، وأخذوا العلوم الطبيعية دون الإلهيات والأدب الوثني.

وانفتحوا أيضا على الحضارة الفارسية.. لكنهم أخذوا عنها: التراتيب الإدارية: دون المذاهب العقدية.

وعندما انفتحت الحضارة الغربية الحديثة على حضارتنا الإسلامية إبان نهضة أوروبا أخذوا عنها — الحضارة العربية الإسلامية — ما هو مشترك إنساني عام كالمنهج التجريبي، والعلوم الطبيعية [2].

ونرى من هنا أن الفكرة الدينية كانت العامل الأساسي في عملية التفاعل بين الحضارات ذات العقائد السماوية، والوثنية في جوانبها الإنسانية التي كثيرا ما تلتقي معها، ومهما ما وصلت إليه الحضارات في عالم الأشياء — المادة — فإن الجانب الروحي والفكري هو الذي يحدد مستوى هذا الارتقاء ذلك أن

---

[1] - العطاء الحضاري للإسلام، 135

[2] - نفسه

غـــنى المجتمع لا يقاس بكمية ما يملك من أشياء بل بمقدار ما فيه من الأفكار [1] فالإســـلام عـــندما يجعل الفكرة الدينية وراء كل عملية تفاعل حضاري، فهو يرشدنا إلى فائدة الإيمان بالتعدد والاختلاف المؤدي إلى التكامل [2] (**يأيها الناس إن خلقـــناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عـــند الله أتقاكم)** [3] فلا وجود للأحادية، والمركزية، فالإسلام ينكر المركزية مهما كانت نوعها- دينية، أو قانونية، أو حضارية، لاسيما التي تريد أن يكون للعـــالم مسار واحد، وتسلك سبيل الصراع- صراع الحضارات — لقسر العالم على نمط حضاري واحد .[4]

والفكـــرة الدينية عنصر أساسي في لحم أي بناء اجتماعي أو اقتصادي، وعـــند مـــالك بـــن نبي حل مشكلة التخلف تكمن في مزج الإنسان والتراب والوقـــت، و يجـــب أن يتوفر مؤثر الدين الذي يغير النفس الإسلامية، وأن قوة التركيـــب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ فجوهر الدين — حسب العبارة الشائعة- مؤثر صالح في كل زمان ومكان [5] .

والفكرة الدينية تدخل في تفاعل الفرد والمجتمع وعلاقة كل منها بالآخر وهو ما يعبر عنه مالك بن نبي بالثقافة حيث يقول : ((إن الثقافة علاقة متبادلة أي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد [6] .

لقد أسهمت الفكرة الدينية في بناء الحضارات وتفاعلها حتى كأنها تبدو هـــذه الحضـــارات عـــلى اختلافها إنها حضارة واحدة لا تختلف إلا في المكان

---

[1] مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، 34

[2] الحجرات، 49.

[3] مثال ذلك: 1- مركزية العرق والجنس، 2- المركزية اللغوية — 3- المركزية الاقتصادية، المركزية السلطوية، أنظر محمد عمارة: العطاء الحضاري للإسلام ، 122-123-124.

[4] نفسه 120، 121.

[5] مالك بن نبي: شروط النهضة، 87

[6] مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور رشاحي (ط 4، بيروت: دار الفكر 1984) ، 43.

والزمان، وفي نمط النتائج المادية المتحصل عليها، والتي تحمل خاصية التكامل هي الأخرى.

وفي المحصـــلة أنه لا يوجد هناك ما يسمى بحوار الحضارات، أو صراع الحضارات، إنما يوجد تكامل بينها وتفاعل لعناصرها لأن البشرية تحكمها سنن كونية من لدن العلي القدير قال تعالى: ((**ولقد كرمنا بني أدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)).[1] وقـــال : **هـــو أنشـــأكم من الأرض واستعمركم فيها**)).[2] مع الإقرار بالتعدد والاخـــتلاف((**لكـــل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون**)).[3]

ونخلـــص إلى القـــول إن الفكرة الدينية في الإسلام فكرة عقدية إنسانية الفـــارق بينها وبين غيرها هو الإيمان بالله واحد، وأن البشر كلهم عيال الله لا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح والنافع قال تعالى : " **إن خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** "، فلا صراع، ولا صدام ولا احتوى بين الحضارات إنما تفاعل مبني على التعارف والتكامل والتقوى.

د. إسماعيل سامعي

---

[1] الإسراء، 70

[2] هود، 61

[3] المائدة، 50

التغيير الإنساني في فكر
– مالك بن نبي –

الأستاذ/ أوليد بوعديلة
جامعة سكيكدة

تمهيد:

تصعب عملية القبض على خصوصية أي خطاب إنساني، إلا بتوفر حلقة معرفية شمولية، ذلك أن تشكيل الخطاب ورؤاه تتفاعل مع البدائل الأخرى، وتتحاوران مع مختلف الخطابات، ومن هنا تأسست هذه الورقة التي تطمح إلى القبض على سؤال معنى المرجع في كل خطاب، متجاوزين الوقوف الطويل عند المفاهيم و المصطلحات، على أساس أننا نطمح إلى فتح أسئلة المرجع، إثراء لنقاش معرفي ينفتح على كل الفضاءات و شعارنا: "" السؤال نحو معرفة الجواب""/المعنى.

إن من أبجديات البحث في الخطاب، الانطلاق من وعي معرفي يرى بأن كل أداء أو سلوك يحمل في عمقه منطلقا ته ومرجعياته و نجاح الأداء لا يكون إلا إذا حمل مرجعه بدور و آليات النجاح، ورغم الطابع المعنوي القيمي للمرجع، إلا أنه لا ينفصل " في فلسفة السلوك" عن الجانب المادي أو عن الحضور الواقعي، لكن – أسفا– الكثير من التحاليل و القراءات (معرفية، سياسية، اجتماعية..) تقف مطولا عند النتائج و عند الآثار المادية متخوفة من السؤال الجدري، أي سؤال الرحيل في دلالات المرجع و أبجديات المنطلق، وهو ما ساهم في تعقيد المشهد الحضاري، بمختلف تجلياته و بمختلف مستوياته، وكان المجتمع المدني صورة حية لجدليات الخواء والفراغ تشكيلا و رؤية.

01 – الإنسان، خطاب الحداثة وسؤال المرجع:

من دلالات الانفصال الفكري السليم عن المواقف السياسية أو الاجتماعية في الخارطة العربية، حصر الخطاب الواحد في مرجعية واحدة فقط، ورفض النوعي الذي يرى بأن كل خطاب يمكن أن يستفيد من غيره، سواء

عـــلى مســـتوى التوظيف لبعض علامات المرجع الإيجابية، أو التي تتقارب مع الخطـــاب الواحـــد أو لا تلغـــي ثوابته، أو في مستوى الاستفادة من الأدوات الإجرائية للآخر عند القيام بعملية التجسيد لمرجع الذات(مرجع الخطاب)، ولا نـــريد في هذا السياق أن نقف عند الخطاب السياسي، لأن طرحنا يفتح أسئلة الخطابات بمختلف مرجعياتها وأداءاتها، رغم أن الفعل الديموقراطي العربي يحتم عـــلى كـــل باحـــث في العلوم الاجتماعية و الإنسانية الوقوف عند الخطاب السياســـي، تجنـــبا لما تشهده الخارطة العربية من أزمات وفتن، كانت نتيجة لضـــبابية المـــرجع و سلبية الوعي و عبثيه الموقف(1). ليعلم القارئ بأن هذه الســـطور يكتـــبها قلم بخلفية التكوين الأدبي – الجمالي، لكن ليحذر من هذا التصـــريح، لأن الكثير من الخطابات التي تحاور الراهن وتسائل أسئلة المنظومة الحضـــارية لا تنفصـــل عـــن بعضها البعض، فيلتقي فيها الجمالي، الإعلامي، الفلســـفي، الديني...لذلك فإن الفضاء مفتوح لكل مساهمة معرفية، في سياق مـــرجعها ومـــنطلقها، لأجل طموح الوصول إلى معرفة شمولية عميقة بجوهر الخطاب الحداثي، وفي علاقته بقيمنا و عقيدتنا.

ومن هنا نصل إلى سؤال البداية في طرحنا:ماهي مرجعيات الخطاب الحداثي؟ وماهي مواقفه من المرجعية الدينية الإسلامية؟ كيف ينظر لمرجعيات الخطـــاب الإسلامي(بحضوره السياسي، الجمالي، الفلسفي....)؟ هذه الأسئلة وأخرى نبحث في سرها وعلاماتها، وهي أسئلة كثيرة لكنها تلتقي لتضع – في عمقهـــا- سؤالا واحدا، نريده سؤال البداية إنه سؤال الحداثة و المرجع، وقد يحضر هذا السؤال من غير حضور الإجابة الشافية.

في بدايـــات التأسيس لانطلاق النهوض ووعي الحداثة، وجدا الوعي العربي نفسه محاصرا بقيود المرجع الديني وبقداسة الخطاب الوطني، فكان لزاما أن يحاور الآخر ،حتى لو كان ذلك على حساب وعي ضميرا لذات، فارتفعت أصـــوات العـــودة إلى المـــرجع الغربي للبحث في بواعث النهضة ومنطلقات الحداثة،وكانت البداية من الخطاب الأكاديمي قبل أن يلتقط الخطاب السياسي جوهـــرا لفعـــل الحداثي،وهـــو جوهر أراده بعض أعلام الثقافة العربية حوارا حمـــيما، بـــل تفـــاعلا لاهـــثا و قويا مع الآخر، مثل ما فعل **طه حسين** في

مصر،وكان الطموح يختلج صدره وفكره أن تصل المرجعية الغربية نحو الفضاء العربي كله.

هكذا كانت أبجدية الأداء المعرفي ترى في انفصال الخطاب العربي (نقصد الخطابات العربية المختلفة وبخاصة الخطاب المعرفي) عن كل ما هو تراثي، الخطوة الأولى نحو الوصول على سفينة الإقلاع نحو بحر الخطاب/الحداثة،ولم تكسن الخطوات الأخرى ،(سواء كانت سلمية أو عنيفة) إلا نتيجة للخطوة الأولى،فنحن نرى بأن العنف المادي ليس إلا نتيجة للعنف الفكري، وكلاهما ينطلق من تربة خطاب واحد، يحمل روح الإلغاء و الإقصاء، وقبل ذلك يحمل وعي الانفصال الحضاري عن جسد الأنا، ولو بطرق عنيفة(فكريا وماديا) قصد الاتصال الحضاري بجسد الآخر فكأن المشهد يحيل القراء إلى عالم البيولوجيا و الهندسة الوراثية، حيث تنجز العمليات الجامعة بين الخلايا والأعضاء في انتظار التفاعل أو التنافر.

و لم يقف الخطاب الحداثي عند رفض المرجع العربي و الحوار مع المرجع الغربي فحسب، وإنما أخذ يقوم بعمليات التهديم و التخريب(قيميا وماديا) لكل ماهو دليل على التراث و الذاكرة بمختلف الوسائل.

وكانت الوسائل الاتصالية أكثر الوسائل التي شهدت علامات الصراع بين خطاب مرجعي عربي وآخر يرفض بل يتمرد على هذا المرجع، ويمكن أن نضيف الوسائل الجمالية التي طمح أهلها إلى الدخول في كل ماهو عالمي (تشكيلا و رؤية) ولو كلن ذلك على حساب المرجعية الجمالية العربية، ولو أن هذه المواقف الانفصالية قد عاودت كل قراءاتها فيما بعد، وأعادت أسئلة المرجع إلى ساحة الخطاب العربي في محاولة لمكاشفة فلسفية للذات والكون، قبل الحوار مع الآخر.

نعود إلى جدلية الحداثة و المرجع، ومحاولات الانفصال فالمشهد الثقافي-السياسي يتحرك في الزمن العربي ضمن أفق الصراعات و الاختلافات المتلاحقة، قد يكون ذلك علامة صحة ونشاط وجودي، وقد يكون علامة إخفاق وغياب الفصل في وعي الهوية، ومن ثمة الحضور السلبي في الحركية التاريخية الإنسانية. و البحث في الانفصال كثيرا ما يجعل القارئ يتأرجح بين أسئلة الذين يريدونه انفصالا نهائيا و بين من يريدونه انفصالا جزئيا، وهذا

لاختلاف وعي القراءة و طموح الحضور في الميدان الاجتماعي، السياسي، الثقافي(..) (2).

كل تلك الفضاءات الثقافية تعيد إلى الوعي وإلى الذاكرة المعرفية متاهات الخطاب الفكري العربي ورحلته الفلسفية في التراث و العصر الراهن، وقد اخترت أن نفتح الجانب المرجعي في الخطاب الحداثي، لأهمية المرجع في كشف جوهر كل خطاب، وقد يستغرب القارئ عدم الدخول المعرفي لأمور كثيرة، فإذا واصلنا القراءة و البحث، لانفتحنا على مسائل أخرى كثيرة ذات امتدادات إعلامية، سياسية، اجتماعية، أدبية(...). ونحن في هذه الورقة نريد أن نتوقف عند فكر مالك بن نبي فقط.

2- فكر الثورة/ تغيير الإنسان، بدائل مالك بن نبي:

يعد المفكر الجزائري ""مالك بن النبي"" من أبرز المفكرين الذين عنوا بالبحث العميق في جذور البناء الحضاري، ويكفي أن نقر أله كتاباته الفكرية الكثيرة:" مشكلة الثقافة"، " وجهة العالم الإسلامي "، "الفكرة الأفروآسيوية"، "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، "بين الرشاد و التيه"... لنكشف قوة التحليل وعمق الطرح فيما يخص عملية التغيير الثقافي في المجتمع، أو طرق السيطرة الفكرية..أما الثورة وكيف ينظر لها المفكر مالك بن النبي؟ وماهي الأسس التي تنطلق منها؟ وماهي نتائجها على مستوى المجتمع؟ هذه أسئلة وأسئلة أخرى سنحاول الإجابة عنها في المنظور الفكري لهذا المفكر الجزائري(3).

في البداية يحرص""**مالك بن نبي**"" على أن تقوم أية ثورة على أسس صلبة، وعلى مبادئ متينة، يقول:"" الثورة ليست كإحدى الحروب تدور رحيها مع العدد و العتاد، بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة""وهذا ما نجده في كتابات كثيرة لهذا المفكر، فلأساس في البناء الحضاري لا يقوم على الوسائل المادية فقط، ولكنه يقوم قبل ذلك على الأفكار والرؤى التي تنظر لهذا البناء، وتعطيه إطاره الفلسفي، لذلك كانت غاية أية ثورة هي تغيير الإنسان، والانتقال به من حالة شعورية وموقف فكري سلبيين، إلى حالة شعورية دافعة وموقف فكري تحرري، يقول"" مالك بن نبي"": ** الثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها، إذا هي لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها من حيث سلوكه

وأفكاره وكلماته** ولكن ماذا يجب أن يتوفر لهذه الثورة كي تضمن نتائجها وتحفظها من التراجع و الموت البطيء؟

الأكـــيد أنه على الثورة عدم التنازل عن المبادئ التي قامت عليها لأجل تحقـــيق مط امح مادية، أو أهداف آنية، يقول"" **مالك بن نبي**"": **إن لكل ثورة ما بعدها، فإما أن يكون مواصلة للثورة، وإما أن يكون في اتجاه معاكس يتنكر لها و يمسخها، وإن صراع أصحاب المصالح بعد كل ثورة ماهو إلا دليل ضـــعف في النيات، و هشاشة المبادئ.. إضافة إلى تجاهل للتضحيات، وتنكر للـــزملاء الذيـــن سقطوا في ميدان الشرف، دفاعا عن أخلاقيات هذه الثورة، وهـــذا يـــؤدي إلى فقدان الروح الثورية، الذي هو نتيجة حتمية لعدم حفظ الذهنـــية الثائرة لمقدمات ومسلمات الثورة**.وإذا فرضنا أن الثورة تمكنت من تحقيق هدفها الأول، أي الاستقلال السياسي، فإن هذا الاستقلال يبقى ناقصا، بـــل مبتورا، إذا لم يتحقق الهدف الجوهري للثورة(تغيير الإنسان)، يقول **مالك بن نبي**:** وقد يسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها، وقد تســـتبدل في البلاد العربية مثلا بالحروف اللاتينية حروف عربية على واجهات ولافـــتات الحوانيت، إلا أن التغيرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار، ولا يســـتقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان** وهذا للأسف مع تراجع يكاد يكون كلـــيا للخصوصـــية الثقافية، وللثقافة الذاتية لهذا الوطن، لذلك كانت تصفية الاســـتعمار مـــن العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة ومفهوم الحضـــارة، فهـــي لا تتحقق بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، ومجرد إعلان الاستقلال، وتحرير الدستور.و يحدثنا ""مالك بن نبي"" عن القابلية للاستعمار، التي تسيطر على شخصية الإنسانية في البلاد المستعمرة –بالفتح– وهي نتيجة طبيعية لهشاشة البناء الثقافي لهذا الإنسان، يقول ""مالك بن نبي"": " أينما حل الاستعمار كان يلوث الإنسان، حتى أصبحت تصفيته من رواسب الاستعمار، أهـــم عمل ثوري في الثورة"، فلا يمكن بناء وطن مستقل، من غير بناء إنسان مســـتقل، ولا يتم بناء ذلك الوطن وهذا الإنسان ، إلا بفكر تحرري، وبثقافة أساســـها الأنا الثقافي(الهوية) وغايتها التفتح على الآخر(العصرنة)، لذلك فقد كانـــت تصـــفية الاســـتعمار في الإنسان مقدمة عند مفكرنا على تصفيته في الأرض.

وبالنسبة لثورة الشعب الجزائري، فالمعروف أنها قد قامت على أسس متينة تقوم بالأساس على العقيدة الإسلامية، يقول مالك بن نبي: لقد كان الإسلام الحصن الذي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي استهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمان، كما كان الخاضر الإيديولوجي الرئيسي الذي دعم جهده البطولي خلال الثورة"، فالإسلام أعطى للثورة الجزائرية الدافع العقدي لمواجهة الاستعمار، فقد كان كافيا للإنسان الجزائري أن يسمع قوله تعالى*** **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون*** حتى ينطلق كالأسد نحو العدو، متحصنا بثقافة إسلامية،وبفكر وطني تحرري، لكن ما حققه أولئك الوطنيون لا يكفي إذا لم يواصل أبناؤهم الدرب، فالثورة لا تقف عند الاستقلال السياسي- كما سبق ذكره بل يجب أن تكون هناك استمرارية، وعلى كل وطن أفلت من اليد التي تمشيه (بالشدة) الأم طفلها، عليه أن يتعلم أيضا ا المشي وحده في الميدان الاقتصادي دون يد تمسكه،بل عليه أن يتعلم أيضا المشي في جميع الميادين (الثقافية- الرياضية- المنظومة التربوية- المنهج النقدية...)، دون أن تمسكه يد الغير، إلا بما يحفظ خصوصيته، و يساعده على النهوض، من غير استلاب ثقافي، أو إمحاء حضاري.

وكما يقول "مالك بن نبي"":**إن ثورة ما، لابد لها أن تسير طبقا للقانون الاجتماعي الذي تشير إليه الآية الكريمة:" **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فهل نعي الدرس؟****.

3- الحضارة وهذا الإنسان:

عندما نعيش التخلف وبقى في الذيل.. عندما نغرق في الأزمات والهزائم.. عندما لا نجد حلولا لمشاكلنا.. بل عندما نجد أنفسنا أمام مشهد مأساوي.. ينبض بالرداءة والهشاشة و الرثاثة... يصبح لزاما علينا أن نعيد ترتيب أوراقنا وأن نعيد قراءة ذاتنا.. ففي هذا الزمن الذي تتقدم فيه الأنظمة الإلكترونية – المعلوماتية على حساب الأنظمة البشرية.. في زمن يعرف الإنسان كل شيء إلا ذاته.. يجب أن نقف عند الفيلسوف المفكر مالك بن نبي.

أ- الحضارة بين "الأفكار "و"الأشياء":

يؤكد مالك بن نبي في الكثير من كتبه على أن جوهر البناء الحضاري ينطلق من الفكر، لذا فالحضارة هي التي تلد منتجاتها، "ولا يمكن بناء حضارة بشراء منتجات حضارة أخرى"(4) .وقيمة كل أمة لا تتجسد فيما تملكه من أشياء ولكن في أفكارها، أي "الرأسمال المفاهيمي"، وليس "الرأسمال المادي". وما هو موجود في الأسواق العربية(وكل أسواق العالم الثالث)وهو في الحقيقة قد تم شراؤه من مجتمعات تملك أفكار صناعة و تكوين الأشياء التي تعرض في تلك الأسواق.

ويرى مالك بن نبي أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع يفتقد للأفكار، فهو أعزل من حيث المفاهيم، لا لعدم وجود الأفكار والمفاهيم، ولكن لأنه مجتمع يحارب بالأسلحة وليس بالأفكار؟! وعند البحث في عوامل البناء الحضاري يجب أن نقف عند محطة "الأفكار" لا"الأشياء"، بمعنى البناء الحضاري وليس"التشييد المادي"(5). وهذا في محاولة لمضاعفة أفكار الحضارة، مع الاستفادة من أشيائها، لأن اليابان مثلا قد تمثلت أفكار الحضارة الغربية، في وقت يقي المجتمع الإسلامي يغرق في شراء" الأشياء" يقول:"إن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة أفكاره"(6) لهذا يسعى أبناء الحضارة الغربية لبيع أشيائهم(منتجاتهم الحضارية) للعالم الثالث، في نفس الآن الذي يسعون إلى احتكار الأفكار التي تقف عند هذه الأشياء.

ثم إن اليابان قد كان ذكيا في تعامله مع الغرب، لأنه وقف منه موقف "التلميذ"، بينما وقفنا نحن موقف"الزبون"، فكيف ستكون النتائج؟ يجيبنا مفكرنا قائلا:"إنه استورد منها الأفكار خاصة، ونحن إستوردنا منها الأشياء خاصة إنه كان خلال سنوات(1868—1905) ينشئ حضارة وكنا نشتري بضاعة حضارة (7) وقع ذلك لأن جوهر عملية البناء الحضاري لاتتم إلا عندما يعطي المجتمع أهمية كبيرة لعالم "الأفكار" على حساب عالم "الأشياء"، بمعنى تقديم الدوافع التي تحرك المنتجات المادية.ولحل مشكلة الحضارة، يستوجب حسب بن نبي حل ثلاث مشكلات جزئية(8).

01- **مشكلة الإنسان، و تحديد الشروط لانسجامه مع سير التاريخ:** .

01- مشكلة التراب، وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.

02- مشكلة الوقت، وبث معناه في روح المجتمع و نفسية الفرد.

إن حل تلك المشكلات لا يتحقق إلا إذا آمنا بأمر هام، وهو أن المشكلة أو القضية "ليست قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية في أنفسنا...فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن(الإنسان) سكن المجتمع و التاريخ""(9).

ب-أزمة الثقافة ومشكلة المجتمع :

و الحديث عن البناء الحضاري يدفعنا إلى تتبع ما قاله مالك بن نبي عن "الثقافة"، ليس بمفهومها الفلسفي- الفكري فحسب، ولكن بمفهومها البراغماتي-العملي..لأن المشكلة الأساس لا تنحصر في فهم الثقافة، وإنما في تحقيقها عمليا.. لكن قبل هذا يرى هذا الفكر بأن "الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، والجمال، و المنطق العملي، والصناعة(10) وإذا فهمنا الأخلاق والنطق العملي والصناعة،فإن مقصود الجمال عند مالك بن نبي يرتبط بالإطار الحضاري للأمة، حيث يتصل هذا الإطار بذوق الجمال، بل" إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة""(11).

الحقيقة أن الأزمة الثقافية-حسب بن نبي- هي المعدن الذي تصاغ منه الكثير من الأزمات في الميادين الأخرى، ومن هنا" فلا يمكن لنا أن نتصور تاريخنا بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه"(12)، وإذا كان المجتمع ينظر إلى الإنسان الذي يتوفى على أنه قد مات موتا ماديا، فكذلك الأمر إذا"فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتا ثقافيا معنويا ". وتبقى القيمة الثقافية لكل "فكرة" ولكل"شيء" تقوم على علاقاتها بأفراد المجتمع، مع العلم أن لكل مجتمع خصوصيته الثقافية،.لهذا تختلف المجتمعات باختلاف ثقافتها.

ونحن إذا أردنا البحث في مشكلة الثقافة، فإننا- كما يقول مالك بن نبي-" وجدنا أنفسنا نواجه ضمنا مشكلة أسلوب الحياة ومشكلة السلوك الذي ينسجم معها"، ذلك على المجتمعات التي تبغي النهوض أن تطهر عاداتها و تقاليدها و إطارها الثقافي بصفة عامة مما يسميه بن نبي " العوامل القتالة". و"المم التي لا فائدة منها"، وهذا كي تفسح المجال "للعوامل الحية "و"الداعية إلى

الحـــياة".ورغـــم كثرة التعاريف التي وضعها بن نبي للثقافة في كتابه"مشكلة الثقافة" إلا أنها تعار يف تدور في فلك واحد مثل:

1- الـــثقافة مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفـــرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة و الوسط الذي ولد فيه.

2- الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

3- الـــثقافة هي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي و التمدن، وهي أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى الجسر إلى الهاوية.

وهكـــذا يتضح أن مجال ثقافة ما يحيل إلى الإطار الذي تنمو فيه حضارة تلـــك الثقافة.. وعلى النخبة المثقفة أن تحمل المشعل.. فهي القاعدة التي ترتفع علـــيها الجماهير إلى مستوى الحضارة كما يقول مفكرنا..لكن تبقى الفاعلية أهم شيء في حركية البناء ، يقول مالك بن نبي:" إن الذي ينقص المسلم ليس مـــنطق الفكرة،ولكن منطق العمل و الحركة، وهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا" (13) لهذا فمشكلة المجتمع تعود إلى أزمته الثقافية، كما أن سلبية الثقافة تعود إلى عدم فاعليتها.فهل ندرك هذا الأمر.

ج- في الوعي السياسي و أثره على الإنسان :

معروف عن مالك بن نبي تميزه بين "السياسة"و" البوليتيك"(14) فالأولى هـــي الصـــورة المثلى لخدمة الشعب، أي هي المبادئ و القيم التي ينطلق منها البحـــث إلى غايـــة الوقوف عند "العلوم السياسية".. أما الثانية فهي ليست " POLITIQUE"، أي الـــترجمة الفرنسية للكلمة العربية، لكنها المفهوم الشعبي لمعنى السياسة، بما فيها من"قذف مجرد للكلمات، وصرخات وحركات لمغالطة الشـــعب واستخدامه".. وإذا كان غياب الأفكار من شأنه أن يؤدي بالأمة أو المجـــتمع نحـــو السقوط، فإن السياسة من دون أخلاق ما هي إلا خراب الأمة ويحـــرص مـــالك بن نبي على أن تكون سياسة الدولة في خدمة مصالح الأمة، وذلك بتحقيق الحريات العامة، وضمان حقوق الإنسان،و الحرص بكل نزاهة على التداول على السلطة، وكل هذا يتحقق بالارتباط بضمير الأمة، والحفاظ

على هويتها(ثوابتها)، وإذا لم يتحقق هذا تفقد السياسة فعاليتها على المستوى الداخـــلي،أما إذا انفصـــلت عن الضمير العملي، فهي"تضيف إلى العالم خطرا فـــوق الأخطـــار التي تهدده" ولعل انتشار ثقافة القيام بالواجب على حساب المطالـــبة بـــالحق من شأنه أن يحقق فاعليته السياسية التي تغير وجه الأشياء في الاتجـــاه الـــذي يخـــدم الشعب، وفي حالة العكس فإن المصالح الذاتية ستدفع بالأوطان نحو الهاوية.

ويمكن السياسة أن تحقق فعاليتها كذلك إذا كانت المؤسسات التي تقف خلف هذه السياسة تستند إلى أفكار واضحة المعالم، وإلا كان محكوما على هذه المؤسسات بالفناء، على حد تعبير مالك بن نبي..ومن هنا، فإن التخطيط المحكم، وعدم تجاوز الواقع الاجتماعي، مع البحث في عمق المشاكل من غير الهروب إلى الأمـــام، يضمن تجاوز الكثير من الصعاب السياسية .. هذه الصعوبات التي هي نتاج لخلل عام على جميع الأصعدة، خاصة الصعيد الفكري.لهذا فإن معرفة أهل السياسة (معارضة و سلطة) لعلم الاجتماع و النفس و الأنثربولوجيا، وباختصار فإن العلم بثقافة الأمة التي تتحرك في فضائها الوجوه السياسية، يصبح أكثر من ضـــرورة لضمان الاستقرار و الأمن في كل أمة، وفي حالة العكس فإن المجتمع ســـيتجه نحـــو الأزمات التي تعصف باستقراره نتيجة لكثرة التزييف، و التزوير والكـــذب و مخادعـــة الشـــعب...يقول مالك بن نبي:" إن السياسة التي تجعل القوانين الأساسية لعلم الاجتماع،وهو الذي يعتبر علم بيولوجيا البنى و الأجهزة الاجتماعية ليست إلا ثرثرة عاطفية،ولعبا بالألفاظ و طنطنة غوغائية(15) ولكي نـــتجاوز الأخطار التي تهدد الكيان الاجتماعي نتيجة الأنظمة السياسية السلبية والهشة، يقترح مالك بن نبي:"أن نعقد فصلا خاصا للأمراض الاجتماعية، يعالج القصـــور الـــذي يصيب الأنظمة الاجتماعية والمؤسسات العامة، كما تعالج في الطب الأمراض العضوية"(16) و هذا ما تحتاجه الكثير من الدول النامية.

د- في المنظومة الاقتصادية:

لمـــالك بن نبي –كذلك- آراء ومواقف حول المشروع الاقتصادي، وله كتاب "المسلم في عالم الاقتصاد"، وهو في كل مرة يربط النجاح على المستوى الاقتصادي بدرجة الارتباط بالثقافة (الأفكار)، ومن ثمة بالإنسان، لأن القضية الاقتصـــادية ليســـت في الأدوات و الإمكانيات، و لكنها في النفس البشرية

يقـــول:" حـــل المشكلة الاقتصادية ينحصر في تكوين وعي اقتصادي بكل ما يســـتتبعه في التكوين الشخصي للفرد، وفي عاداته، وفي نسق نشاطاته..(17) ويذكرنا مفكرنا بأمر، كثيرا ما ننساه، وهو أن النمو الاقتصادي يتوقف على الأمـــن الاجتماعي، فهو يقول:"لا يتصور في الواقع أن نواجه مشكلة اقتصاد موحـــد في مـــنطقة لم يزل عنها خطر الحرب نهائيا ،فإن المرء لا ينشئ شركة مالـــية مـــع رفيق لن يسير معه إلا جزءا من الطريق"(18) فغياب الأمن يفسر غياب الاستثمار(وطني أو أجنبي).

إن كل ما يحدث من تغير على المستوى الاقتصادي في المستقبل هو في عمقـــه. تغير على المستوى الحضاري و البحث في المسألة الاقتصادية يقتضي بالضرورة البحث في المسألة النفسية –الثقافية – الإنسانية، لأن الاقتصاد "ليس قضـــية إنشاء بنك و تشييد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان وإنشـــاء ســـلوكه الجديد أمام كل المشكلات"(19) وما انهيارا لمصانع إلا من انهيار أفكار أصاحبها .

وإن كان المجتمع العربي و الإسلامي شهد الانتقال من النظام الاقتصادي الاشـــتراكي نحو اقتصاد السوق، فإن بن نبي يقترح البديل، حيث ينطلق من تحليل علمي جد عميق، يرى فيه أن التفكير الذي يجعل المجتمع العربي يحد من مـــناهجه الاقتصادية بين منهجين(اشتراكي أو رأسمالي)"يجعله أمام مشكلات فنـــية، أو مذهبية أو على الأقل أخلاقية، تضيف إلى متاعبه ما شاء الله، لأنه لا يجـــد لهـــا حـــل في نطاق اختياره في كلا الاتجاهين، إلا على حساب مبادئه الأولية،وبالـــتالي عـــلى حساب شخصيته و هويته"(20) وهناك أفكار أخرى حول "الاقتصاد" نذكر منها:(21) .

- إذا بـــدأ تزايد السكان في بلاد مختلفة كارثة(مثل كارثة زحف الجـــراد عـــلى أرض ذات زراعة ومرعى) فإنما لسبب واحد هو أن التخلف الاقتصادي مبطن بتخلف ذهني..

- أي مشـــروع نفكر فيه بأفكار الآخرين و نحاول إنجازه بوسائل غيرنا معرض للفشل لا محالة..

- كـــي يكون لاقتصاد البلاد النامية فعاليته في الخارج، يجب أن يكون له نظامه الدقيق في الداخل..

- إن المعـــارك الاقتصـــادية عندما تدور رحاها، فهي تدور حول قطب القيم الأخلاقية، وإن وسعنا المصطلح قلنا:حول القيم الثقافية..

الخاتمة :

إنهـــا وقفة سريعة مع مفكر عملاق..يمكن أن نجزم بأن ما كتب حوله خارج الثقافة العربية أكثر مما كتب داخلها، بل إن فكره و آراءه الفلسفية قد أنجزت حولها الكثير من الأبحاث الأكاديمية.. ومهما يكن فإن مالك بن نبي لا يزال مظلوما في حضارتنا الراهنة، لأننا لم نتعمق في كتبه، و لم يسع الكثير ممن وصلوا إلى مقاليد الحكم عندنا إلى العمل بما قدمه من مواقف، أبسط ما يمكن أن نقولـــه عنها، بأنها تقدمية، وبأنها تتجاوز الراهن بكثير.. تلك المواقف التي تتحرك وفقها الآلة الحضارية الغربية(في جانبها الفكري)...

في حـــين نـــبقـــى نحـــــن نتهم مفكرنا بالرجعية و لكنها في الحقيقة مراجعة للذات.

هـــذه محاولة لكشف النقاب عن بعض آراء المفكر "مالك بن نبي" وهي آراء تضاف إلى أخرى في الاقتصاد، الثقافة، السياسة، البناء الحضاري..تزخر بها المنظومة الفكرية لهذا المفكر الجزائري وطرح مسألة "الثورة" في هذا الوقت، يعد شيئا أكثر من ضروري لأنه لا يكفي أن نرفع الشعارات كما لا يكفي أن نتغنى بما فعلناه في الماضي،في وقت يشهد فيه حاضرنا تراجعا عن مبادئ كانت أساسا لتمتعنا بالحرية، وقبل ذلك كانت مقوما لوحدتنا الوطنية.

لقـــد كانـــت المنظومة الفكرية لمالك بن نبي منظومة تتحاور فيها كل العلوم الإنسانية، قصد خدمة الإنسان المسلم،ففيها يتفاعل البعد الديني مع المعالم الفكرية والفلسفية لدى الغرب، كما تتفاعل في أفقها القراءة التاريخية التراثية مع البدائل الفلسفية العقلية مع عدم إقصاء أي جانب من جوانب الإنسان بحثا عن الهدف الوحيد، وهو التغيير الإنساني.

الهامش:

01- انظـــر :حســـين توفيق إبراهيم:التطور الديموقراطي في الوطن العربي، مجلة السياسة الدولية عدد142، السنة 3 أكتوبر 2000، مؤسسة الأهرام مصر

02- انظـــر كتاب المفكر السوري برهان غليون:اغتيال العقل ، محنة الثقافة العربية بين السلفية و التبعية، بيروت، لبنان

03- تعتمد في تحليلنا لمسألة الثورة و الإنسان على أفكار مالك بن نبي في كتابه"الرشاد و التيه " دار الفكر لبنان2002 ص14

04- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، لبنان2002 ص25

05- انظر مالك بن نبي"تأملات"و"فكرة كمنويلث إسلامي" دار الفكر، لبنان2002.

06- مالك بن نبي فكرة كمنويلث إسلامي، دار الفكر، لبنان2002ص63

07- مالك بن نبي، تأملات دار الفكر، لبنان2002ص30

08-09 – 10 – انظر المرجع نفسه

11- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص11

12- 13- المرجع نفسه ص60

14- بين الرشاد و التيه، ص35

15- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، لبنان2002ص22

16- المرجع نفسه ص55

17- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، لبنان2002ص21

18- 19-20- المرجع نفسه

21- كلها موجودة في المرجع نفسه.

أثر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلوم العصر في فكر مالك بن نبي

الدكتور /بلقاسم شتوان
جامعة الأمير عبد القادر

نبذة عن حياته:

ولد مالك بن نبي رحمه الله عام 1905م في مدينة – قسنطينة– انتقل بعد إنهاء دراسته الثانوية إلى باريس حيث تخرج عام 1935 م مهندسا كهربائيا.
تميز رحمه الله منذ نشأته بحس النقد للنصوص والأحداث ،فراح يحلل الأحداث التي كانت تحيط به. وقد أعطته ثقافته الدينية والعلمية والمنهجية قدرة على إبراز مشكلة العالم الإسلامي المتخلفة باعتبارها قضية حضارية فجاءت مؤلفاته كلها تحت عنوان "**مشكلات الحضارة**".

وفي سنة 1956 م توجه مالك بن نبي للقاهرة، عاصمة الثقافة العربية والإسلامية حيث احتك بأساتذتها وطلابها . وفي القاهرة ترجمت كتبه إلى اللغة العربية، ثم أصدر فيما بعد بقية كتبه بالعربية.

عودة مالك بن نبي لوطنه الجزائر: عاد مالك بن نبي للجزائر سنة 1963 م حيث عين مديرا عاما للتعليم العالي وبعد اعتلاء هذا المنصب قام بدور مهم في بث الوعي الإسلامي في المجتمع الجزائري الحديث الاستقلال وحاول تحصينه من مواجهة التيار الشيوعي، ثم انطلق – رحمه الله – تعالى بدعوته الحركية لنشر أفكاره في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

حركة تنظيرية تهتم بفقه حركة التغيير، وقد انطلقت من ندواته التي كانت يعقدها في بيته حيث خصص: **يوم السبت ندوة للمثقفين باللغة الفرنسية. ويوم الأحد للمثقفين باللغة العربية.**

الاتجاه الثاني:

دعوته إلى تبسيط المعارف الإسلامية ونشرها في أوساط الشعب الجزائري.

الاتجاه الثالث:

1 - دعوته لنشر الإسلام قولا وعملا، وقد انطلقت هذه الدعوة من مسجد الطلبة **في الجامعة المركزية بالجزائر العاصمة** . ولا عجب أن يرتبط فكر مالك بن نبي رحمه الله تعالى بالعمل، وهو الذي يدور فكره حول مسالة **الفعالية** وإعادة **الإشعاع** الاجتماعي للدين الإسلامي.

2 - فتح مسجد للطلبة في الجامعة المركزية بالجزائر العاصمة بين عامي(**1968-1969م**)، وعندما طرح -رحمه الله تعالى- فكرة فتح مسجد داخل الحرم الجامعي على طلبته أرشدهم إلى الاستعانة **بالأستاذ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي** الذي كان **وزيرا للتعليم** آنذاك. ولما اتصل طلبته بسعادة الوزير رحب بالفكرة ، وأجاب بقوله:" **أبني لكم مسجدا بجوار الجامعة المركزية يسعكم ويليق بمقامكم**". فلما عادوا إلى الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- قال كلمته المشهورة:" **إن حجرا داخل الجامعة خير لكم من مكان رحب خارجها** .(1)

وذلك لإدراكه بأهمية هذا المكان الذي سوف يكون مجالا لتيار فكري حضاري يواجه **التيار الشيوعي** الذي يسيطر على الجامعة .وقد صح توقعه ذاك، فكانت تلك النقطة مصدرا لإشعاع الفكر الإسلامي على الأحياء الجامعية والجامعات داخل الوطن. وعن طريق طلبته انتقل فكره إلى مساجد البلاد.وقد صدقت فراسته بحيث كان ذلك المتر المربع أي " **الحجر الأساس** " بمثابة اللبنة أو النواة الأولى للصحوة الإسلامية بالقطر لجزائري.

وقد تابع نشاطه ذلك بمسجد الجامعة المركزية بمحاضرات وندوات فكرية حتى تكونت حركة طلابية تسمت"**حركة الطلبة التوريين**"والتي كونها رشيد بن عيسى تلميذه الأول والتي تصدت **للتيار الشيوعي** بمواجهة علمية وفكرية إسلامية، ويرجع هذا الفضل كله له -رحمه الله تعالى - في انتشار الوعي الإسلامي بالأوساط الجامعية، وسهر الطلبة والأساتذة الجامعيين على البحوث والدراسات العلمية الأكاديمية ، وعلى نشر الثقافة العربية الإسلامية الصحيحة وتصديهم **للحركة التغريبية** ودفاعهم عن الصحوة بكل ما أوتوا من جهد.

وإضافة إلى ذلك أن الحركات الإسلامية في الوطن العربي والإسلامي قد استفادت من مالك بن نبي وخاصة في قضية الاهتمام بالمرأة المثقفة وإدخالها في حقل الدعوة الإسلامية.

مالك بن نبي وملتقيات الفكر الإسلامي:

إن المؤسسة التي تركت آثارا قيمة في أوساط الحركة الإسلامية هي ملتقيات الفكر الإسلامي التي تنظم سنويا منذ أن أسسها المرحوم عام 1969م بثانوية **عمارة رشيد** بالجزائر العاصمة، وأصبحت الدولة تشرف عليها فيما بعد، حيث سمحت للنشئ بالاحتكاك مباشرة بأقطاب الحركات الإسلامية من أنحاء العالم الإسلامي فكانت بمثابة جامعة متنقلة ومستقلة لنشر الوعي الإسلامي وفتح النوافذ للشباب على الحركات الإسلامية في العالم.

وهكذا كان مالك بن نبي رحمه الله يعمل في هدوء وصمت ،حتى أحدث ثورة فكرية على مستوى المثقفين، وانطلق عمله من الجامعة والمسجد والندوات إلى الفضاء الدعوي الرحب. وقد نجح في مواجهة **التيار التغريبي والشيوعي الخصمان للدودان** للحركة الإسلامية ، والشيء الذي يلفت الانتباه هو كيف تعامل هذا الرجل مع السلطة بذكاء ودهاء ، ولم يدخل معها في مواجهة وصراعات قبل الإعداد لذلك؟ وكان همه الوحيد المواجهة الفكرية مع خصوم **الإسلام وأعدائه**.

قراءة في فكر مالك بن نبي – رحمه الله تعالى –:

تميز فكر مالك بن نبي – رحمه الله – بعمق الأفكار والنظرة الفاحصة والإحاطة التامة بالموضوع الذي يطرقه، حيث رسم لنفسه إطارا تحدده **الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة** كما استخدم مصطلحاته الخاصة في مجال معالجة مشكلة دراسته الكبيرة وهي **تخلف المجتمع الإسلامي**.

وقد ساعده على ذلك سعة اطلاعه، فكل من يطلع من المثقفين على فكر الرجل يدرك هذه الحقيقة الواضحة، بل وأكثر من ذلك فهو يجبر قارئه على الرجوع لبعض القضايا في مصادرها حتى يتسنى له أن يتابع القراءة ويحصل له الفهم.

أثر الثقافة الإسلامية في فكر مالك بن نبي – رحمه الله –:

يقول رحمه الله:" المجتمع الإسلامي الذي يعد خاصة موضوع دراستنا هو النموذج ذو الحجر الواحد، أعني بناءه قد اتخذ صورة واحدة تتفق كثيرا أو قليلا مع الحديث المشهور" **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا**".(2)

فهو يحدد المجتمع الإسلامي الذي يعمل من أجله بالحديث المذكور، ويريد بذلك أن يخلص المجتمع الإسلامي من المذهبية التي قسمته ومزقته خلال الفترة التاريخية الطويلة إلى مذاهب و طوائف، ويحاول الارتقاء بالمجتمع الذي يعيشه والذي يقول فيه :" هو مجتمع ديمقراطي وإن لم يكن يحتفظ في مؤسساته بجوهر الديمقراطية ، أعني أنه مجتمع بلا طبقات وأنه قد يحقق المصلحة بنظرة ضيقة" فهو يرى من خلال الثقافة التي رسمها لترقية المجتمع الإسلامي ، الثقافة التي تعلو به فوق كل نظرة ضيقة كي يتحرر من قيوده ويحقق المصلحة العامة للمجتمع .فمن خلال نظرته للتغيير هذه نجده يثمن تجربة الاتحاد بين جمهورية مصر العربية ، والجمهورية العربية السورية . ويرى أنها محاولة للتغيير في الواقع في صورة حديثة ، وكان يأمل أن يعمم هذا التغيير .فيقول في ذلك:" **والتجربة الراهنة في الجمهورية العربية المتحدة هي في الواقع محاولة لإعادة التغيير في صورة حديثة**".(3)

وهكذا عمل مالك بن نبي رحمه الله تعالى على أن يؤطر فكره **بالقرآن الكريم** ويستخدم عقله في فهم معانيه ولاشك أن فهمه للآيات كان فهما حسنا حيث يقول : " **إن الأمة قد تبدأ بفرد واحد يمثل نواة المجتمع الوليد** " وهذا المعنى استنبطه من فهمه للآية الكريمة من قوله تعالى : (**إن إبراهيم كان أمة**) – سورة النحل آية 120 – ثم يخلص في النهاية لإعطاء هذا المعنى للمجتمع الذي يسعى إليه فيقول:" فلكي يعطي لمجتمعنا تعريفا منطقيا، ينبغي أن نربطه بمعامل الزمن ربطا نحدد معه لهذا العامل دلالته النفسية والاجتماعية، ومن هذه الوجهة يصبح المجتمع هو: **الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي هو فكرة دينية**. ومعنى هذا فإن – **الظرف الاستثنائي**– الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما

بعد إلى الوجود. ومعنى هذا أن شبكة العلاقات بكل ما تحتويه من خيوط وأطراف والتي يتسنى للمجتمع بفضلها أن تؤدي عمله التاريخي وهي ذاتها تعد في حيز القوة داخل البذرة التي تشمل جميع أقدارها.(4)

والذي نستشفه من قول مالك بن نبي رحمه الله تعالى أنه كان على دراية تامة بالمفاهيم البيولوجية الحديثة DNA، وأنه يحاول أن يوظف تلك المفاهيم في محاولة لبناء فكر متميز ذي فهم عميق ضمن النصوص الإسلامية، المتمثلة في **القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة** .

فهو بذلك يريد أن يشق طريقا لناشئة الأمة الإسلامية لكي تفهم النصوص الشرعية وفق روح العصر وهو يوجهها نحو سنن الله الكونية والاستفادة منها.

رؤية مالك بن نبي –رحمه الله تعالى – للعلاقة بين الله والإنسان:

ينطلق مالك بن نبي –رحمه الله – من تحديد العلاقة بين الله والإنسان ليصل إلى تحديد العلاقة بين الإنسان والإنسان في ظل المجتمع الإسلامي ويصوغها في قالب علمي اجتماعي في منتهى الروعة حين يعبر عنها من خلال **الحديث النبوي الشريف.**

" المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا".(5)

يقول رحمه الله:" فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تولد العلاقة الاجتماعية، وهذا بدوره يربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان. وأن هذه العلاقة تولد في قمة صورتها الأخلاقية. وعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة **الاجتماعية والعلاقة الدينية** معا من الوجهة التاريخية على أنها **حدث،** ومن الوجهة الكونية على أنهما **عنوان لحركة تطور اجتماعي واحد.** فنحن نرى من الوجهة التاريخية أن **الحدثين يتوافقان،** ونلاحظ من الوجهة الكونية بناء على ما أسلفنا من اعتبارات أن **الحدثين يرتبطان ارتباط الأثر بالسبب** في حركة التطور الاجتماعي . فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع مندمجة مع العلاقة الروحية في المجال الزمني" (6)

ويرى –رحمه الله تعالى – أنه كلما ضعفت العلاقة الروحية المصاحبة للعلاقة الاجتماعية في الواقع تزداد درجة الفراغ الاجتماعي بين أفراده في محيطه الاجتماعي .

وعلى عكس ذلك نجد أنه عندما تقوى العلاقة الدينية مع العلاقة الاجتماعية فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل وتصبح معهـا صورة المجتمع الذي ينعته الرسول بقولـه صلى الله عليه وسلم : " **المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا**".(7)

إلى أن يقول :"لكننا نعلم أنه للوصول إلى هذه الدرجة من الكمال ينبغي أن تتوافر في المجتمع شبكة علاقات اجتماعية قوية نامية.

كما نعلم مدى الصعوبة التي تحول دون الوصول إلى تلك الدرجة وهي المثل الأعلى الذي تستهدفه الشرائع التي تحاول بما لديها من وسائل إنسانية خالصة لتسد الفراغ الاجتماعي.

رؤية مالك بن نبي رحمه الله للبعث الحضاري للمسلمين :

إن مـا عمل من أجله مالك بن نبي -رحمه الله تعالى - على ترسيخه في الأذهان هو أن وراء كل نهضة حضارية فلسفة — أيديولوجية — تكون كالمحرك لانبعاثها أو كالروح لكيانها فهي التي تؤدي إلى إحداث التفاعل بين العناصر التي طـرحها في كتابه مشكلة الحضارة — **الإنسان — التراب— الوقت** — والأمة الإسلامية تملك هذه الفلسفة وهي " **العقيدة الإسلامية** " التي تصوغ الإنسان صياغة جديدة تجعله فعالا في محيطه منسجما مع مجتمعه، إيجابيا في سلوكه وهذا شـرط لاسـتمرار الانطلاقة الحضارية. ولا يوجد في تاريخ البشرية فلسفة أو أيديولوجـية أو عقـيدة أثارت الانبعاث الحضاري الذي يمثل **القوة والسرعة** اللذيـن أثارهمـا **الفلسـفة القرآنية** عقب **ربع قرن** من الزمن أظهر **القرآن الكـريم** حضـارة رائدة من **صحراء قاحلة وأمة أمية** سادت العالم المعروف آنـذاك وأسسـت النهضة العلمية الحديثة. وبفضل **الله عز وجل** فإن **الفلسفة القرآنـية** التي أثمرت تلك الحضارة ما تزال مكنونة في نصوص **القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة** صافية واضحة، ومن المؤكد جدا أن الأمة الإسلامية إذا

عـــادت إلى تلـسك المنابع ومزجت حياتها بهما فإنها تعود إلى الريادة الحضارية. فآخر هذه الأمة حتما يصلح بما صلح به أولها. لأن **الفلسفة القرآنية** تمزج بين **العـــلم والإيمان** وبين **العمل والعبادة**، وبين **المادة والروح** وبين **مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع**، وهذا المزج هو الذي يصنع الحضارة الراشدة. فمثلا **القرآن الكـــريم** يدعو إلى **التفكر والتأمل والنظر** في الموجودات والظواهر الطبيعية في معرض استدلاله وبرهنته على حقائق العقيدة، ويعتبر تلك الظواهر والموجودات آيـــات تـــدل على صدق ما أخبر به، فيقول القرآن الكريم :(**فلا أقسم بمواقع الـــنجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم**) ، سورة الواقعة آية 75،76، 77، ويقـــول : (**قـــل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيـــات والنذر عن قوم لا يؤمنون**) –سورة يونس آية 101، ويقول : (**وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون**)

سورة الذاريات آية—20-21 –

ويقـــول أيضـــا : (**إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والـــنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء مـــن ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**)

سورة البقرة آية– 164–

فهذا الأسلوب في الدعوة إلى النظر والتفكر يؤدي إلى نتيجتين هما :

1 – الوصول إلى حقائق علمية تنفع الإنسان في حياته كاكتشاف قوانين الطبيعة وأســـرارها فيستغلها لمصلحته ، وهذا ما يسميه القرآن بالتسخير وينبه إليه في

عدة آيات منها قوله عز وجل : (**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**) ، سورة الجاثية آية: 13.

بمعنى أن كل موجود مخبأ في الكون سواء أكان في الأرض أم في السماء فيه منافع للإنسان وهو موضوع بحث فعلى الإنسان استثماره لصالحه ، وبهذا التوجيه يفتح القرآن الكريم باب البحث العلمي على مصراعيه موجها الإنسان إلى الدراسة و الاكتشاف، معتبرا ذلك عبادة وتسبيحا لله خالق الأكوان ومنزل المنافع والنعم على الإنسان، ولا شك أن هذا العمل المتمثل في النظر والبحث والاكتشاف من أفضل العبادات والقربات إلى الله تعالى، فهذا هو الجانب المادي للبعث الحضاري للمسلمين .

2 - رسوخ الإيمان في القلوب ليزداد المؤمن إيمانا بتمسكه بعقيدته الإسلامية كالإيمان بالله عز وجل وربط العلاقة به وأخذ منهج الحياة من وحيه والشعور بالمسؤولية نحو السلوكات التي تصدر منه أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا جاه ولا سلطان وهذا هو الجانب الروحي للبعث الحضاري للمسلمين .

وعندما يعرف الإنسان حقيقته ووظيفته ومنهجه وغايته في الحياة فإنه يبني سلوكه دون تردد على ذلك الأساس فيتحرر من طبعه الحيواني الغريزي ويسمو إلى عالم الروح والفضيلة والأخلاق وبذلك يرشد الفرد والمجتمع، وتنمو ملكات الإبداع الفردي والجماعي وتقوى الروابط الخيرة بين أفراد المجتمع وفئاته، وتقل المساوئ والمعوقات. ويعم الرخاء المادي والمعنوي .ولا شك أن هذا الجانب الروحي للحضارة هو ما تفتقر إليه الحضارة الغربية الحالية التي توقفت عند الجانب المادي فحسب . مما جعلها تشقي الإنسان بدل إسعاده ،حيث إنها تبني

على الأثره، والأنانية، والرياء، والكبر، والإشباع الغريزي ، وهي بذلك تسرع الخطى نحو اندثارها. ولما تأكد مفكروها من مصيرها المحتوم راحوا يفتعلون صدام الحضارات لعلهم يؤجلون ساعة التلاشي بإضعاف الوريث المتوقع والمرتقب الذي هو **الإسلام العظيم قطعا**.

فبوادر النهضة الإسلامية قد بدت بعودة الوعي الإسلامية الصحيح حتى وإن عرقلت سيرها **الصراعات المذهبية والسياسية والعرقية بين المسلمين**.

وإذا أردنا التعجيل بانطلاقة حضارية إسلامية تعيد للأمة عزها وقوها وتألقها علينا بتعميق الوعي القرآني الكريم في أوساطنا ومؤسساتنا: في الأسرة والمدرسة والجامعة، وفي جميع ميادين الحياة المختلفة للمجتمع الإسلامي حتى يكون كل فرد يحمل فكر الوحي –القرآن الكريم والسنة النبوية في علاقته الروحية والاجتماعية في مجتمعه ، هذه العلاقة التي دعا إليها الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله تعالى – المشبعة بالتوجيه القرآني الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وصلى الله على محمد وآله وصحابته أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث:

* – المصحف الشريف برواية ورش لقراءة نافع الطبعة – الدار الشامية للمعارف – بخط الأستاذ طه عثمان –دمشق–

1– محاضرة رشيد بن عيسى –بالحي الجامعي جامعة الجزائر د، ت .

2– صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووي تحقيق فؤاد عبد الباقي الطبعة الدار العلمية –بيروت –المجلد الثامن – ج16 ص 114.

3– الأستاذ مالك بن نبي –ميلاد مجتمع الطبعة دار الفكر – طبعة ثانية – 1982 م ص12.

4– مالك بن نبي المرجع نفسه ص12.

5– الحديث سبق تخريجه في ص4 من هذا البحث.

6– مالك بن نبي المرجع نفسه ص17.

7– مالك بن نبي المرجع نفسه ص 18.

الشواهد القرآنية في مؤلفات مالك بن نبي
– قراءة نماذج في منهج تفسيرها التحليلي–

المرحوم الدكتور/ محمد البشير الهاشمي مغلي
جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة :

يتمثل البحث مبدئيا في محاولة تقصي ملامح منهجية المفكر الجزائري الكبير **أ.مالك بن نبي** في مجال التفسير التحليلي، وذلك بتتبعها من جملة الشواهد القرآنية، وربما الحديثية أيضا، التي كان يستخدمها على نحو متميز في مختلف السياقات التي كانت تبلغ في المواتاة والوجاهة النادرة حدا يجعلها بقدر ماهي واقعية تعتصر وحيا، وكأنها تتنزل الساعة على الواقعة أو تهبط في التو على القضية موضوع التحليل والدراسة.

فبعد القراءة العلمية التي تمكن من استطلاع الشواهد القرآنية والحديثية وحصرها في آثار المؤلف، يتيسر الشروع في عمل تصنيفي لمواضعها تحديدا، ولسياقاتها المختلفة تدقيقا.وتنجم عن هذه النهد الاستقرائي جملة أسئلة ابستمولوجية سنحاول لا محالة أن نجيب عليها في ثنايا هذا البحث وفق ما أرتسمناه من خطة الدراسة التحليلية لإنتاج هذا المفكر الكبير من منظور اهتماماتنا المذكورة.

ونحن نوردها في طرح أولي كمايلي وقد تتخللها تعليقات أو تحليلات ابتدائية ربما كانت غير معفاة من بعض أجوبة مبتدرة ودون ترتيب مقصود:

أولا : بخصوص الشواهد القرآنية :

1 – الآية الكريمة : متى يأتي بها المؤلف ؟
2 – لماذا يستشهد بها ؟
3 – كيف يوظفها ؟
4 – ماهو مرماه منها ؟

ثانيا : عن المؤلفات " البنابية ":

1 – متى تكثر شواهده ؟ ولماذا ؟

2 – ماهي المؤلفات التي تقل فيها الشواهد القرآنية أو تنعدم؟ ولماذا؟

ثالثا : في المنهج :

1 – ماهو منهجه في تحليلها ؟

2 – هل ينطلق من التفاسير التقليدية ؟

3 – كيف يسقط الآية على الحادثة أو الواقعة ؟

4 – أيأتي بها لاستخلاص قاعدة أو سنة أو قانون ؟

5 – أو لتعزيز رأي ذهب إليه ؟ أو لتأكيد معنى اتجه إليه ؟

6 – أو إبطال زعم تصدى له ؟

7 – أو لتقرير نتيجة علمية التفت إليها ؟

رابعا : وعليه، فهل الآية عنده :

1 – سند يتكئ إليه ؟

2 – أم أداة فعالة في يده؟ للتغيير والحركة والهدم والبناء ؟

3 – أم شاهد علمي ودليل قرآني للتأكيد أو النفي ؟ ووسيلة أدبية أو فنية ؟

4 – كيف يعالج الحدث لاستخدام الشواهد القرآنية على اختلاف السياقات ؟ كالسياق التاريخي والسياق الاجتماعي والسياق الحضاري الراهن ؟

خامسا : مناسبة الاستشهاد :

1 – ههنا نبحث ونقيس درجة الاستدلال بالشواهد ؟

2 – هل هي عرضية أو مناسبة ؟

3 – ما وجه المناسبة فيها ؟

سادسا : بخصوص الأحاديث الشريفة :

1 – حين يتعلق الأمر بالأحاديث

2 – ثم ينظر في شرح مالك بن نبي أو تعليقه على نحو ما توخيناه في منهج استخدامه للشواهد القرآنية .

3 – هل هي عارضة أم مقصودة؟

4 – هل يستخدمها لمعاضدة شاهد قرآني؟ أم على استقلال؟

5 – هل يستعملها بداهة بإملاء الحافظة أم يستخرجها بدافع الضرورة السياقية للتذكير بأصل في تراثنا الإسلامي أو سنة أو قانون سماوي في صياغة نبوية حين يسوقه حديث شريف إذا أعوزت الإشارة إليه بآية كريمة؟

وبهـــذا سيتضح أن مالك بن نبي يخرج عن الإطار التقليدي للتفسير فلا يخـــوض أو لا يلجأ دون ضرورة إلى العلوم الشرعية في التفسير، وإنما يستخدم علـــوم العصر في فهم التفسير الذي يمليه واقعه و تتيحه أدواته الآخذة في التطور المتسمر، فهو بهذا محقق لمقولة ابن مسعود : " القرآن يفسره الزمان ".

غايات الاستعمال أو أهداف توظيف الشواهد :

نماذج التحري :

01 – كتاب الظاهرة القرآنية وهي محاولة تنظيرية للقرآن الكريم .

والملاحـــظ أن الاتجاه العلمي عنده ليس معناه البديل عن الدين أو عن الاتجاه الفقهي مثلا، إنما المكمل للدين كما هو الاعتبار الإسلامي أي الموضوعي والمـــنهجي بعـــيدا عن الإيديولوجية الذاتية وإن كانت دينية أو مذهبية، وعن الأسطورة أو الخرافة أو الغرائبية أو التطرف.

إذن الاســـتنتاج الاستقرائي الأولي أنه لا يعطي تفسيرا دينيا ولا شرحا وعظـــيا ولا يجـــتر التفاسير الكلاسيكية في صيغة جديدة بل هو الطرح العلمي للواقـــع المـــائل الذي نجد في معالجته سنده في الوحي حين تسوقه آية كريمة أو حديث شريف.

والنتيجة : فهو يستقي ابتداء من أوعيته الفقهية بانتقائية علمية يملك سر انـــتهاجها، حيـــث يـــنطلق من التفاسير المختارة من معايير العقلانية والعلمية والواقعية ثم يتباقر فهمه فيتجاوز التفسير ولا يقف عنده، سيما أنه يحمل تاريخ زمـــان وأداوته المفاهيمية ودرجاته العلمية بل يعمد إلى الطرح الجديد في صياغة أدبـــية للب التفسير أو روحه ليتلاءم والفهم العصري ويكون مفتاحا للمسائل الراهنة.

فهـــو في ص 64 بعد أن يشرح بوجاهة أن المعجزتين اللتين اختارهما الله لموســـى (س) همـــا اليد والعصا، وأنهما لا تتصلان بتاريخ الدين الموسوي، لا بجوهره إذ ليس لليد أو العصا صلة بمعاني هذا الدين ولا بتشريعه. فهما لهذا مجرد توابع للدين، لا من صفاته الملازمة له (ص65).

ومع ملاحظة أن اليهود يفقدون لأسباب نفسية مترع التبليغ إلى أن يأتي محمد (ص) يحمل في نفسه مركب التبليغ والإعجاز الذي لا يلغيه شيء في التاريخ لأنه ليس من توابع الدين بل من جوهره، رغم أن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانات عالم اللغة في العصر العباسي.

والمستخلص في منهج التفسير في أيامنا أنه من الضروري أن نتناول الآية من حيث تركيبها النفسي الموضوعي أكثر مما نتناولها من ناحية العبارة فنطبق في دراسة مضمونها طرقا لتحليل الباطن... (ص 67).

وفي ص 102 يورد الآية ((.. **وإنا له لحافظون** ..)) مورد التنبيه العلمي وإيقاظ الوعي التاريخي، وليس لتبليغ قناعة يستدعيها الإيمان ولكنه يستعملها لتوجيه النظر إلى مدى توافق واقع التاريخ مع هذه الآية القرآنية في تقرير حدوث الحفظ في الصدور والسطور والوسائل الفنية المتاحة آنذاك ليفوز بامتياز الصحة دون الكتب الأخرى جميعا .

فكأن التحديد الكامل للنص القرآني على النبي نفسه يعد ظاهرة جدية بالملاحظة من وجه علم الاجتماع وعلم النفس بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي.

وفي ص109 آية شرح الصدر يوردها على ما قدمه المفسرون ليحتفظ برمزيتها في اجتثاث جذور الإثم من الطفل الذي تتنافس الأقدار في إعداده للشأن العظيم الذي ينتظره.

وفي ص116 حفريات التفسير : نلفي استجلاء المعنى النفسي للآية "الذي غابت أهميته التاريخية عن أ.درمنجهام مع أنه لم يرتب مطلقا في صحة القرآن التاريخية ". فهو لا يكتفي بالتقرير الإيماني الذي تعطيه الآية الكريمة للمؤمن، وإنما يوسع تفسيره أو كأنه يفتقه إلى مستجلى جديد يتعدى قناعة المؤمن السهلة أو التلقائية إلى بناء يقين آخر بوسائل علمية ومنطقية تستضيف غير المؤمن أو المتشكك أو حتى الخصم المجادل. وبذلك يصبح التفسير وفق هذا المنهج التحليلي هادفا يحمل رسالة ويرنو إلى غاية:

أولا: داخلية : أن يعلن عن حقائقه ويفصح عن بيانه أي أن يؤدي وظيفة الإيضاح والتبيين أساسا وفي العصر الذي يوجد فيه بوسائل فهمه

بـــالأخص وإلا وكـــان عالة على الإدراك العصري وسببا في تأخر دعوة الدين الحنيف.

ثانـــيا : خارجية : أن يساعد في نشر الدعوة موضوعيا وبناء مصداقية التبليغ بلغة العصر وثقافته.

في ص 130 يورد قوله تعالى :((**إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين**)) الآية تتيح دراسة تفسيرية بالتفصيل النفسي للحادثة التاريخية وهي الهجرة وذلك باســـتخدام الآيـــات القرآنية الواردة فيها كوثائق نفسية ثابتة هي أوثق مصادر ذلك العصر.

ص136 في إشـــارة إلى نهاية النبي (ص) الوشيكة التي يمكن أن يتنبأ بها أحـــد إلى أن يؤتـــى علم الغيب فإن التفسير وحده كفيل بالإنباء بحقيقة قرب الأجل : الآية ((إذا جاء نصر الله ...)).

و أ. مـــالك بن نبي إنما يهدف من ذكر الآية إلى تقرير حقيقة غيبية في دنو أجل الرسول(ص) بمفادات التفسير الصحيح دونما لجوء إلى عقل أو التفات إلى ضـــرب من الأقوال. وهاهنا يبلغ التفسير في ذاته مرتقاه لأن المعطاة العلوية الـــتي نزل بها الوحي تفسرها معطاة فوق عقلية يكاد شعاعها السماوي يضيء بحديث النبي (ص) أو سنته وسيرته ولو لم تمسسه نار الفكر ولهب التفكير.

وفي هذا النهج أكثر من دلالة أخلاقية للبحث والتحليل إذ يقرر إذعان العلم للحقائق الغيبية متى صحت فلا جدال في الحج إلى مجاهيليها بغير علم ولا كتاب منير وهذا الملمح جميل.

ص137 في وصـــف وقائع الوداع وتسجيل خبر السماء باختتام الوحي فيورد الألفاظ الترتيلية لتخليد الخاتمة دعما لسرد قصته التي كان يرويها بأسلوب اختزالي بليغ ينهل من نمير التفاسير دون أن يغرق فيها أو تلتهمه..

ص141 ((**قل هو نبأ عظيم** ...)) إذ يستخلص التفسير القرآني لعبارة " الوحـــي" وأنها على ما يبدو له من سياق الآيات تستهدف من معناه غايات جدلـــية كـــي تتـــيح للنبي (ص) أن يستخدمه كبرهان في جدال خصومه ثم يســـتقطب معـــنى آخـــر للوحي وهو كشف المغيب. مغيب محدد تماما يضم التفاصـــيل الماديـــة لمشـــهد روحي خالص. ويضم أيضا واقعا معينا هو " إلقاء الأقلام ".

ثم يعمـــد إلى مناقشة أحد كبار المفسيرين المعاصرين في تعريف الوحي وهـــو الشيخ محمد عبده في " رسالة التوحيد" ليصل في النهاية إلى هذه النتيجة تجعل الوحي بهذه الخصوصة وهي أنه يجيء " خارج أحوال الفرد النفسية بحث تكون مهمته الوحيدة أن يصوغ أساسا عقليا ليقينه واقشاعه الشخصي".
(ص143)

فهذا التصحيح بهذا التدقيق ضرورة علمية لا غنى عنها، تفحم الخصم في محاجاته وعناده في فهم قضية كأكبر القضايا ألا وهي قضية الوحي الأساسية.

بهـــذا التحقـــيق الموفق يأخذ التفسير مرتكزا علميا متينا ويعطي للمعنى صلابة اليقين ويزيد القناعات رسوخا ووثوقا.

في ص 182 الآيـــة 23 من البقرة: ((**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فآتوا بسورة من مثله ادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين**))
وهـــذا فـــيه إفحام لعبقرية عصر الوحي بتحدي المعاصرين بالمعارضة. ويلاحظ أ.مالك خصائص اللغة الجاهلية الوثنية المترحلة وهي تضطلع بفكرة عالمية إضافة إلى انفجار ثوري مباغت للغة العربية دون التطور التدريجي كالظاهرة القرآنية المباغتة حيث الانتقال من لهجة جاهلية إلى لغة منظمة فنيا.

2- نموذج آخر من خلال كتاب : المسلم في عالم الاقتصاد .

تنبيه : يدرس مالك بن نبي الإنسان المسلم الذي يؤمن بالإسلام دون أن يحظى بتطبـــيقه في المجتمعات المعاصرة التي تعيش فيها إذ لا تطبق فيها شريعة الله. فهو إذن يعـــيش بمـــبادئه وقيمه في مجتمعات غريبة عن دينه أو معطلة لأحكامه في المسالك الاجتماعية اليومية .

علاقة هذا المسلم " الغريب " بدنيا المال وعلم الاقتصاد الذين تحكمهما قوانين غير إسلامية يدرسها مالك بن نبي من حيث الفعالية ويخص قضاياها رغم افـــتقاد الفرد المسلم لوعي اقتصادي وتجربة أو خبرة في عالم اقتصاد غريب عليه بكل مفاهيمه وبنائه ومصالحه الأجنبية " فصار أميل لتقليد " الحاجات " منه إلى تقليد " الوسائل " لأنه فقد وعيه الحضاري أيضا.(ص7)

الكـــتاب يخلو من الشواهد القرآنية الهم إلا في ص 40 حيث ذكر الآية الكـــريمة (البقرة: 143) ((**وكذلك جعلناكم أمة وسطا...**)) المتعلقة بوسطية الأمـــة المســـلمة وشهادتها في إشارة إلى أن " توعية الإنسان المسلم في الميدان

الاقتصـــادي يجب ألا تجبره على وثنية جديدة بحيث يصير من عباد صنم جديد اسمه " الاقتصادية " أو حتى " الاقتصاد ".

والملاحظ هنا أن توظيفه للشاهد القرآني هنا، كان ذا دلالة أخلاقية و لم يقدمـــه مثلا بديلا للمفاهيم الغربية أو وسيلة عملية في دوائر الاقتصاد الجارية باســـتلهام الفقه الاقتصادي الإسلامي على شاكلة الحلول العملية التي تقترحها مدرســـة العلامة محمد باقر الصدر في كلتا الحالتين أي في مجتمع إسلامي يطبق الشـــريعة أو في مجتمع مسلمين لا تطبق عليهم فيه الشريعة. ولكل أطروحات وإمكانـــات وحلول مطابقة. ذلك أن مالك بن نبي يقتصر تحليله على تشخيص الأمراض الاقتصادية في سلوك الفرد المسلم وأساب التخلف الاقتصادي في سير الـــبلد أو المجتمع الذي يقطنه المسلمون. ويقترح منطقيا بسند التجربة والوعي الاقتصادي حلولا عقلية تحمل أخلاقيات الإسلام وبعض الأحكام المتعلقة بفقه الحـــلال والحرام في باب المعامات المالية والتجارية دون التوغل في أعماق الفقه الاقتصـــادي أو القدرة على الاجتهاد في مجاله.وهو الأمر الذي مهر فيه العلامة الصـــدر، في القـــديم والحديـــث وجمـــع بين رؤية ديكارتية لمالك بن نبي في المشخصـــات الفردية والاجتماعية والوصف الاقتصادي وبين ضرورات اجتهاد فقهي معاصر للاقتصاد الإسلامي تقاسمت أطروحاته أوضاع مختلفة للمجتمعات الإســـلامية وللمسلمين تحت نير أنظمة جائرة وأغلال مخلفات استعمار أجنبي وحشي نهاب.

ص 84 يـــورد الآيـــة : ((**إن الله لا يغـــير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**)) الرعد : 13 التي تقرر أن الإدارة الحضارية تصنع الإمكان الحضاري تحفـــيزا لإقلاع العالم الإسلامي في المجال الاقتصادي النظري وتحرير اختياره من إســـار النظريتين الرأسمالية والشيوعية وما تورطنا فيه تلافيا للانحرافات الإباحية التي وقعت فيها الأولى والمادية الصماء التي سلبت في الثانية الإنسان ما يميزه عن الآلات والأشياء.

وحين الحديث عن موضوع الأساس الأخلاقي لعمليتي الإنتاج والتوزيع مـــن أجـــل تقرير قانونية اتباع المادة لأيسر السبل فالماء لا يجري من أسفل إلى أعلى إلا إذا سلطنا عليه ضغطا. والإنسان مجبول أيضا على اتباع المنحدر إذا لم تكن وراءه قوة دافعة إلى أعلى.

... وإذا ما لجأ مفكرنا إلى التفسير فلكي يفهم الظاهرة الاقتصادية في نطاقها التاريخي ويقارنها اجتماعيا (أي سوسيولوجيا) في وضعها الراهن. والمسرد القرآني يوفر له أوثق الوثائق لمختلف الوقائع. ويبيت الغرض المتوخى علميا والهدف حضاريا.

أما لجوء الفقيه الصدر إلى التفسير فلكي يستمد منه الموقف الفقهي والحكم الشرعي بغرض التطبيق وغاية الامتثال. وعليه يمكن أن نخلص إلى أن المرمى الأول ثقافي والمرمى الثاني تعبدي.

ص104 ((**كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه...**)) المائدة 79 استغلال المساق القرآني هنا تلويحي إشاري بحق لا يتوغل في معاني الآية ولا في شرحها إلا أن تكون سندا أخلاقيا بتقرير سماوي لوضع تاريخي فاسد استحق لائمة الوحي على تلابس بالمنكرات وتبادل بالمفاحشات دون رادع من ضمير أو وازع من مجتمع في مقارنة بين أخلاق الدول المتقدمة اقتصاديا والأخرى المتخلفة، وأنه لا معدي لهذه أو تلك في سبيل تنظيم اقتصادها تنظيما جديدا من وصل عالم مصالحها المادية بعالم مقدساتها. وهو كما لا نفتأ نكرره لا يخرج هذا التحليل عن دائرة الأخلاقيات دون الفقهيات وعالم الأفكار دون عالم الأحكام ربما لمقاومة التحديات التي تواجه المجتمعات الإسلامية في المجال الاقتصادي ومعضلاته وهو مشدود إلى تخلفها الحضاري وإلى تركات الاستعمار وغياب شريعتها السمحة.

وأما ندرة اللجوء إلى التفسير فيمكن إرجاعها إلى طبيعة المنظور التحليلي الذي يغلب عليه المنهج السوسيولوجي أكثر من الاجتهاد الفقهي وهموم الإقلاع الاجتماعي الكلي ومواكبة العصر أكثر من همممات الداعية الفقيه الذي ينشد قبل ذلك وبعده تشييد مجتمع الشريعة ودولة الخلافة أو الإمامة الكبرى في غاية دعووية واضحة.

3- **كتاب : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين في ص 12 : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا ..))** البقرة : 143.

استشهاد افتتاحي لتحديد دور المسلم وفق الاختيار الإلهي الذي تسوقه الآية الكريمة والمتمثل في دور الشاهد فلا أنبل منه ولا أشرف عبر التاريخ لكنه لا يتناول بالشرح والتعليق وليس فوق ذكر المنصوص القرآني من حديث.

في ص 25: ((**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**)).

الصـــف : 09 في معـــرض الحديـــث عن الإفلاس الذي ينتاب التاريخ ويقضي بانهيار الحضارة والمجتمعات ليبدأ التاريخ من جديد يشير إلى بعثة الرسل لاســـتهلال طـــريق الـــبداية الجديدة كقطب جديد يتجه إليه مجرى التاريخ. والملاحـــظ عـــدم الالـــتفات إلى أي تفسير وإنما يتصرف المفكر الإسلامي في اســـتخدام الآيـــة استخداما شكليا عابرا لتقوية السياق وربطه بالذكر الحكيم لاغير.

إلا أنـــه في ص 26 يعود إلى الآية نفسها فيستخرج منها مفهوم التحدي الـــتاريخي الكبير لإمبراطوريتي الروم وفاس كأبرز الألوان على خريطة الأديان القديمـــة. ولازال هذا التحدي قائما في أيامنا هذه لإعلاء اللون الإسلامي على الخـــريطة الإيديولوجية في عالم بقية القرن العشرين رغم منافسة اللون الشيوعي الأحمـــر الذي كان يركب قطار التكنولوجية المتنامية. بيد أن المؤلف إذ يكتنفه شعور التفاؤل أمام تصاعد المد الإسلامي عدديا أو إحصائيا يرى في معالم أنوار الآيـــة الكريمة كأنما الله يهيئ القاعدة التاريخية الاجتماعية لتحقيق (مضامينها) ص31.

ويعـــود تارة أخرى إلى نفس الآية ص33 في سياق الحديث عن كيفية تصـــور دور المســـلم وهـــو يتهيأ لتبني المبررات الجديدة لوجوده الدعووي أو التبليغي وملء الفراغ الذي خيم على العالم طوال القرنين الأخيرين فأتلفا قداسة الوجود.

ص52: ((**إن الله لا يغـــيروا مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...**))

الـــرعد : 13 ذكـــر الآية هنا يتعدى منصوص الوحي فيها على معنى التبرك بها كآية، وإنما استخدمت " باعتبارها علما... نعلم مقدارها من الصحة العلمية لا يســـتطيع مسلم أو غير مسلم أن يغير ما حوله إن لم يغير أولا ما بنفسه. فهذه حقيقة علمية يجب أن نتصورها كقانون إنساني وضعها الله عز وجل في القرآن كسنة من سنن الله التي تسير عليها حياة البشر".

و في هذا الاستعمال تحفيز لتحقيق هذه الرسالة من أجل إنقاذ المسلم من كساده وإنقاذ الإنسان المتحضر من استهتاره.

والـــذي يتراءى بعد قراءة المحاضرين اللتين اشتمل عليهما هذا الكتيب، الإقلال من استخدام الآيات وانعدام اللجوء إلى التفاسير فيما استشهد به.

وكـــأن الغرض ليس مجافاة هذه المجلدات أو الأسفار المجلية بقدر ما هو يعـــني إدارة الـــتخلص من أدبياتها وإطارها التاريخي الذي كتبت فيه والانتقال مباشـــرة إلى توظـــيفها عمليا كأدوات فهم وتغيير للواقع ما أمكن ذلك وربما كانت وسائل تبصير للمشكلات المطروحة في الآن .

فهـــل هذا " التقميش " كما يقال في مجال البحث العلمي بهذه الطريقة الـــبارقة الخاطفة للاستخلاص المذلول فنيا على أمل استعماله الفوري في علاج القضـــايا المستجدة والتي تزدحم داخل المجتمع الإسلامي المواز والذي يعاني من أزمـــتين أساسيتين أزمته الخاصة المتمثلة في التخلف وأزمة الحضارة الراهنة التي فقدت مبررات وجودها وعليه أن ينهض بكلتا الرسالتين لحل الأزمتين بما يملكه من دور الإنفاذ الإلهي للعالمين قديما وحديثا.

وصفوة القول :

يلـــوح مـــن خـــلال الـــنماذج المتصفحة وذات العناوين الهامة وذات الاهتمامات الحضارية والثقافية أن الشواهد القرآنية فيها ليست منطلقا تفسيريا تشـــرحه الوقـــائع والأحداث ولا هي مهواة أدبية و بلاغية تخوض في ضورب الأساليب والإعجاز، وإنما يلجأ إليها عند الاقتضاء " الفني " لتعزيز مصداقية سنة مـــن الســـنن أو تأكيد قناعة إيمانية أو تسطير بشارة إلهية أو نبوة غيبية. وعلى النقـــيض للمفسرين في التناول تستعمل الآية أو الحديث عنده أداة لإضاءة واقع أو تحليل ظاهرة. وعليه فالآية القرآنية وكذلك الحديث الشريف لا يسوقهما قلم مالك بن نبي مساقا أدبيا ولا سرديا ولا هو يعرض لهما من أجل التفسير البياني والشـــرح الإيضـــاحي لـــرفع الالتباس أو دفع الغموض فتلك مهام المفسرين التقليديين تهديدا. وإنما وإن اتكأ إليهم عند الضرورة اللغوية ربما أحيانا أو تقصيا للأســـباب النزول مثلا دون مكابرة في اعتماد الأهم الأصوب، فإنه كمهندس يعمـــد إلى اعتـــبار الآيـــات كأدوات عمل ضرورية لتكميل أو تعزيز تحليلاته المخـــبرية وتفكـــيره العلمي الدؤوب في شتى قضايا الحضارة والمجتمع الإسلامي الراهن الذي تكبله المعطيات الداخلية العائقة كالتخلف والاستعمار وأمراض ما

بعـــد الحضارة والتحديات المعاصرة لحضارة متآكلة يتصاعد توحشها وإفلاسها ويتفاقم تهديدها بخراب العالم.

والمسلم مع ذلك بيده الحل وحبل النجاة الذي تمنحه له السماء مجددا إلى يوم القيامة، لكن ليس دون وعي وشروط واعتقاد صحيح فعال.

فالتفســـير عند مالك بن نبي، ذو غاية براغماتية عملية وليس البتة ترفا ذهنـــيا أو ثقافـــيا أو علمـــيا لأن ذلك موقع في اللاحراك الاجتماعي بالتعبير السوســـيولوجي، وبـــتقوقعه في دائرة النظري أو المحيط الفلسفي فإنه يقضي لا ريـــب بالجمود و " الستاتيكا " في المجتمع على حين أن القرآن الكريم يوجب التغيير البناء للواقع...

لقـــد كان مالك بن نبي مؤسس بمنهجه التحليلي والعلمي لذهنية قرآنية معاصـــرة لا تضحي بالحقائق العلمية في مقابل المعطيات القرآنية، ولا هي تتبنى مطلقـــات القرآن على " علاتها "، في مواجهة القوانين العلمية التي باتت كأنها ثابتة. وفي الحالتين ينجح بمهارة نادرة في التدليل على انعدام التعارض بين آيات الوحي ودلائل العلم. وينفي الصراع المفتعل اللهم إلا إذا نشأ عن الجهل أو سوء الفهم أو تفسير خاطئ بين حقائق الدين القيم ومقررات العلم التجريبي الرصين.

د/ محمد البشير الهاشمي مغلي.

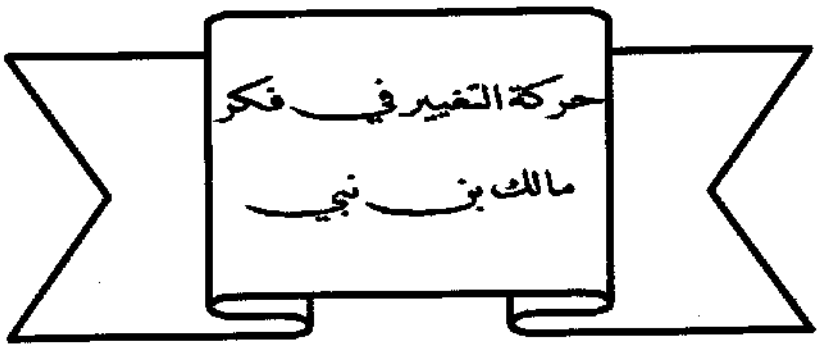
حركة التغيير في فكر
مالك بن نبي

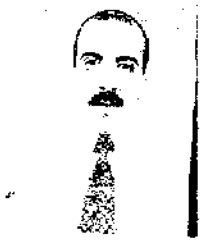

مسيرة التغييرمن الثورة إلى الاستقلال نظرة نقدية من منظور مالك بن نبي

الدكتور/ كمال لدرع
جامعة الأمير عبد القادر

المعـــروف عن المفكر الجزائري مالك بن نبي رحمه الله أنه كاتب يتميز بأسلوب علمي، وتحليل دقيق، وقد اعتنى في كتبه العديدة بفكرة جوهرية وهي إبـــراز مشكلة العالم المتخلف، واقتراح الحلول والآليات لنهوضه والتخلص من أزمته.

وقـــد تعـــرض بن نبي في كتبه إلى التحدي الكبير الذي واجه العرب والمســـلمين عـــلى وجه الخصوص، وهزمهم بعنف عند مطلع هذا القرن وهو الاســـتعمار، ممـــا جعل الشعوب المستعمرة، كرد فعل مباشر، تقدم تضحيات جساما عبر حركاتها التحررية لنيل حريتها واستقلالها، وبعد رحيل الاستعمار فـــإن هـــذه الشـــعوب بذلـــت جهودا كبيرة في سبيل التغيير والبناء، إلا أن انعكاســـات الظاهرة الاستعمارية وتأثيراتها السلبية بقيت مستمرة على أوضاع هـــذه الأمـــة اقتصـــاديا وثقافيا وسياسيا، وبقيت هذه الدول المستقلة، ومنها الجزائر، تعاني من عدة عقبات وتحديات ومشاكل، فلماذا ؟

إن مـــالك بـــن نـــبي يقوم بمراجعة نقدية لمسيرة التغيير من الثورة إلى الاستقلال، ويقترح الحلول التي في نظره تمكن الأمة من تجاوز عجزها وأزمتها.

تحديد مفهوم الثورة :

إن أول ما يقوم به بن نبي في هذه المراجعة هو تحديد معنى الثورة ويبين أن ثـــورة أي شـــعب لا تســـتورد، ولا يتعلمها من كتاب، ولا تنشأ بمجرد اجـــتماع حزبي، إن الثورة عند مالك **"لا ترتجل، إنها اطراد طويل يحتوي ما قبل الثورة، والثورة نفسها، وما بعدها، والمراحل الثلاث هذه لا تجتمع فيه**

بمجـــرد إضافة زمنية، بل تمثل فيه نموا عضويا، وتطورا تاريخيا، وإذا حدث أي خلـــل في هـــذا النمو، وفي هذا التطور فقد تكون النتيجة زهيدة تخيب الآمال" [1].

فالـــثورة قد تبدأ بداية سليمة، وتسير نحو الإصلاح والتغيير، واقتلاع جذور الاستعمار ورواسبه، لكن المستعمر إذا استشعر خطر العمل الثوري فإنه يعمـــل على مواجهة الثورة بقوة السلاح، وإذا عجز فإنه يبحث عن عملاء له ســـواء مـــن أبناء الشعب، أو من الذين تخرجوا من مدارسه الفكرية والثقافية ليوجه عملهم إلى إفشال الثورة من الداخل، أو تشويه أعمال الثورة ومنجزاتها، وهو ما عانت منه ثورة الجزائر الكبرى.

وهـــذا يدل بشكل واضح على أن أي ثورة عندما تقوم تنشأ في وجهها مـــا يســـميها بن نبي **"ما ضد الثورة"** [2] وهو ما دفع الثورة الجزائرية إلى القيام بعمـــل ثوري مزدوج هو: مواجهة المضادات الداخلية، والمضادات الخارجية، لأن العمـــل الداخـــلي المضاد للثورة قد يكون أخطر من قوة سلاح المستعمر نفســـه، خاصـــة إذا كـــان هذا العمل المضاد من أبناء الشعب الذين اشترى الاستعمار ضمائرهم، وإذا لم تعمل الثورة من أجل القضاء عليهم، فإنهم سوف يكونون كالسوس الذي ينخر جسم المجتمع.

وخطـــر هـــؤلاء عانى منه مجتمعنا بشدة في أثناء الثورة، وعند تأسيس الدولـــة بعد الاستقلال، وهو ما أشار إليه مالك بقوله: **" إن كل ثورة ملزمة بـــأن تحمـــي نفسها من سائر المحاولات التخريبية التي يكون فيها أصحابها سلطة جانبية في وطن ثوري يؤثرون فيه حتى لحساب الخارج، بما في أيديهم من وسائل السلطة، و بعبارة أخرى، فإذا كانت الثورة في حاجة إلى أخلاقية لا تتـــنازل عن شيء، فمن واجبها أيضا أن تمتع بحاسة نقدية لا يفوتها شيء حـــتى لا تؤخذ على غرة في أي لحظة، وفي أي قطاع من أجهزة الدولة"** [3]..

وهـــذا يدل على أن الثورة ليست شيئا مقدسا لا يخضع للمراجعة والنقد، بل هي عمل بشري فيه الصواب والخطأ.

---

[1] – مالك بن نبي: **بين الرشاد والتيه**، دار الفكر، الجزائر، ط 2، سنة 1408هـ/1988م، ص:14.

[2] – بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص:16.

[3] – بن نبي، المرجع نفسه، ص:27و28.

وينبه ابن نبي أيضا إلى أن الثورة لا تنتهي بإخراج الجيوش، والانتصار المسلح على المستعمر، بل الثورة عملية مستمرة باستمرار العمل البنائي والتغييري، مع ضرورة المراجعة الدائمة لخطواتها ومسيرتها، وتقبل النقد البناء الصريح الشجاع حتى تستطيع الثورة في كل محطاتها التاريخية أن تقوم نفسها بنفسها، وأن تحافظ على قوتها، وتحقق بذلك أهدافها الاستراتيجية، لأن الصراع الفكري الذي يمارسه الاستعمار، في شكله القديم و الحديث على بلد مستعمر أو متخلف، هو باستخدام عملائه، بجعلهم يتربصون بالثورة في مرحلة انطلاقها، وفي مرحلة انتصارها، وفي تحقيقها لمنجزاتها بعد الاستقلال، بل يعمل -إن فشل في ذلك- على تقزيم انتصاراتها وإنجازاتها، لذلك وجب أن يكون العمل الثوري التغييري ذا نفس طويل لا ينتهي بالحصول على الاستقلال.

تصفية الاستعمار من الفكر والنفس :

إن الاستعمار أخطر شيء ابتلي به الشعب الجزائري، والعالم العربي ككل، حيث شل الطاقات وخرب العقول، واستنزف الثروات، لكن لم تكن الظاهرة الاستعمارية جزافا أو صدفة، بل كانت نتيجة طبيعية للانحطاط الحضاري الذي عاشته الأمة، فقدت بذلك كل المقومات الذاتية، وهو ما اصطلح بن نبي على تسميته بـ**"القابلية الاستعمارية"** حيث يقول في ذلك: " **فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحوط الفرد تدل على قابليته للاستعمار، وفي هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي استعمارا، قدرا محتوما**"[1].

ليس معنى هذا أن بن نبي **يعطي مبررا** للاستعمار، وإنما ينبه على أن الاستعمار كالمرض الذي يصيب جسما فقد مناعته الذاتية، فلو كانت الأمة تتمتع بمناعة حضارية وثقافية لما تمكن المستعمر منها، حتى وإن احتلها عسكريا فسرعان ما تستعيد قوتها، كما حدث ذلك للخلافة العباسية بعد اجتياح التتار للعالم الإسلامي، وكما حدث أيضا لألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، حيث استعادتا قوتهما بعد الحرب مباشرة.

إن هزيمتنا أمام الاستعمار لم تكن فقط هزيمة سياسية أو عسكرية فحسب، بل كانت في عمقها هزيمة حضارية أمام القيم الغربية، فكان من

---

[1] مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص:85.

اللازم على الشعب الجزائري، وهو يواجه معركة حضارية، أن يقوم ليس فقط بتحرير التراب الوطني من السيطرة الخارجية، بل عليه أيضا أن يعمل على تصفية الاستعمار من العقول والنفوس[1] التي عشعش فيها الاستعمار ما يزيد عن قرن من الزمن، فليس من السهل أن تمحو آثاره بمجرد طرده من الأرض، لذلك يقول مالك منبها إلى أهمية هذه العملية: " **أمام ضرورة ملحة، ألا وهي تصفية الاستعمار في العقول قبل كل شيء، فتصفية الاستعمار من العقول تتطلب أشياء كثيرة يتضمنها مفهوم الثقافة، ومفهوم الحضارة، فهي لا تتحقق بمجرد انسحاب جيوش الاستعمار، ومجرد إعلان الاستقلال، وتحرير دستور كما هو الأمر بالنسبة للتراب الوطني**"[2].

فهدف الثورة ليس فقط إخراج الجيوش من الأرض بقوة السلاح، بل يجب القيام بعمل أعمق هو نسف كل مخلفات الاستعمار، وبناء علاقات اجتماعية متينة، وثقافة جديدة، وقد تبين من خلال التجارب الحديثة أن الاستعمار الثقافي والاقتصادي لا يقل خطورة عن الاستعمار المسلح، وهذا ما يفسر أن الكثير من الدول المستقلة عانت مشاكل متعددة بعد استقلالها.

كان الواجب إذن بعد الاستقلال تركيز الجهد على نزع الاستعمار من النفوس، وتطهيره من الفكر قبل نزعه من النصوص القانونية، وشتمه بالخطب السياسية، وذلك بصياغة شخصية وطنية تتمتع بحصانة ثقافية ذاتية تواجه بها عقدة الاستعلاء الاستعماري، لأن مركب النقص لا يزال يتحكم في نفسية الشعوب المتخلفة في تعاملها مع الدول الكبرى.

وإذا كان من رسالة توجه في هذا الصدد أن يقال باختصار: إن دماء الشهداء التي أريقت دفاعا عن كرامة هذا البلد وحريته، لتدل بحق على علو همة هذا الشعب، فكان من الواجب أن يكون عمل الأحياء بعد الاستقلال هو مواصلة رسالة الشهداء لاستكمال البناء والمحافظة على الوطن من النهب والقرصنة السياسية.

---

[1] – فلا يكفي فقط محاربة الاستعمار، بل لابد أيضا من التخلص من أسباب الاستعمار، وبخاصة القابلية للاستعمار، وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "أنه **لكي نتحرر من " أثر " هو الاستعمار، يجب أن نتحرر أولا من " سببه " وهو القابلية للاستعمار**".(بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، ص:87.

[2] – بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص:33.

الاستقلال و إشكالية المنهج :

إن الاستقلال أعظم إنجاز حققه الشعب الجزائري، وهو ما يدفعه إلى مزيد من العمل الجاد المنظم للسير نحو التطور والتحضر وفق منهج سليم، لكن هل كان المنهج الذي اتبعته البلاد آنذاك نابعا من مبادئ الثورة وعمق أصالة الشعب؟

إن الواقع الذي عاشته البلاد بعد الاستقلال يحكم بنفسه على فشل هذا المنهج الذي لم يكن في الحقيقة إلا نصوصا استوردت من هنا وهناك.

فمالك يقرر أن المنهج الذي كان يجب أن يطبق بعد الاستقلال لتنمية المجتمع وتجاوز مخلفات الاستعمار هو الذي يكون نابعا من أصالته ومبادئ ثورته، ومراعيا لظروفه النفسية والاجتماعية، ومن الخطأ أن نستورد حلا خارجيا لعلاج مشاكلنا الخاصة بنا، لأن لكل مجتمع معادلته الاجتماعية.

فالاستقلال كما فهمه بن نبي ليس فقط بإنشاء دستور للبلاد، أو بتحديد يوم يكون عيدا للاستقلال، إن الاستقلال أبعد من ذلك، إنه سير نحو التحضر والدخول إلى التاريخ من جديد، وفي هذا الصدد يقول: " **إن المخاطرة أن نقتبس حلا أمريكا أو حلا ماركسيا كيما نطبقه على أي مشكلة تواجهنا في العالم العربي و الإسلامي، لأننا هنا أمام مجتمعات تختلف أعمارها، أو تختلف اتجاهاتها و أهدافها**"[1].

فعلاج مشكلات المجتمع لا تستورد حلولها جملة و تفصيلا من بلد خارجي ولو كان متطورا، وهو ما يفسر اضطراب مرحلة البناء والتشييد بعد الاستقلال في مختلف البلدان العربية، والإسلامية، وكنموذج على ذلك فشل الإصلاح الاقتصادي في أندونيسيا رغم اعتمادها على التجربة الألمانية الناجحة، لأن البلدين يختلفان من حيث الظروف النفسية والاجتماعية، ويمران بعمرين مختلفين.

فالوصول إلى الحلول يكون من خلال فهم أرضية الواقع ودراسة خصوصيات التركيبة الاجتماعية والثقافية للمجتمع، ومراعاة إمكاناته الذاتية، وهو ما يشير إليه بقوله: "**لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا**

---

[1] - مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة**، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص:37.

مكـــان أمـــته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواتـــه مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولا من الشـــرق أو الغـــرب فإن في ذلك تضييعا للجهد، ومضاعفة للداء، إذ كل تقلـــيد في هـــذا المـــيدان هـــو انتحار"[1]، فلا بد من مراعاة ظروف المجتمع وخصائصـــه الذاتـــية الـــتي تختلف عن خصائص المجتمعات الغربية التي افتتن بمـــناهجها العـــالم الإســـلامي، وفي ذلك يقول:" **وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامـــل زمنية ونفسية، ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها عمليات الـــتطور الاجـــتماعي، في حدود الدورة التي ندرسها، فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطـــاق الـــدورة الإسلامية"**[2]. وهذا ما يفسر فشل التجربة الإندونيسية التي طبقـــت الـــتجربة الألمانية في مجال الإصلاح الاقتصادي الذي صممها الخبير الألماني شاخت، حيث نجحت في ألمانيا، وأخفقت في إندونيسيا[3]، لأن البلدين يختلفان من حيث الشروط النفسية والاجتماعية.[4]

ومـــن الخطـــأ أن يفهـــم من هذا أننا لا نستفيد من العلوم والمنجزات الإنسانية المتعددة، فهي قاسم مشترك بين الأمم والشعوب.

ضرورة النقد والمراجعة:

إن الـــثورة عمـــل بشـــري وإن التغيير عمل بشري وكل منهما يخضع للمراجعة والنقد والتعديل.

وقـــوة المجتمع وضمان استمرار مؤسساته مرهون بمدى قيامه بهذا العمل باستمرار، لذا كان كل عمل يقوم به مجتمع ما يسير نحو الإصلاح والتغيير، أو يقوم بعمل ثوري كثورة الجزائر الكبرى، يجب أن يخضع للمراجعة والنقد، لأن الأعمال عموما لا تسلم من الأخطاء والنقائص التي يفرضها كل عمل مخلص جاد.

---

[1] – مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، ط سنة 1979م، ص:47،48.

[2] – بن نبي، المرجع نفسه، ص:47،48.

[3] – بن نبي، تأملات، ، دار الفكر، ط5 سنة 1412هـ/1991م، ص:57.

[4] – هـــذا ما يفسر إخفاق الكثير من التجارب المستوردة من العالم الغربي في العالم العربي، حيث لم تراع خصوصيات المجتمعات العربية.

لقد بات من الضروري التخلص من عقدة الرفض لكل نصيحة أو تصحيح بدعوى المحافظة على مبادئ الثورة.

فالنقد ليس عيبا، والمراجعة ليست جرما، وإنما العيب والجرم أن يتكرر الخطأ، ويتحمل المجتمع وحده تبعاته.

فالذين يرفضون النقد أو التصحيح، كما لاحظنا ذلك في سنوات ما بعد الاستقلال، إنما يأبون ذلك بدافع التكبر والاستعلاء، أو بحجة المحافظة على عهد الشهداء، وحماية منجزات الثورة، وفي واقع الأمر أن رفضهم هذا هو نوع من الجهالة التي استفاد منها الاستعمار، وعملاؤه الذين يستغلون هذه الثغرات لإثارة الشبهات، وعرقلة مسيرة البناء، فيجب كما يقول مالك بن نبي: "**أن نتخلص من عقدة الرفض التي طالما سدت الطريق أثناء الثورة على كل محاولة إصلاح بدعوى أن كل نقد سيكون في صالح الاستعمار، بينما أرى بكل وضوح اليوم أن الاستعمار هو وحده الذي استفاد من هذا الرفض**"[1].

ثم ينبه بن نبي على أن العمل الذي يخضع للمراجعة في كل مرحلة من مراحله يجب أن يكون مخططا له على أسس علمية سليمة، حيث يقول: "**فالتخطيط مظهر من مظاهر تعجيل خطا التاريخ في القرن العشرين**"[2]. ثم ينبه إلى أن التخطيط حتى ينجح لا بد أن يراعي الظروف النفسية والاجتماعية لكل بلد حتى يحقق شروط نجاح التنمية التي يجب أن تكون نابعة من إمكانيات المجتمع ذاته، وفي ذلك يقول:" **فأي مشروع نفكر فيه بأفكار الآخرين، ونحاول إنجازه بوسائل غيرهم معرض للفشل لا محالة. والموضوع هنا في منتهى الوضوح بالنسبة لتحديد الهدف: إن هدفنا خلق شروط الإقلاع وهذه هي مشكلة التنمية في جوهرها**"[3].

---

[1] - بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص:41.

[2] – بن نبي، المرجع نفسه، ص:170.

[3] - بن نبي، المرجع نفسه،ص:172.

أيهما أسبق – القيام بالواجب أم المطالبة بالحقوق؟

لايزال الشعب الجزائري يفتخر بثورته المجيدة ومن حقه ذلك، فهي أعظم إنجاز تحقق بفضله الاستقلال الوطني، لكن هل بنيل الشعب لحريته توقف عمله ليبدأ بالمطالبة بالحقوق والامتيازات؟

في الحقيقة إن عمل الشعب لم ينته بإخراج الجيوش والحصول على الاستقلال، فهناك معارك أخرى تستدعي ثورة من نوع آخر، وهي ثورة البناء و التشييد، فإذا كان وضع السلاح فعليه أن يحمل القلم، ويقف خلف الآلة، ويسوق الجرار لينطلق بمجتمعه نحو الازدهار.

إن بلدا كالجزائر الذي عاش تحت سيطرة الاستعمار عقودا من الزمن،وخرج منهارا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا،ما كان ينبغي له أن تنتهي ثورته بنيله الاستقلال ، بل كان الواجب الوطني بعد انتهاء معركة السلاح أن يدفع أبناءه إلى أن يجعلوا من أرضهم ورشة كبيرة من العمل يتحول كل فرد فيها إلى عامل يستغل جهده ووقته وتفكيره لخدمة مجتمعه، وبهذا المنطق العملي وحده نكون كما يقول بن نبي:" **ينبغي ألا يكون مجرد إعلان للسيادة الوطنية، إعلانا مسجلا في السطور الأولى من الدستور، بل ينبغي أن يكون أداة ضرورية لتنمية هذه السيادة في كل أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية. فإعلان السيادة حاصل منذ اللحظة الأولى؛ قد كتبتها الدماء الزكية التي أراقها الشهداء على مذبح الوطن. أما أداة التنمية فإنها تتطلب أكثر من ذلك... إنها تتطلب عرق الأحياء في عملهم المشترك، إذ هو يتكفل بها لمواصلة الكفاح من مقتضيات التحرير إلى متطلبات البناء.... إن الدولة تصنع نفسها بما تنجز من أعمال**"[1].. فالدولة تصنع نفسها، وتبني مجتمعها بما تنجزه من أعمال بفضل أبنائها،وليس بكثرة الخطب والاجتماعات. فالحصول على الاستقلال ليس معناه نيل شرعية المطالبة بالحقوق والامتيازات ،وإنما نيل الحقوق هو ثمرة القيام بالواجبات. فالقيام بالواجب هو ما نقوم به أولا، وعن طريقه ينال كل فرد في المجتمع حقوقه المشروعة..بمعنى أن قيام كل فرد بواجبه هو ضمان الحق للآخرين لأن" **السياسة الحقيقية** – كما يقول هي – **التي**

---

[1] – بن نبي، المرجع نفسه، ص:40.

تغـــير وجه الأشياء ووضع الشعب،ليس في المطالبة بحق، ولكنها في القيام بالواجـــب"[1]. فالحقوق لا تنال بالمناقشات والاجتماعات وإصدار القرارات، ولا تنال بالكسل والإهمال،فمثل هذه المطالبة تغري أصحاب النفوس الضعيفة، وتلهيهم عن أعمالهم وواجباتهم، وتولد بينهم الصراعات، إن نيل كل منا حقه مرهون بمدى قيام كل واحد بواجبه.

العمل طريق النجاح :

قـــد يتساءل البعض :ما هو الطريق إلى النجاح في بناء المجتمع وتطويره؟ إن بـــن نبي يوضح أن كل عمل نافع ينجز في المجال الاقتصادي أو الثقافي أو الاجـــتماعي أو الأخلاقـــي، أو في أي مجال آخر بمبادرة فردية أو جماعية، هو خطـــوة نحـــو الإصلاح والتغيير. وهذا يدل على إدراكه العميق لقيمة العمل، فكل عمل له هدف إيجابي يعود بالنفع على المجتمع يستحق التشجيع والتقدير، فـــيقول موضـــحا :"**بإعطـــاء ثلاثة حروف من الأبجدية عمل ،وتقبل هذه الحروف عمل، وإزالة أذى عن الطريق عمل، وإسداء نصح عن النظافة أو الجمـــال دون أن يغضـــب حـــين تنصحه عمل، وغرس شجرة هنا عمل، واســـتغلال أوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل**"[2]، بمعنى أن كل عمل نـــافع ولو كان بسيطا يقوم به فرد ما فهو خطوة نحو التغيير العام ومساهمة في طـــريق البناء الحضاري للأمة، ومن ثمة تغيير وجه التاريخ. فالتاريخ عند مالك ليس مجموعة من الكتب تروي أحداث بلد ما، إنما هو كما يقول :"**كتل من النشـــاط الإيجـــابي والمادي من الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه، وهذه الميزانية من صنوف النشاط الإيجابي هي في الحقيقة ميزانيات من القيم تقوم فصـــول الـــثقافة الأربعة : منهجها الأخلاقي، وفلسفتها الجمالية، ووقتها الصناعي، ومنطقها العملي**"[3]. وهذه العناصر الأربعة هي التي تصنع شخصية المجـــتمع، وتحـــرره من كل ألوان السيطرة والهيمنة الأجنبية، وتسير قدما نحو التطور والتحضر .

---

[1] مالك بن نبي، **مذكرات شاهد القرن-الطالب-** ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط سنة 1969م، ص:261.

[2] - بن نبي، **شروط النهضة**، ص:107.

[3] - بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:112.

نقطة انطلاق التغيير الاجتماعي:

إذا كان تطور المجتمع وازدهاره متوقف على مدى عمق تغييره الاجتماعي، فلعل كل عاقل يتساءل عن أول عمل يقوم به المجتمع يكون أساسا وانطلاقا لتغييره الاجتماعي؟.

إن مالك بن نبي يوضح أن أول عمل ينبغي أن يحدثه التغيير الاجتماعي هو تغيير الفرد، ليصبح شخصا رساليا، يقوم بواجبه ويستشعر مسؤوليته، ويرتبط بمجتمعه، ويعمل من أجل أهدافه السلمية، فيقول رحمه الله:" **فالقضية إذن ليست قضية أدوات ولا إمكانيات، إن القضية كانت في أنفسنا، إن علينا أن ندرس أولا الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان، وليست السلال**[1] **وغيرها؛ فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ**"[2].

إن بناء الإنسان هو ما ينبغي أن يضطلع به أي تغيير اجتماعي، فلا يمكن أن يحدث أي تطور نحو حياة أفضل إذا لم يتغير الفرد نفسه.

لذلك، كان أخطر مرض يتعرض له أي مجتمع هو الخلل الذي يحدث في نفسية وعقلية الفرد، حيث يفقده دوره الرسالي، ويجعله إنسانا أنانيا لا يفكر إلا في ذاته، ولا يعمل إلا من أجل مصالحه، ولا يهتم بمشاكل مجتمعه، ولا يهتم بما يحيط به.

إن المجتمع لا يتغير إذا لم يتغير الفرد، إنه القانون الاجتماعي الثابت الذي قرره القرآن الكريم: "إن الله **لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"[3].

وتغيير الإنسان في نظر مالك يكون بتصفية نفسه من رواسب التخلف، وتطهير عقله من الأفكار الميتة، فعلى الفرد أن يتخلص من عقدة احتقار الذات واحتقار العمل المبذول.

إنه يجب على الإنسان أن يحس بجدوى وجوده وعمله، وأن يعلم أنه لا يقل إرادة وطاقة عن إنسان أوروبا أو أمريكا أو اليابان.

---

[1] – جمع سلة ، وهي الوعاء المخصص لرمي المهملات . أي رغم انتشار السلال في الشوارع لكن تجد من حولها الأرض ملأى بالأوساخ مما يدل أن العيب في الإنسان.

[2] – بن نبي، **تأملات**، ص:129.

[3] – سورة الرعد، الآية:12.

ويوضح بن نبي هذه الفكرة بمثال تاريخي في حياة الشعب الجزائري، فالإنسان الجزائري الذي كان يلقب "بالانديجين" في عهد الاستعمار، وصار يلقب بالمجاهد عند اندلاع الثورة، هذا التغيير الذي حدث في نفسيته وتفكيره هو الذي جعله يقوم بأعظم ثورة، ولو حدث نفس التغيير أو مثله في الفرد الجزائري بعد الاستقلال، بأن عرف قيمة ذاته، وقيمة ما يحتويه من مخزون هائل من الطاقات والإرادات والقيم، لاشك أنه سيحدث معجزة الاستقلال كما صنع معجزة الثورة.[1]

إن مالك يحث الإنسان الجزائري على وجه الخصوص، وإنسان العالم المتخلف عموما، أن يكون فعالا في حياته: فيحسن استغلال واستثمار وقته وطاقاته وقدراته، والاستفادة مما هو متاح بيده من الإمكانات ولو كانت بسيطة، وأن يتسم سلوكه بالمنطق العملي، وألا يفكر لكي يقول كلاما مجردا، وإنما يفكر لكي يعمل عملا نافعا.

فالعمل النافع وحده هو الذي يخط الطريق للمجتمع لكي يدخل التاريخ من جديد. والعمل النافع ينبع من ذاتية الفرد و إرادته، وليس من الخطب الانتخابية والوعظية.

فالعمل المبذول من قبل فرد ما قد يبدو بسيطا بالنظر إلى حجم الأهداف المسطرة، لكنه عظيم بالمنظور التاريخي، لأنه بمجموع الأعمال البسيطة المتنوعة التي يقوم بها الأفراد يتغير وضع الإنسان، ويخلق لنفسه بيئة جديدة، بل بمجموع الأعمال الصالحة تصنع حضارة مجتمع ما.

أهمية التربية الاجتماعية كأساس لتغيير الإنسان:

إذا علمنا أن المجتمع لا يستطيع أن يغير ذاته إذا هو لم يبدأ أولا بتغيير الإنسان من حيث سلوكه وأفكاره، فإن مالك يدعو إلى التربية الاجتماعية لضمان بناء الإنسان بناء سليما.

والتربية الاجتماعية ليست عبارة عن أمور نظرية، أو قواعد مجردة، إنما هي في جوهرها قيم أخلاقية وثقافية، نابعة من أصالة المجتمع ودينه وتاريخه، وبقدر ما تستمد هذه التربية مفاهيمها من قيم المجتمع الثابتة، بقدر ما تكون

---

[1] - بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص:52و53.

قادرة على إحداث التغيير السليم في فكرة الفرد ونفسيته، بل تصنع من الفرد شخصا اجتماعيا يضيف جهده وعمله إلى مجموع الطاقات الفردية الأخرى التي تلتقي كلها في صورة نشاط مشترك يقوم به المجتمع ككل.[1]

إن موضوع التربية الاجتماعية هو الفرد، وأهم مضمون لها هو تغيير الفرد، لأن كل ما يغير الفرد يغير المجتمع، و كل ما يبني الفرد يبني المجتمع، وكل عمل في الاتجاه المعاكس فهو هدم للبناء الاجتماعي ككل.

فالعلاقات الاجتماعية في جوهرها قيم أخلاقية وثقافية، تخلق في الفرد روح العمل والمنافسة الإيجابية.

إن الذين يدعون إلى حرية الأخلاق بدعوى التقدم والتطور، إنما هم في الحقيقة سواء قصدوا ذلك أو لم يقصدوا يعملون على تخريب المجتمع وتحطيمه.

إن القيم الأخلاقية من صدق وإخلاص ونصح وشجاعة وإرادة وصبر وأمانة... التي هي المضمون الجوهري للتربية الاجتماعية، هي التي تصنع العزائم العظام وتربط الإنسان بأخيه الإنسان وتجعل للكائن البشري معنى في محيطه الاجتماعي، لأنه حينئذ يشعر بأن مجتمعه بحاجة إليه، فالمبادئ الأخلاقية بمثابة آليات تحافظ على شبكة العلاقات الاجتماعية، وتصنع الفرد المنتج الفعال، فالنهي عن السرقة والكذب والغش والخيانة وغيرها من مفاسد القيم، إنما هو في حقيقة الأمر توجيه لعمل الأفراد ونشاطهم نحو أخلاق إيجابية وأعمال صالحة، تجعلهم متعاونين فيما بينهم، فنشاطهم وإن اختلف، فهو يصب في هدف اجتماعي مشترك.

---

[1] – طالع موضوع مشكلة الثقافة في كتاب: **آفاق جزائرية**، مالك بن نبي، ترجمة الطيب شريف، الجزائر، ص: 121 وما بعدها.

مالك بن نبي وفكرة الأفروسيوية

أ.عبد المجيد قدور
جامعة الأمير عبد القادر

كما تعودنا كل سنة إطلاق اسم علم من بين أسماء أعلامنا الميامين، على الدفعة المتخرجة من جامعة الأمير عبد القادر الفتية. وشرف عظيم أن يكون- علم- هذه السنة، هو الفيلسوف العظيم مالك بن نبي، المفكر العربي، والمنظر العالمي، وابن الجزائر البار.

وهو في الحقيقة رجل عالمي، من حيث أفكاره، ومن حيث مرامي فلسفته.فرغم أنه كان يحمل بين جوانحه، هم وطنه الصغير- الجزائر- المستعمر[1] ورغم تحسره عن وضع وطنه الكبير العالم الإسلامي؛ فهو قد كرس كتاباته إلى معالجة قضايا الإنسانية، وإلى بناء حضارة عالمية تقوم على الأخلاق ومحبة الآخرين، ومن ثمة الوصول إلى عالم متصالح يسوده السلام والأمن والوئام.

ماذا أقول في هذه الشخصية التي ليس لها عيار بين الموازين، توزن به، فهو مؤلف صنف ما يربو على العشرين كتابا،في موضوعات شتى، وهو فيلسوف من الطراز الأول، وهو السياسي المحنك، والمهندس البارع، والرياضي القديس، وشاهد العصر، وإذا قرأت له تجد نفسك تقرأ لعلامة واسع الإطلاع، غزير العلم، متعدد المواهب، متنوع المعارف، وكأنك تقرأ في موسوعة عامة، أو دائرة معارف شاملة. وفوق هذا وذاك، فهو يحسن التعبير عن كل شيء بقدر وقد أسعدني الحظ أن قرأت له بعض كتبه - وبهذه المناسبة التي أتاحتها لنا جامعة الأمير عبد القادر- اخترت من بينها كتابه المتميز" فكرة الأفروسيوية في

[1] كلما تكلم مالك بن نبي عن الاستعمار إلا وذكر الإستعمار الفرنسي بالجزائر كلما ناقش فكرة معاصرة إلا وضرب مثلا بالجزائر، مما يدل على مدى تعلقه بوطنه وقضيته في الأمم المتحدة والخارج .

ضـــوء مؤتمـــر باندونج " لأقدم ملخصا لما ورد فيه من أفكار وآراء وتطلعات لمستقبل الإنسانية بصفة عامة والشعوب المغلوبة على أمرها[1] بصفة خاصة.

إن فكـــرة الأفروســـيوية هي فكرة سياسية واقتصادية واجتماعية بناءة، تـــريد إقامـــة نظـــام عـــالمي جديد، تعيش فيه الإنسانية بسلام دون حروب كونية.ودون معاناة أو ألم.

وقـــد بـــين لـــنا المؤلف أن فكرة الأفروسيوية قد نبعت من الأخطار والويـــلات الـــتي تعرض لها العالم، خلال الحربين العالميتين، تلك الحروب التي تركت نصف الكرة الأرضية خرابا ودمارا لا مثيل لهما في تاريخ الإنسانية.ومع ذلـــك لم يكن للحرب أي دور في تحرير الإنسان والشعوب المحتلة، سوى تحرير ملايين من الموتى الذين ذهبوا ضحية التهور واللجوء إلى استعمال القوة.

وبمـــا أن المـــنطق الســـائد كان هو منطق القوة، أي منطق الذي يملك الســـلاح الذري، وكان ذلك وبالا على الإنسانية جمعاء ،لأن الحرب لا تعرف المســـتعمر من المستعمر، وإنما تحصد أرواح الجميع، كما حصل خلال الحربين العالميـــتين، وما انتهى إليه استعمال القوة سنة 1945، لاسيما ما حدث باليابان على يد الأمريكان، وما حدث في الجزائر على يد الفرنسيين[2].

وقـــد لا حظ مالك بن نبي أن منطق القوة – بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية – أدي إلى انقسام العالم إلى قسمين، أو إلى كتلتين متصارعتين، وسط ما أطلـــق عليه" الحرب الباردة" التي كانت تنذر كل يوم بقيام حرب عالمية ثالثة، ربما تكون فيها نهاية العالم في يوم من الأيام[3].

وربمـــا هـــذا هو ما جعل فكرة الأفروسيوية تتبادر إلى ذهن نهرو، والتي استوحاها من مبادئ غاندي ومن تعاليمه، وهي فكرة تقوم على عدم استعمال

---

[1] مالك بن نبي.فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج ..دار الفكر المعاصر.بيروت .2001.

[2] المقصود هنا بحاز والثامن ماي 1945 بالمدن الجزائرية ،وضرب مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين بالقنابل الذرية.

[3] كمال هشام .الوجيز في التاريخ ط3، دار البعث قسنطينة 1999 ص49

أمين شلبي قراءة جديدة للحرب الباردة. القاهرة، دار المعارف 1983 ص15-16

القـــوة. ومحاولة الحصول على الحقوق بطرق سلمية متحضرة دون اللجوء إلى العنف واستعمال القوة[1].

قـــد صـــور لنا المؤلف وضعية إنسان ما بعد سنة 1945 فيقول :" بعد الحرب العالمية الثانية عاش العالم في فراغ تاريخي، كأن التاريخ قد توقف، نتيجة موقف الغرب الذي أخر ما كان ينبغي تحقيقه منذ تلك السنة المذكورة. إذ كان كـــلما حـــدث ما يخدم إفريقيا وآسيا،كلما استعمل الغرب–حق الفيتو– ليعيد الـــتاريخ كمـــا كان قبل ذلك، دون تقدم خطوة واحدة إلى الأمام رغم مرور السنين[2].

إن إرادة الشـــعوب طاقـــة طبيعـــية لا يردها سد، ولا مانع مهما كان محكمـــا.فـــإذا كان الغرب قد وضع العالم بعلمه على عتبة العصر الذري، فإنه بتصـــرفه اللاأخلاقي قد عطل الطبيعة وأوقف التقدم. ولم يدري – الغرب– أن إرادة الشعوب الضعيفة قادرة على افتكاك استقلالها، وأن في إمكانها تأليف كتلة ثالـــثة، لا شرقية ولا غربية تقبض بذراع الميزان من الوسط، تمنع ميله شرقا أو غربا – عدم الانحياز–[3]

ومع أن الفكر الغربي هو الذي أنشأ منطلق واتجاه التاريخ إلى الأمام، أي التقدم الذي حدث بالغرب، فإن هذه العبقرية أثبتت فشلها من خلال الأحداث الدولية الراهنة بسبب عجزها الأخلاقي، إذ ينبغي لتحمل مسؤولية قيادة العالم ســـلطة أخلاقية، ودفعة روحية غنية بمبادئها وتوجيهاتها[4]. ومعروف أن فضيلة الغـــرب ليس لها وجود خارج عالم الغرب، فالفضيلة الغربية لا تشع على عالم الآخـــرين، لأن الغرب أناني بطبيعته من الوجهة الأخلاقية ولا يرى الأشياء إلا بمنظار مصالحه[5].

---

[1] عانداي الأب الروحي للهنود وتعاليمه ورثها لشعبه ، وعلى رأسهم لهرو رئيس الوزراء الهندي السابق .كان يكره استعمال القوة ويحبذ المطالبة بالحقوق بالطرق السلمية .حتى في سبيل تحرير بلاده .لم يلجأ أبدا للعنف .

[2] الأوربيون كانوا يحثون على التقدم ،ولكنهم رغم ذلك كلما حاولت دولة نامية النهوض أرجعوها بالقوة واستعمال الفيتو

[3] عدم الانحياز هي كتلة بشرية ثالثة لا شرقية ولا غربية تقف بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا دون الانحياز لأحدهما.

[4] مالك بن نبي. فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج. ص 92.

[5] مالك بن نبي.نفس المرجع .ص43.

وقد وصف مالك بن نبي الغرب الاستعماري بأنه أسير العبقرية الصناعية مادام يطبق نتائجها على المجال الأخلاقي، بحيث ينسب النجاح المادي إلى فضيلة خلقية. وقد شهد غاندي بأن هناك فضائل خلقية للغرب جميلة، ولكنها فضائل داخلية أنانية لا شعاع لها " على عالم الجنوب" إن الاستعمار مرحلة من مراحل التطور الإنساني وقد فات أوانها فكل محاولة لإطالتها أو تكرارها، يعد تأخر وعودة إلى الماضي [1].

وقد ذهب الفيلسوف إلى أن الغرب تسيطر عليه الفكرة الاستعمارية التقليدية وهو غير قادر على التخلص منها أو استبدالها. رغم تغير الزمان والمكان وحتى الإنسان:"لقد غيرت الحرب الصناعات والطبيعة، ولم تغير نفسية العالم المتحضر في الغرب.

وحاول عالم الشمال أن يصور لنا شكل الاستعمار المشترك فحصره بين المحورين أو المعسكرين الشرقي والغربي، لا مكان لغيرهما، حتى لا يكون للشعوب الأخرى -الأفروسيوية- حرية الاختيار سوى الاختيار بين الشيوعية والرأسمالية [2] كميثاق استعماري جديد [3] ورغم جبروت الغرب وصراعه مع الشرق كقطبين متضادين ومتساويين. بدأ حوار جديد في التاريخ، لم يكن المتحدث فيه -هذه المرة- قوة أخرى من نوعها تجر العالم إلى الحرب، بل هو نوع جديد ليس المتكلم فيه مسلحا بقنابل ذرية ، بل هو مسلح بقوانين جديدة أخلاقية وسياسية برهن غاندي على صلاحيتها وتأثيرها .

وكان من نتائج هذا الحوار الأولي غير المتوقعة، إعادة بناء الازدواج الجغرافي السياسي بطريقة غير مباشرة. في ضوء تفسير جديد يختلف عن تفسير القرن19 [4] .

فالحضارة لم يعد محدثها شعوب مستعمرة وفق الاستعمار والقابلية للاستعمار، بل أنها شعوب انتصرت على العبودية المزدوجة، شعوب لم تعد

---

[1] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 50.

[2] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 71

[3] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 73

[4] تفسير القرن 19 أن كان قائما على الاستعمار والقابلية للاستعمار، والآن هناك شعوب تحررت وفق مبادئ أخلاقية قابلة للمناقشة

ترضـــى بأن تستخدم فقط كقاعدة لتمثال التاريخ،بل على العكس يريد أبناؤها أن يكونوا فنانيه وملهميه [1].

إن الشعوب الأفروسيوية قد أعادت الازدواج الجغرافي والسياسي، لكن أتـــت معها بمبدأ تركيب للعالم وبإمكانيات تعايش جديد يحمل بوضوح طابع عبقريتها أعني الشروط الأخلاقية لحضارة لا تكون تعبير عن القوة أو الصناعة[2].

وقـــد اتهم مؤتمر باندونج بأنه تآمر ضد الغرب ويرد ذلك الجهد من أجل السلام والبناء إلى شيء من السلبية الموجهة ضد الغرب ، وهذا تفسير يعبر عن الاتجاه الاستعماري المألوف وذلك كلما اتخذ الإنسان الأسيوي الإفريقي قرارا ليصـــلح حالـــه بنفسه، عد الغرب ذلك إجراء يسلبه حقه ويهدد بقاءه بالطرد والحرمان من مستعمراته، وهذا هو موقف الاستعمار دائما.

فالأفروسيوية التي تقرر مصير الكتل البشرية في آسيا وإفريقيا ما هي إلا خـــط نشـــاط يمتد بدقة من طنجة إلى جاكرتا ولدت هذه الأفروسيوية كإرادة تتضامن ضد الاستعمار الجديد الذي يحاول أن يجرها إلى حرب عالمية ثالثة[3].

كانـــت الحـــرب العالمـــية الثالثة المتوقعة تسيطر عليها الحرب الباردة بين الكتلـــتين، و لم يكـــن لأحد أن يرى تطور الشعوب الأفروسيوية إلا في النطاق الثنائي، لم تكن لها إرادة اختيار يمكن تصورها خارج الكتلتين المتنازعتين، أي أن كـــان الوضع لا يفرض عليها سوى الاختيار بين الشيوعية والرأسمالية[4] لكن هذه الحتمية قد فات أوانها وفتحت باندونج بابا ثالثا للشعوب الأفروسيوية.

ولتوضـــيح مشـــكلة الرجل الأفروسيوي لجأ المؤلف إلى منهج افتراضي، وتصـــور فـــيه أن زائـــرا سماويا يعبر سماء الكرة الأرضية الشمالي بين واشنطن موســـكو وطوكيو ثم يعبر نصفها الجنوبي من طنجة إلى جاكرتا، وقد تأثر ذلك الزائـــر مـــن الصـــور واللوحـــات الـــتي شاهدها، والتي تعكس حركة الناس ونشـــاطهم،كناطحات السحاب وأنورها في المحور الأول. والأكواخ والبنايات

---

[1] مالك بن نبي. المرجع السابق. ص 58

[2] نفس المرجع. ص 59

[3] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص60 /63

[4] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص71 .

المتواضعة في المحور الثاني ليرينا الاختلاف بين عالم الشمال وعالم الجنوب، وأن لكل تفكيره وحياته[1].

وهنا يرى بن نبي أن كل تفكير في مشكلة الإنسان، هو في النهاية تفكير في مشكلة الرجل الأفروسيوي التي هي في جوهرها مشكلة حضارة، يعني أن يحقق الأفروسيوي من طنجة إلى جاكرتا وضعا متحررا عن العوامل السلبية، التي فرضها الاستعمار والقابلية إلى الاستعمار على حياته في المنطقة[2].

وضرب لنا مثلا بالتجربة الهندية التي تتلخص في المطالبة بالحقوق بطرق سلمية. وأيا كان المظهر الذي نتصور تحته أهمية مؤتمر باندونج، فان الأهمية لا تنتج عن كمية وطبيعة المشكلات التي عولجت فعلا خلال مناقشاته، بل أنها تصدر عن كمية من المشكلات الأخرى التي نحيت عن قصد أو بغير قصد من هذه المناقشات.وظلت في حيز القوة والتطور الاجتماعي والإستراتيجي الناتج عنه في الحالة العالمية، أي أنها ظلت كاحتمالات وعبارات مؤجلة في الحوار الناشب بين المحورين[3] حتى انتهت الحرب الباردة وظهرت القطبية الموحدة أو الواحدة.

إن دول العالم قد أدركت تماما أن إنقاذ السلام يعني اتقاد كل شيء، وظهرت القوى الروحية والمادية التي التقت في مؤتمر باندونج كأنها تكون القاعدة العصبية للسلام، فلم تكن الكلمات الأولى للمندوبين مجرد تحيات رسمية، بل كانت تعبيرا دقيقا مقصودا من أجل مبادئها وتدعيمها بالرأي المناسب.

وقد فعل ذلك جمال عبد الناصر في كلمته الأولى حين قال مرددا ومزكيا تصريحات نهرو:" إن قرار السلام ليس معناه انعدام الحرب، بل معناه التوجه الرشيد في سبيل خلق مجتمع عالمي متعايش:"[4].

فهذا التعريف لإقرار السلام القي في الواقع نظرة على الهدف العاجل للمؤتمر ونظرة أخرى على أهدافه المتوقعة البعيدة[1].

---

[1] مالك بن نبي.نفس المرجع .ص 76

[2] مالك بن نبي .نفس المرجع. ص32

[3] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص98

[4] جمال عبد الناصر كمثال لدعاة السلام العالمي. مالك بن نبي .نفس المرجع.ص 101

وقد كان مؤتمر باندونج مؤتمر البلدان المتخلفة باستثناء واحدة أو اثنتين، أعني البلدان التي مازالت تعاني بقايا القابلية للاستعمار،من نقص الأغذية والأمية وازديـــاد السكان كان المؤتمر ممثلا لكل الأديان حتى المسيحية ممثلة في الأسقف ماكاريوس[2] وهذا ما يظهر الإمكانيات التي تتحكم فيها هذه المجموعة المتنوعة، في أفكارها وأصولها ومجتمعاتها ،كما تظهر عوامل الضعف فيها.

ولعـــل تـــنوع كهذا يمكنه بطبيعة الحال أن يقدم العناصر اللازمة لبناء قـــاعدة متينة للسلام، وإقامة الأسس الروحية والصناعية لتشييد حضارة الرجل الأفروسيوي، وتهيئة الظروف النفسية والزمنية لإقامة مجتمع عالمي متعايش"[3] وإن كان مؤتمر باندونج لم يصل إلى جميع نتائجه فان الأغلبية مازالت في حيز القوة، سواء في الإطار النفسي أو الإطار الزمني ،ولكن البذور التي نثرها مؤتمر باندونج تحمـــل فكـــرة قـــوة يمكـــنها أن تضع معجزة هذا العصر، حين يتم لها التفتح والازدهار، ويصبح المناخ السياسي مناسبا.

فلقـــد غـــرس مؤتمر باندوج الفكرة الأفروسيوية التي ربما غيرت وجه الإنســـان الذي يعيش بين طنجة وجاكرتا وغرست في شكل مبدأ الحياد نواة جديـــدة للسلام معبرة مفهومة تبعا لمبدأ "عدم العنف" الذي يملىء على المرء أن يكون صديقا لجميع الناس ولجميع المبادئ وعدوا للحرب)[4] ولعل هذه الفكرة تغير وجه التاريخ حين تزدهر في الضمير الإنساني[5].

إن مناقشـــات المؤتمر الأفروسيوي قد تخطت من الناحية النظرية النطاق الذي تتم فيه التطورات الضرورية على محور طنجة جاكرتا، فعبرت عن الحرمان الـــذي يعانـــيه العالم، من انعدام السلطة الأخلاقية، وأوجدت في نفس الوقت الفرصة لغرس هذه السلطة في الضمير الإنساني، حين تدعو هذا الضمير إلى أن يتأمل بطريقة أكثر موضوعية ، حين وضعته أمام درس "عدم العنف"كي يتأمله

---

[1] مالك بن نبي .نفس المرجع .ص101.

[2] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص 101.

[3] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص 201.

[4] مالك بن نبي .نفس المرجع.ص 107.

[5] مالك بن نبي. نفس المرجع.ص 107.

بطريقة جدية[1] ولكن مؤتمر باندونج يعتبر أيضا قبل كل شيء تقويما لإمكانيات المستقبل. وقد أصبح على الإنسانية أن تحيل هذه الإمكانيات إلى واقع يترجم الأفكار التي ولدت خلال المناقشات إلى سلوك محدد فعلي يغير حالة الرجل الأفروسيوي[2].

إن انتماء الفيلسوف للأمة الإسلامية واضح وحاسته بادية أنظر لقوله : ومن المشجع أن نلاحظ أن الفكرة الأفروسيوية قد رأت النور في باندونج في أرض الإسلام، وأن نلاحظ أن النصيب الأكبر اسهم فيه مندوبو إندونيسيا ومصر.لكن تقلب بعض القادة المسلمين وانتقالهم من الحملة على الإستعمار، إلى الحملة على الشيوعية، قد دل على أن المغزى العميق لمناقشات المؤتمر قد أفادهم سواء فيما يتعلق بالمشكلات العضوية أم بمشكلات الاتجاه[3].

فالفكرة الأفروسيوية تدين بطبيعتها كفكرة يمليها الإسلام والهندوسية بتركيب ثنائي وهذه الخاصية تحول بينها وبين أن تتبلور في كتلة "صالحة لأن تستخدم في عمل من أعمال السيطرة،بل ستظل على العكس من ذلك تسمح بتدخل جميع تيارات الفكر، وتحمل رسالة الخلاص الغني بجميع العناصر الخلاقة تلك العناصر التي يمكن أن تضعها فيها جميع التيارات المثرية في التجربة الإنسانية كلها[4].

إن الثقافة الأفروسيوية لا يمكنها أن تجد إلهامها الجوهري في مجرد نزعة المعاداة للاستعمار،التي تختفي باختفاء سببها وهو:الاستعمار فيجب أن تبحث عن روحها الأخلاقي في مجموعة من القيم الروحية والتاريخية التي تقرها الشعوب الأفروسيوية كتراث يشبه التراث الذي قدمته الإنسانية الإغريقية اللاتينية إلى الغرب فوجد فيها زاده ودليل الطريق[5].

---

[1] مالك بن نبي. نفس المرجع.. ص 110.

[2] مالك بن نبي .نفس المرجع. ص110 .

[3] مالك بن نبي .نفس المرجع. ص110

[4] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 135 .

[5] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص 149 .

" ليست في الواقع بطريق الإحالة على استحالة قيام حرب عالمية ثالثة، التي كانت في النهاية الصنيع للحرب الباردة "

فالأسلحة الذرية بأثرها المباشر كان الحجة البالغة لكل ما يتصل بالناحية الإستراتيجية ولكنها بواسطة نوع من الأثر المضاد قد أصبحت أقوى حجة في موضوعات السلام، فقد[1] ولكن هذه الاستحالة التي ندركها في الإطار المادي ستكون قليلة الأهمية، إذا لم تمس في الوقت نفسه النظام الأخلاقي، أي إذا كانت سوى واقع مادي تسجله النظريات الإستراتيجية والسياسية في ميدانهما الخاص.والواقع أننا نرى هذه الاستحالة تسجل في نفسية العصر وفي ضميره وبصورة درامية، نقطة التقاء المحورين لقاء فكريا [2].

وهكذا تجد وحدة العالم قاعدتها الفكرية في هذه الاستحالة التي لا تدع للإنسانية أدنى قسط من الاختيار ، حيث تقضي عليها فكرة "التعايش الجديدة" فالتعايش ضرورة لأنه لا يوجد مخرج غيره من الأزمة.هذه الفكرة تعد من الناحية التاريخية إجابة الضمير الإنساني[3]، على تحدي القوة"

نشير إلى أن التطور النفسي على محور واشنطن موسكو قد انتهى عمليا إلى مبدأ "عدم العنف" ذلك المبدأ الذي ألهم دون شك اجتماع باندونج وهو أيضا المبدأ الذي تتضمنه فكرة التعايش " إذ هي تعني في مفهوم السياسة أن الكبار تنازلوا عن اللجوء إلى العنف لحل مشاكلهم ومنازعاتهم هذا الالتقاء لم يحدث اعتباطا، بل هو دفعة من دفعات اللاشعور تدل دلالة عارضة في الواقع السياسي على التأثير الغامض الشائع الذي يتمتع به مبدأ غاندي في العالم الراهن[4].

وهكذا ترى أن التيار الحيادي،وهو-أساسا- فكرة باندونج قد هيأ بقدر ما الظروف السياسية والأخلاقية، لجو دولي جديد، وهكذا تسجل طابع الروح الأخلاقي الأفروسيوي شيئا فشيئا، وبخاصة منذ مؤتمر باندونج في الظروف الدولية الجديدة، وأن التعايش ليدين له في الواقع بأكثر من كونه مجرد دافع روحي وتوجيه أخلاقي غامض يشتمل على تنازل صوري عن اللجوء إلى القوة، بل أنه يدين إلية بعناصر أكثر تحديدا ، ولعل من بين هذه العناصر نجد مضمونا

---

[1] للحرب الباردة " ولكن هذه الاستحالة التي ندركها في الإطار المادي ستكون قليلة الأهمية، إذا لم تمس في الوقت نفسه النظام الأخلاقي .

[2] الاستحالة تسجل أيضا في نفسية العصر وبصورة درامية، النقطة التي يلتقيان فيها

[3] تحدي القوة "يعني أن التطور النفسي على محور واشنطن موسكو قد انتهى عمليا إلى مبدأ "عدم العنف" مبدأ باندونج

[4] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص 181.

نظـــريا يجب أن يكون بصورة عملية المقياس الأساسي الذي تقوم عليه أعمال الدول في السياسة الخارجية[1] .

إذن على الرغم من أن لفظة التعايش قد تبقى خلال التاريخ، فإن فكرتها ســـتتغير ضرورة فالعوامل الصناعية والعوامل الروحية التي أوجدتها ستستمر في تكـــيفها طـــبقا لحالات جديدة ومن المحتمل خلال ربع قرن أصبحت تتجاوز الفكرة التي تحتويها الكلمة مدلولاتها الحالية فتظهر في شكل جديد تماما، إذ بدل مـــن حالها التطور محدث كل تغيير، وستحمل الكلمة خلال تطورها أكثر من المدلـــولات الأخلاقـــية والأدبية، إذ أنها من الناحية السياسية، قد أثرت بألوان جديـــدة تدل على حيويتها، كما تدل حيوية الغصن على براعمه التي تنحم في الربيع[2] .

إن مهمـــة فكرة الأفروسيوية في هذا النطاق تنحصر في مساعدة إنسان الغـــرب على بلوغ هذا الحجم الذي وهبه علمه القدرة عليه ولكنه لم يهب له بعـــد الشعور به، وستظل أوروبا تصنع التاريخ وتعطي مثال الخير ومثال الشر، حسبما يكون المتحدث بلسانها ضميرها الخير،أو ضميرها الشرير، فإن لاختيارها أهمـــية عالمـــية، ســـواء كان خيرا أو شرا وسيكون دور فكرة الأفروسيوية هو مســـاعدة أوروبـــا على أن تحسن اختيارها في اطمئنان لاكتمال عملها في عالم ضـــميرها، وبهذا تكون الأفروسيوية قد أتمت عملها أيضا، لأنها تكون قد سمت بإنســـان الغـــرب إلى المستوى الأخلاقي للإنسانية محققة بذلك تركيبا للرجل العالمي[3] .

ومـــلخص القـــول أن فكرة الأفروسيوية ستبقى خالدة، بل هي الحل لمشـــاكل العـــالم الراهن. وسيظل مبدأ غاندي قانونا بشريا — الإنحياد الإيجابي وعدم اللجوء إلى القوة–وسيبقى المبدأ والفكرة ومن اعتنقهما يدين مدى الدهر للفيلسوف والمفكر مالك بن نبي الذي جعل لفكرة الأفروسيوية أهمية كبرى، لم تنـــتهي كمـــا ظن الكثيرون بعد مؤتمر باندونج 1955 إنما ظهرت حاجة العالم لتطبيق هذه الفكرة، كلما مرت السنين.

---

[1] مالك بن نبي. نفس المرجع .ص190

[2] مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 99 .

[3] –مالك بن نبي. نفس المرجع. ص 258 .

فمـــالك بن نبي أبدع في كل شيء. لكن في كل شيء في عالم الفكر الخـــلاق والإيجـــابي، الداعي للسلام العالمي وخير البشرية جمعاء في كل مكان وزمان. فرحم الله شيخنا ومفكرنا ونفعنا بعلمه وفكره.

مالك بن نبي وتصوره للثورة التحريرية

الدكتور راسمال عبد العزيز
مدير الثقافية الإسلامية

إن فكر مالك بن نبي، فكر واسع ومتشبع، وقد لاأكون مخطئا إذا قلت أن هناك عوامل موضوعية تجعل هذا الفكر شبيها بفكر " ابن خلدون" بل نتسائل دائما عن هذين العالمين هل فكرهما يدخل في سياق المرحلة التاريخية التي عاشاها، ام خارج عصرهما ؟

أيمكن ان نفكر في تأطير الخلدونية الجديدة مثلما تأطر لبناية جديدة ؟ هذه مهمة أساسية يطلع بها المهتمون في العلوم الاجتماعية، أو الإنسانيـــة، أو غيرهم...

لقد انطلق مالك بن نبي من عالمين-عالم الأشياء-عالم الأفكار، وهذا ما أدى إلى تبنيه لمعادلة الحضارة= الإنسان+التراب+الوقت، ويعتمد في تحليله على الآية القرآنية " إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وهو ما يعتبره تحليلا نفسيا للحضارة.

إلا أن الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أن" مالك بن نبي" يعتمد على الحوصلة "Synthèse" وذلك بعرض، وتحليل، وتأويل أفكار العلماء من شرقيين وغربيين، دون أن يطنب في الأفكار المستهلكة والمتجاوزة، وإذا كانت هذه الندوة تدخل في نطاق الاحتفال الخمسين للثورة التحريرية المباركة، فلابد من الإشارة إلى عالم آخر وهو "عالم شبكة العلاقات الاجتماعية، الذي يؤدي فيه "عالم الأشخاص" دور محوري، ومن هنا يستشهد بالحديث النبوي الشريف:"يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها"...إلى آخر الحديث...، وهي استحضار صورة العالم الإسلامي بعد تمزق العلاقات الإنسانية ليصبح مجرد تجمعات كغثاء السيل... وهذا ما سهل

لمالك بن نبي أن يكتشف فكرة القابلية للاستعمار، وعندها يقول:" لسنا نستطيع، بكل أسف، وبتأثير أوضاعنا العقلية، أن نفهم عمل الاستعمار، إلى ربثما يثير ضجيجا، كضجيج الدبابة والمدفع والطائرة، أما حين يكون في تدبير فنان، أو من عمل قارض فإنه يغيب عن وعينا، لسبب واحد هو أنه لا يثير ضجيجا[1].

عن جيل نوفمبر قد ربط بين عالم الأشياء وعالم الأفكار، من خلال الوصول إلى مرحلة "الفعالية"، التي تبناها جيل من الشباب، آمنوا بالثورة التحريرية ومبادئها، ولكنهم نشروا الوعي داخل المجتمع لتبني هاته المبادئ والقيم النوفمبرية، وخير شاهد على ذلك قول الشهيد العربي بن مهيدي: "ألقوا بالثورة إلى الشارع يحتضنها الشعب".

كانت أول حقيقة اكدها المفكر مالك بن نبي هي" إذا لم نقم نحن بثورتنا، فإن التغيير سوف يأتي من الخـــارج، ويفرض عليها فرضـــا[2] ثم يتابع :" الثورة عملية هادفة تحاول تغيير اوضاع معينة بطريقة مستعجلة"[3]، فالهدف المرسوم للثورة هو التغيير المرتبط بالاوضاع الاجتماعية والثقافية، ونستقرئ من عبارة مستعجلة، أنها ليست عملية للقفز على المراحل، بل بتوفر شروط ذاتية وموضوعية أشرنا لها سابقا –أهمها النشاط الإيجابي الملموس–.

يربط مالك بن نبي الاستعمار، بالتعدي على حدود" الان"، وعلى "كيانه الاجتماعي والثقافي"، إذ لا يحق لاحد آن ينفذ داخل انا غيره، ويبدو ان مصطلح "احتلال" انفذ اعمق لو استعمل مكان استعمار، لانه يفيد الهيمنة والتسلط، وهذا مايشير إليه مالك بن نبي حين يقول:" عندما يترل جيش اجنبي بارض شعب، فغن هذا الشعب يكون معرضا ليرى غما احتلالا مؤقتا في بلاده، وإما عملية ضم تضعه نهائيا تحت سلطة شعب آخر"[4]، ويعطي أمثلة على ذلك من خلال التاريخ، حيث أن المجتمعات المغلوبة تتخلى عن ثقافتها وحضارتها للغالب، وهذا ما يوافق ما ذكره ابن خلدون "إن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في زيه ونحلته وسائر معاشه وأحواله، وهذه التركيبة تؤثر في المجتمع

---

[1] مالك بن نبي:" ميلاد مجتمع أو شبكة العلاقات الإجتماعية"-دار الفكر- ص: 81.
[2] مالك بن نبي:"صفحات مشرقة" ص/"133" -د/عبد اللطيف عبادة.
[3] نفس المرجع ص 131-د/عبد اللطيف عبادة.
[4] مالك بن نبي:"في مهب المعركة" ص: 32.

المغلوب، حيث يصبح مجتمعا مركبا من خصائص شعبين من حيث يظهر بأنه" هجين وغير متميز.

وعن الجانب الديني، يؤكد الأستاذ مالك بن نبي على العلاقة، البينة بين الدين والفراغ، حيث كلما قويت العلاقة الدينية كلما قلت درجة الفراغ الاجتماعي، ومن هذا الحديث النبوي الشريف: "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا" والفكرة الدينية رهن ببعض شروط الجغرافية الإنسانية، ومثلما وقع للمسيحية حيث هاجرت من فلسطين إلى روما (القرن 4-5م)[1]، نجد أن الإسلام توسع إلى بقاع الأرض من منطلقه شبه الجزيرة العربية، و لم تكن الفكرة الدينية مقصاة من بيان نوفمبر، حيث يؤكده قيام الحركة التحريرية على مبادئ أول نوفمبر الإسلامية.

لذلك تنبه مالك بن نبي أن الاستعمار لا يسلب المستعمر أشياءه بل نفسه أي روحه وعقيدته، فقد زرع الاحتلال الشكوك في ذهنية"المهزوم"، وهو ما اصطلح عليه بالمعامل الاستعماري، أو "القابلية للاستعمار"، حتى ينظر إليه، أو يؤمن به على انه قضاء وقدر، ولكن هذا لا يتم إلا من خلال طرد الاحتلال من عقولنا وانفسنا، فهو إن تمكن من النفوس بدد الطاقة الاجتماعية عندنا وشتتها على أيدينا، ومن ذلك فلا رجاء في الاستقلال، ولا أمل في الحرية. لكن لابد لثورة التحرير من "نخبة"، وهاته النخبة لكي تنجح لابد ان ترتبط بالقاعدة الاجتماعية، أو ما يسميها "مالك بن نبي" بخميرة الفطرة البدوية.....

وقد كان من ذلك مثال واضح في الثورة الإسلامية التي قادها النبي محمد-ص- فقد كانت ثورة متنامية، وحافظت على نفسها حفاظا مستميتا، وضبطت سلوكها ضبطا دقيقا، حماها من المؤثرات الخارجية ومن التناقضات الداخلية-ما يشير مالك بن نبي-[2]

لكن المقالة التي مازالت تحتفظ براهنيتهاو وما زالت لم تترسخ في وعي القيادة الثورية كنخبة سياسية، والتي إن أخذنا بها في السابق كان يمكن أن تحمينا من الكثير من الكوارث التي لاحت نيرانها بعد الاستقلال مباشرة، فأصبحت تتحدث عن اغتيال ثورة " وعن الجزائر إلى أين؟.."الخ، وهو ما

---

[1] مالك بن نبي: ميلاد مجتمع

[2] مالك بن نبي:"بين الرشاد والتيه"

يذكره مالك بن نبي في أحد كتبه:" الثورة لا ترتجل إنها اطراد طويل يحتوي ماقبل، الثورة، والثورة نفسها، وما بعدها، والمراحل الثلاث هذه لا تجتمع فيه بمجرد إضافة زمنية، بل تتمثل فيه نموا عضويا، وتطورا تاريخيا مستمرا، وإذا حدث أي خلل في هذا النمو وفي هذا التطور، فقد تكون النتيجة زهيدة تخيب الآمال"[1]....ويبين الاختلاف بين الثورة والسياسة، فهي لا تحتمل المداهنة ولاتتقن فن الخيانة، وليست على طريقة معاوية أو ميكيافيلي، بل الهدف إلى نهايته، ولا يصح أن تقف في وسط الطريق، لأن ذل معناه" الانتحار" وهي ليست كالحرب تعتمد على العتاد والعدد بل على" الروح والعقيدة".

كما سبق آن ذكرنا، فإن تغيير الإنسان هو أساس عملية التغيير كلها، فهي تغير سلوكه وأفكاره وكلماته، وتنقله من إنسان ماقبل الموحدين، إلى إنسان منسجم في علاقاته الاجتماعية والحضارية من منطلق تصفية نفسه من الاستعمار، وكما ذكرنا، فإن تحول الإنسان إلى كائن اجتماعي فاعل لا يتحقق، إلا إذا تحققت الثقة في محتوى الثورى التي يشارك فيها، ويتفاعل معها، ويؤكد مالك بن نبي" أن الثورة يجب أن تحافظ على صفاء لغتها حتى تحافظ على قدرتها على تغيير الإنسان، وإذا تغيرت الكلمات بطريقة عكسية أوز غيرت في اتجاه آخر، فإن أثرها في بعث الإنسان سيأثر قطعا بسبب ذلك"[2]

لكن ماذا بعد الثورة؟ وماذا عن الاستقلال؟

ذكرنا " مالك بن نبي" بأن "الاحتلال" إذا أحس بانتهاء مهمته يلقي آخر قنبلة لتنسف الثورة وإلى الأبد، وقد فعل الاحتلال الفرنسي ذلك في الجزائر، بدليل فصل الصحراء عن الجزائر، ولكن الشعوب الحكيمة تتدخل في هذه اللحظات التاريخية الصعبة،وتعيد الطمأنينة إلى النفوس من خلال تهدئة النزاعات والفوارق الأيديولوجية، وتأخذ المصالحة بين أبناء البلد الواحد مكان التناحر، وتمر الأزمة التي تصاحب الحصول على الاستقلال، واسترجاع الكرامة الإنسانية بسلام ولابد من تحرير العقول من بقايا الاحتلال ورواسبه الثقافية، ولابد من حسم للمشكلات الموروثة عن الاحتلال. لكن حكم" مالك بن نبي" كان رزينا حينما تعلق بالثورة التحريرية المباركة، فلم يكن مبالغا في الإطراء،

---

[1] نفس المرجع ص:16.

[2] مالك بن نبي:"بين الرشاد والتيه ص:45؛ 16

ولا قادحا إلى درجة المبالغة والإساءة، وإنما ذكر أن الشعب الجزائري قام بدون شك بثورة مجيدة، لكن هذا لا يعني أنها خالية من الأخطاء في اطراد هل الثوري"[1].

إن الاحتلال الذي فرض التمازج الثقافي على فئة من السكان، وأدى تجهيل باقي سكان الجزائر، لم يرفق ذلك بتغيير اجتماعي يرفع المستوى التقني للشعب الجزائري "رغم التعايش" (المحتوم) الذي فاق قرنا من الزمن، حيث تم توجيه الثقافة الأهلية نحو الجانب الأدبي-البلاغي، السردي، وإبعادها عن "التقانة" التي كان يمكن أن تؤسس لتنمية مستدامة، وتضمن السيادة الوطنية من الناحية السياسية، ولذلك ينبغي تجنيب الثورة كل مزالق الإنحراف، أي تسريع الثورة فتتحول إلى ثورة مضادة التي تفجر نفسها من الداخل، أما على مستوى الوعي الثوري فلابد من تغيير الصورة التي ترتبط في مخيلتنا "بالآخر" (الاحتلال)، والتي لا تصنع الأحكام طبقا لعالم الأفكار، بل طبقا "لعالم الأشخاص". ويعطي مثالا على الامثلة الإيجابية التي يرفضها المسلم، وهي في حالة الأفكار المنطقية والأمثلة السلبية التي يتلقاها من " عالم الأشخاص" ويقبلها لأنها من جنسه.

لذلك فإن كل ثورة يجب أن تحصن نفسها من محاولات التخريب والتشويه، وعلى قادتها، ألا يكونوا أدوات في يد الاحتلال بفعل وسائل السلطة، ويتحولوا إلى إدارات ثورية مستهترة تقوم على علاقات سلطانية عوض المحافظة على نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية، والتي تتوافق مع المبادئ التي قامت على أساسها الثورة.

إن الرؤيا الثاقبة"لمالك بن نبي" حول مرحلة ما بعد الثورة، أثبتت الأيام والأحوال صدقها، فقد حذر من عقدة"الرفض" التي تنتهجها السلطة تجاه أي تعديل أو إصلاح، حيث ان النقد الذاتي مطلوب يدفع الأخطاء الخارجية، ويدفن الأخطاء الداخلية.

كما على الثورة أن تتخلص نهائيا من المناورات حول مسألة السلطة بما يوحي به الاحتلال، وأن تحرر نفسيا من هذه العقدة، وتلتزم بخط الواجبات لا

---

[1] نفس المرجع ص: 16.

الحقوق، فالواجب يستقطب النافعين، أما الحق فيستقطب المنتفعين، وقد حرص مالك بن نبيعلى تبيين هذه الفكرة في أكثر من موقع[1].

والفهم الحقيقي لثورة نوفمبر المباركة يلخصهـــا" مالك بن نبي"في قولـــه: "لايمكن لنا أن نفهم معنى فاتح نوفمبر 1954 كبعث وتحرير للإنسان إذا غابت عن أذهاننا عملية التلويث التي عاناها الإنسان الجزائري طيلة قرن ونصف"[2].

لاداعي لبذل جهد كبير في وضيح الأيديولوجية البسيطة للثورة للجزائرية التي صاغها الفلاح الجزائري في كلمة "الاسقلال"، ولاداعي للالتجاء لذهان التعقيد في نسبة هذه الثورة إلى مذهب عقائدي معين، فقد كان شعارها "الله أكبر"، وروادها " مجاهدون"، وعدوهم " الكفار" وباعتبارها نموذج إسلامي فإن ذلك لا يسقط عنها، أنها نموذج عالمي لكل حركة تحريرية، وحتى تسمية "جبهة التحرير الوطني" لم تخل من هذا البعد.

أخيرا نصل إلى الفكرة المحورية للمحافظة على ثورة التحرير المباركة وتجديدها المستمر وهو ألا نكون أداة لخيانتها.

فالمفكر مالك بن نبي ينبهنا إلى أن هناك نوعين من خيانة المجتمع.

- نوع يهدم روحه من خلال " الفراغ الاجتماعي" الذي تحدثنا عنه سابقا، وهو هدم المبادئ والأخلاق والروح.
- ونوع يهدم وسائله، من خلال الفراغ دائما بتوجيه الملكات المبدعة والفضائل الأخلاقية خارج عالم الوقائع والظواهر[3]

ما أحوجنا اليوم، ونحن نشهد تغيرا حاصلا في جبهة التحرير الوطني أن نتمسك بهذه المبادئ والقيم، ونفكر جديا في مشروع مالك بن نبي "حول علم الاجتماع الخاص بالاستقلال".

د/ راسمال عبد العزيز

---

[1] مالك بن نبي:"شروط النهضة"

[2] مالك بن نبي:"بين الرشاد والتيه" ص: 44.

[3] مالك بن نبي :"ميلاد مجتمع" ص: 91..

بعض آراء مالك بن نبي ونظراته الاستشرافية في التطورات العالمية

الأستاذ/ نور الدين خندودي

مـــالك بن نبي الذي وصفه الأستاذ محمد المبارك في مقدمته التي وضعها لمؤلـــف ابن نبي الرائع "وجهة العالم الإسلامي" فقال: **" أنا لا أقول بأنه (ابن نبي) ولكن أقول أنه ينهل من نفحات النبوة وينابيع الحقيقة الخالدة"** فاستباق الأحـــداث والتنبؤ بمجرياتها شأن من الشؤون التي يخص بها الله الأنبياء وقد يمتد ليشـــمل ورثـــتهم العلماء. والتوقع من سمات حيث تتبارى فيها الأمم لاستباق الأحداث وتوقعها.

مـــن هنا أبدأ حديثي عن جانب من جوانب فكر مالك ابن نبي الكثيرة وأركـــز مداخلتي على بعض نظراته وتوقعاته في مسار العلاقات الدولية ومآل الأحداث ودروسها ومستقبل مسار الأمم والشعوب في ظل التطورات العالمية، مستكشـــفا بواطـــن السياسات والكامن في الأفكار والتصورات وما تروم من أهـــداف، حتى أنه ليصل بنا إلى نتائج لا يرقى إليها الشك وكيف أنها تكشف عن معرفة دقيقة بجوهر السياسة الدولية ومسارها.

ولم تكـــن البواكير والإرهاصات والتوقعات التي أعلنها ابن نبي ضربات حـــظ خيالية أو مضاربات نظرية مجردة يسود بها صفحات كتبه، بل هي بمثابة تحذيـــر ودعـــوة إلى اتخـــاذ الحذر والحيطة في عالم أصبح فيه استباق الأحداث واستكشـــافها والاستعداد لها، علما قائما بذاته يغذي سياسات واستراتيجيات الدول والقوى التي تخطط للهيمنة على العالم أو تسعى للاحتماء من شرور إرادة الهيمـــنة والســـيطرة. في ظل رهانات عالم ماانفكت ضراوة المنافسة والعدوانية تشـــتد فيه. لقد كان مفكرنا الكبير يرتب النتائج على المقدمات بدقته وبعمقه المعـــروفين. موضوع حديثي أمامكم يتناول نماذج من التوقعات التي تطرق لها

المـــرحوم في تأملاته في شأن التطورات العالمية وكيف تحققت، استخلصتها من تحليلاته، وهي نماذج أسوقها للمثال وهي أيضا دعوة إلى الحكم على فكر رجل فذ بكل ما للكلمة من أبعاد.

كيف حكم بن نبي على الاتحاد السوفياتي بالانهيار؟

مـــتى سقط الاتحاد السوفياتي؟ الجواب : انهار الاتحاد السوفياتي في سنة 1989 وتأكد انهياره المحتوم عقب فشل الانقلاب الذي وقع على غورباتشوف في أوت 1991. ورغـــم ذلـــك وإلى هـــذا الـــتاريخ، لم يصدق الغرب بأن الإمـــبراطورية الشـــيوعية انهارت، وأحيلكم في هذا المجال على ما قال الرئيس الفرنســـي وقـــتذاك وهو فرانسو ميتيران من أن الأحداث في موسكو ربما هي مســـرحية الغرض منها خداع الغرب والانقضاض عليه، وطالب بتوخي الحذر فـــرغما ما للغرب من أجهزة ومراصد فإنهم لم يتيقنوا من مآل الأحداث ورغم بعض الدراسات التي تنبأت بهذا السقوط إلا أنها لم ترق حجيتها حدود الإقناع، وأذكـــر هـــنا كتاب هيلين كارير دانكوس المعروف والمرسوم: "الإمبراطورية المفجـــرة" (L'empire éclaté) إذ بنت نظرتها على عوامل الاختلاف الشديدة التي تكون الإمبراطورية السوفييتية من أديان وأصول وأعراق للحديث عن مخاطر زوال الاتحاد السوفييتي.

قبـــلها بأكـــثر مـــن عشرين عاما حكم ابن نبي على الاتحاد السوفييتي بالانهـــيار والنهاية وقدم في مناسبات عدة دلائل هذا الانهيار الزاحف والحتمي. كيف استحالت هذه الإمبراطورية ضعفا من بعد قوة؟

في منتصف الخمسينات، كانت الحرب الباردة على أشدها وظهرت قوة المعســـكر الشيوعي زاحفة تنذر بالهيمنة على العالم. هذا الواقع أربك المفكرين وزاد مـــن هواجـــس الساسة في الغرب إلى درجة أن بعضهم سلم بحتمية هذه السيطرة التي اعتبروا أن الأمر لا راد لها. وشكك البعض في مذهب احتواء المد الشـــيوعي (Doctrine du containment) الذي اعتمدته الولايات المتحدة من خلال الأحلاف العسكرية والتدخل العسكري في العديد من دول العالم الثالث وخصوصا الهند الصينية. ولا عجب فقد حقق الاتحاد السوفييتي السابق قفزات

علمية مكنته من استكشاف الفضاء وتفوق في منجزات أخرى مذهلة في ميادين شتى إلى درجة أن النشوة والازدهار جعلت الزعيم السوفياتي خروتشوف يتنبأ لنظيره الأمريكي بأن اليوم الذي سيعيش فيه حفيده في أمريكا شيوعية أضحى قريبا. الوطأة وصلت نفوس النخبة وجعلت بعض رموزها تشكك في النظرية الليبرالية ذاتها، كما فعل جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter في كتابه المشهور الموسوم "الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية"(Capitalisme, socialisme et Démocratie) والذي أظهر قناعة بأن الاشتراكية ستسود في نهاية المطاف وشومبيتر، للتذكير، حاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد ويعتبر مرجعا في الاقتصاد الليبيرالي .

المعروف عن ابن نبي معاييره ومقاييسه التي تنهل من الثقافة كما حدد مفهومها هو نفسه باعتبارها جوا عاما يموج في الإنسان وفيه تتحدد ملامح سلوكه ويطبع درجة فعاليته وذوقه وأعماله ومساعيه وحركاته اليومية وتقع نظرية ابن نبي الرائدة في الثقافة في بعض الجوانب حسب رأيي واستنتاجاتي الخاصة، بين المدرسة الثقافوية الأمريكية (Ecole culturaliste) بزعامة كاردينر (Kardiner) ولينتون (Linton) وميد (Mead) وما أنتجت من مفاهيم كمفهوم الشخصية الأساسية (La personnalité de base). ويقترب في جوانب أخرى من بعض ممثلي المدرسة الألمانية في دعوتها إلى التغيير، واستحضر هنا كورتسيوس (Curtius) وكتابه:" فكرة الحضارة" (L'idée de la civilisation) أين كتب : **"نحن الألمان نبحث عن معالم عملية بغرض التغيير ...)** إلى أن يقول : " **نحن الألمان نسعى إلى تحقيق أكبر قدر من إمكانيات التغيير**" التغيير يجب أن يكون هدف الثقافة.

من هنا يبدأ تحليلاتها وأحكامه.

لم أجد ابن نبي يبدي رفضا مطلقا ومسبقا للأفكار والنظريات مهما تكن مناهلها ومصادرها لمجرد أن عقيدتنا الإسلامية تمجها وترفضها، بل أنه يتجرد من الأحكام المسبقة ويتناولها من خلال نظرة علمية موضوعية، وقد يستخلص منها حقائق ومرتكزات وفوائد. وأود هنا أن أستسمحكم لأفتح قوسا وأقول كلمة عن تجربة بن نبي مع الشيوعية وما يسمى الأفكار التقدمية المصدرة إلى

البلدان العربية والإسلامية ومصدرها المخابر والمراصد وحتى الكنائس أحيانا، بقصد تضليل وإلهاء الشباب في عالمنا العربي والإسلامي. فقد عانى شخصيا من هؤلاء الممسوخين وأشياعهم في الجزائر الأمرين، وضيقو عليه كثيرا في نشاطه وحتى رزقه.

بيد أن هذه العوامل لم تمنعه من الاعتراف للنظرية الماركسية بمساهمات قيمة في الفكر الاقتصادي. فأتابع المدرسة الماركسية أغنوا الفكر الاقتصادي الكلاسيكي بمفاهيم القيمة المضافة (la plus-value) أو الإنتاجية (La productivité) .

ويعتبر ابن نبي أن النظرية الماركسية **"مؤسسة في الحدود التي يمكن أن تفسر فيها الظاهرة الاجتماعية تفسيرا اقتصاديا"**، كما لا يجب أن تحجب عن أذهاننا حقيقة أن الشيوعية هي التي زودت روسيا بقوتها الاقتصادية بعد أن نجح القادة الشيوعيون في غرس الفكرة الماركسية في ضمير الإنسان الروسي في بدايات تأسيس الاتحاد السوفياتي (كتاب : المسلم في عالم الاقتصاد).

وعلى طرفي نقيض من هذه الجوانب الإيجابية، يرى ابن نبي أن الفكرة الشيوعية تحمل في طياتها ضعفا كبيرا هو سبب خرابها الأول. فزاول جانبها المذهبي (L'aspect doctrinal) الذي يحقق لها النجاح في البدايات، يعرضها إلى ما يسميه ظاهرة "الشيخوخة الاجتماعية" (Vieillisssement social) والتسيب (rélachement) فإذا كان هذا الخطر يتهدد كل المجتمعات فإنه يتربص بالأحرى ومن باب أولى بالمجتمعات الشيوعية لأنه يصيبها في الصميم .

وعلاوة على عامل الشيخوخة الاجتماعية ، يعيب رابن نبي على الفكرة الشيوعية عجزها في الميدان الاقتصادي على تعويض بعض جوانبها السلبية التي تضر بالقدرة الإنتاجية في صميمها عندما تمس مثلا بمبدأ الملكية الخاصة أي عندنا تلغي أو تضعف الباعث الذي يحرك الإنسان (La motivation)، والباعث في نظر ابن نبي كما هو معروف قضية مهمة جدا في تحريك الإنسان وتفجير طاقاته وتحدد عامل فعاليته.

فابن نبي يرى أن الفكرة الشيوعية قد أتباعها في بداية الأمر بطاقة كبيرة وبباعث قوي ولكنهما سرعان ما يخبوان وتنطفئ شمعتهما، ويستلهم فكرته هذه

مـــن تجـــربة تاريخية معروفة هي تجربة القرامطة حيث كتب يقول: "**إن المجتمع الشيوعي الحديث سيعرف نفس مصير المجتمعات الشيوعية القديمة على غرار القـــرامطة الذيـــن انهار نظامهم بعد أن هددوا الدولة العباسية وهي في أوج قوتها**". والحالة معروفة تاريخيا، كما أنه استلهم حكمه من نموذج المجتمع الذي ساد المجتمع الفارسي قبل ظهور الإسلام.

ويعـــزز ابـــن نبي رأيه بما استخلصه شخصيا من ملاحظات في المجتمع السوفييتي عندما زار موسكو وما شاهد واستنتج في المجتمع السوفييتي من بوادر السقوط من خلال سلوكيات الناس الذين أصبح همهم تقليد الغرب.

ولكـــن قناعته رسخت وبراعته بانت عندما درس وتأمل محتوى التقرير الـــذي قدمـــته أكاديميـــة العلوم السوفييتية الشهيرة للقادة السوفييت بعد وفاة ستالين.

تـــتحدث الوثيقة عن ضعف في الطاقة الخلاقة (L'energie créatrice) لـــدى جميـــع ممثلي المهن والأعمال في البلاد. هذه مصيبة كبيرة ولكن المصيبة الأخطـــر منها هو اقتراح أكاديمية العلوم والقاضي باستدراك هذا العجز بمحفز مـــادي (Stimulant matériel) وقـــد وافق المؤتمر الواحد والعشرون للحزب الشـــيوعي على مقترحات الأكاديميين، فاستخلص بن نبي حكمه بأن الشيوعية تحتضـــر وأن ســـاعتها قد دنت وعلق على ذلك بعد تأمل المفكر بقوله : " **إنه خطر تطبيب الداء بالداء**

" (**La dangereuse thérapie de guérir le mal par le mal**). كتاب (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي فصل: جدلية الفكرة والشيء)، ومن جانبه ندد الزعيم الصيني ماو تسي تونغ بالموقف واعتبره تراجعا عن الشيوعية.

فحكـــم ابـــن نـــبي على العقيدة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي السابق بالاهتزاز لأن الشيء أصبح يهيمن على الفكرة (L'emprise de la chose sur l'idée) إنهـــا بداية النهاية. فالحضارة عنده هي ثمرة فكرة ويتولاها إنسان محفز. فالفكـــرة الشـــيوعية هي التي أنتجت ستاخانوف (Stakhanov)، ذلك العامل الـــنموذجي الـــذي حفـــزته الفكرة الشيوعية في بدايتها وجندته فأصبح ينتج أضـــعاف المطلوب منه من الفحم، تماما كما حفزت الفكرة الإسلامية عمار بن

ياسر الذي كان يضاعف من جهده ويعمل عمل رجلين عندما شرع المسلمون في بناء المسجد النبوي، هذه الفكرة خلفتها أفكار مميتة (Idées mortelles) تدعو إلى السعي للربح والمطالبة بما يسمى بالحقوق ولا شيء غير الحقوق والمزايا. وقد ذكر فوكوياما في كتابه: " نهاية التاريخ والرجل الأخير" في معرض شرحه لانهيار الاتحاد السوفييتي السابق عبارة دلالة وموحية تفوه بها عامل روسي: "**يتظاهرون بدافع رواتبنا ونتظاهر من جانبنا بالعمل**".أين روح الستخانوفية المندفعة من هذا التهرب وهذا التظاهر بالعمل! هذه الحيل وما يسود من أفكار ميتة أو مقتولة (idées mortes) وميتة (idées mortelles) تقتل الإرادة الحضارية. إنها تذكرنا بما يجري عندنا أدعوكم إلى تأمل عبارات من قبيل : " هف تعيش" و "القفزة والحفزة" و " وحشيشة طالبة معيشة" ، هذا هو الداء الذي يجب معالجته قبل النظر في أنماط التسيير ونماذج التنظيم في الاقتصاد وغيرها.

وهكذا إذن أصاب ابن نبي حيث أخطأ برتراند راسل وجوزيف شومبيتر وغيرهما وظهر بن نبي أكثر عمقا من فرانسيس فوكوياما وأمثاله.

ويعزز ابن نبي فكرته حول مآل النموذج السوفييتي بتقسيمه العالم إلى محوريين : محور واشنطن –موسكو ومحور طنجة- جاكرتا ، فلم يبال كثيرا بالصراع بين الشرق والغرب واعتبره عرضا تاريخيا عابرا لن يكتب له الدوام. ولم تكن فكرته بعيدة عن فكرة الجنرال ديغول الذي كان يعتبر تقسيم أوروبا الذي أفرزته الحرب العالمية الثانية قضية تاريخية مؤقتة، ستزول بامتحان الزمان. وكان الزعيم الفرنسي يتحدث عن أوروبا أفقية من حدود الأطلسي غربا إلى الأورال شرقا، وهذا التقسيم غير بعيد عن فكرة ابن نبي، كما يمكن أن نتصور. ولولا بغض ديغول لكل تدخل من جانب الولايات المتحدة في الشأن الأوروبي ولولا محاولته استبعاد حليفتها بريطانيا عن المسرح الأوروبي ، لأجزمنا أنه اعتمد تقسيم مالك بن نبي من غير زيادة أو نقصان. فأوروبا من الأطلسي إلى الأورال لا ينقصها إلا أمريكا وبريطانيا، لتشكل محور يمتد من واشنطن إلى موسكو. كما أن الزعيم الفرنسي كان يقول "روسيا" عوض "الاتحاد السوفييتي" لأنه كان يعتقد أن الحال لن يدوم كثيرا. هذا الجانب المؤقت في قضية الاتحاد

السوفييتي هو الذي جعل ابن نبي لا يعول كثيرا على الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي ليجد العالم الإسلامي خلاصا من الهيمنة والتحرش والظلم، كما سنرى فيما بعد عندما دعا إلى بروز كتلة جديدة تضم الدول الإسلامية والهند والصين تواجه محور القوة الواقع من واشنطون وموسكو.

المعجزة الصينية :

أعود لأؤكد أن ابن نبي لم يتناول التجربة الصينية من الزاوية المذهبية البحتة حتى يرفضها جملة وتفصيلا ومن الأول بحجة أن البلاد شيوعية، ولكنه درسها من حيث قدرتها على تجنيد الطاقات الظاهرة والكامنة في المجتمع الصيني وتمكنها من إحداث ديناميكية اجتماعية تقوم على مبدئه المعروف الذي وضعه كشرط لكل ديناميكية اجتماعية تضمن النهضة الاقتصادية ومؤداه: " **لقمة عيش لكل فم وكل السواعد يجب أن تعمل**". فالقادة في الصين تمكنوا من استبدال "الاستثمار المالي" المفقود أو الخاضع لشروط المؤسسات الدولية والمرابين في العواصم الغربية، بـ "الاستثمار الاجتماعي" الذي يعتمد على استعمال القدرات والإمكانات الذاتية على قلتها ومهما تكن قيمتها، فتمكنوا مثلا من تجاوز ورطة وصعوبة الاختيار بين " الصنع محليا أو الاقتناء من الخارج" (Faire ou acheter). وبعبارة أخرى، لقد نجحت الصين في إحداث توليفة الحضارة القائمة على الإنسان الصيني والتراب الصيني والزمن المتوفر.

وكأني أمام دعوة من ابن نبي المجتمعات الإسلامية لاستلهام التجربة الصينية لأنها أصلح لنا ولأنها أقرب إلى واقعنا الاجتماعي، وعليه فقد دعا في كتابه "المسلم في عالم الاقتصاد" إلى الاستلهام منها من حيث قدرتها على تجنيد الشعب والطاقات وخاصة في بدايات تطبيق سياسة اقتصادية عربية في البداية، تمتد جغرافيا بعدها إلى العالم الإسلامي كما دعا إلى اعتماد نظام اقتصادي قوامه الاكتفاء الذاتي (l'autarcie) بحيث يمكن أن تغلق حلقاته إذا ما دعت الضرورات الداخلية أو الخارجية لذلك. وقد حيا ما حققه الشعب الصيني في المجال الحضاري من خلال الإنجازات التي أثمرتها خطوات "الوثبة الكبرى إلى الأمام" (Grand bond en avant).

أمـــا عن أسرار نجاح الوثبة الصينية فيرجعها ابن نبي إلى يقظة القادة في الصـــين الذيـــن نددوا بالمحفز المادي الذي اقترحته الأكاديمية السوفيتية للعلوم لتعويض ضعف الطاقة الإبداعية للعامل السوفييتي، ولأنهم أدركوا أن المعارك الاقتصـــادية الـــتي تخوضـــها الأمم في بدايات مسيرتها إنما يحددها قطب القيم الأخلاقـــية أو قطب القيم الأخلاقية في بعديه المتمثلان في الواجب والحق، ففي بدايات نشأتها وعندما تضع أولى خطوتها في التاريخ، يجب على الأمم الفتية أن تجعـــل الأولوية للوجبات على حساب الحقوق وأن تجند الطاقات عوض تركها لتمـــة ســـائغة للحديـــث عـــن المطالـــب والحقوق الذي يعتمده الطوباويون والديماغوجيون لصرف الناس عن واجباتهم.

عندما أحست الصين بأن هناك محاولات لتحويل المجرى ليصب في خانة المطالـــب عـــلى حســـاب الواجبات، أعلنت الثورة الثقافية لتصحيح المسار، وللغربيين أن ينتقدوا ويهاجموا هذه الثورة.

لقـــد نجـــح هذا البلد في خلق ديناميكية اقتصادية في حين عجز العالم الإسلامي في ذلك لأن ماو ورفاقه اكتشفوا السر.

مـــا هو هذا السر ؟ إنه تغيير الإنسان . يحدد الزعيم الصيني الهدف من الثـــورة فـــيقول إنـــه **"تحويل المظهر الأخلاقي للمجتمع بتغيير ما في أعماق الإنســـان"**، بينما فشل المسلمون رغم أن القرآن الكريم جعل من الآية الكريمة ((**إن الله لا يغـــير مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**))، سنة لن تجد لها تحويلا وقانونا أبديا لن تجد له تغييرا.

وأزيد لأشرح ثناء ابن نبي على التجربة الصينية أن المتأمل بإمعان لها يخيل إليـــه أنها استلهمت سنن الله في عباده. فقد يبدو لنا الأمر وكأن الصين طبقت الحديث المشهور للنبي صلى الله عليه وسلم: **" لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهـــاد الأكبر"**، رغم أن قادتها من أبعد الناس عن ديننا. فالمقصود من الحديث هـــو جهـــاد الأهـــواء والميول الضارة كالمطالبة بالحقوق دون القيام بالوجبات وغيرهـــا من الأمراض الاجتماعية، وبعبارة أخرى يدعو الحديث الشريف إلى ضـــبط هذه الميول والأهواء وإخضاعها وتوجيهها نحو أهداف البناء والتنظيم. فعـــندما انتصـــرت الثورة الصينية في سنة 1949 لم يقم ماو بتوزيع المنافع على

رفاقـــه بحجـــة أنهم تصدوا للاستعمار الياباني أو لأنهم حاربوا جيوش شان كي تشيك أو أنهم شاركوه المسيرة الكبرى معه. و لم يدع أن مشاكل الصين انتهت بانهزام اليابان وخروج قوات شان كاي تشيك وفرارها إلى تايوان، وإنما دعا إلى العمـــل والاجتهاد، فلبس الشعب الصيني لباس العمل الأزرق المشهور، وتجند قاطـــبة لرفع التحديات التي يفرضها التخلف. وهكذا حق لشوان لاي أن يقول **"إن سياســـتنا لا تخطـــئ لأنها علم"**، بينما نعتصر كمدا لأن مخططاتنا وبرامجنا وسياســـاتنا فشلت، لأننا لم نسر على هدى من سنن الله في عباده. ولن أجافي الواقـــع والحقيقة إذا قلت بأن الصين عملت بهذه السنن و لم نعمل بها أبدا رغم وضوحها في دستورنا الأبدي.

وأنـــا أختم كلمتي عن التجربة الصينية، أذكر بأن المرحوم مالك بن نبي زار الصـــين عـــندما كـــان مديرا عاما لوزارة التعليم العالي في بداية الستينات واستقبله زعيما الصين وقتها، ماوتسي تونغ وشوان لاي.

نهاية الحقبة المتوسطية للإسلام

مســـتقبل الإسلام سيكون في آسيا، هذا ما نص عليه ابن نبي في تأملاته في العلاقات الدولية والوضع العالمي ومآله فقد توقع أن الحقبة المتوسطية للإسلام انتهـــت وأن مركز الثقل سينتقل من البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا. هل فقد ابن نبي الأمل في رؤية الشعوب العربية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط أي في الجـــناح الغـــربي للعام الإسلامي، تنهض من الاضمحلال وتفيق من سباتها العميق؟

مـــنذ سقوط دولة الموحدين سنة 1369 م وهي السنة التي يؤرخ بها بن نـــبي لـــنهاية الحضـــارة الإسلامية، أصبح الإنسان المسلم عاجزا عن إحداث التركيب التاريخي المطلوب لبناء الحضارة وسيبقى في هذا العجز ما لم يقض على مخلفـــات ســـتة قـــرون من الشلل الذي أصابه، "طبقا للتقاليد الإسلامية الحقة وللتجربة العقلانية الديكارتية" (كتاب : وجهة العالم الإسلامي). وعلى العكس تماما من هذا الحكم القاسي على إنسان ما بعد الموحدين الساكن في غرب العالم الإســـلامي والمقصود تحديدا الإنسان العربي، فإن ابن نبي توسم خيرا في شعبي

ماليزيا واندونيسيا، وقد كتب بشأنهما :**"إن إنسان جاوة دقيق وله حس النظام والتنظيم ويمتاز بحب التفصيل، إنه إنسان الوضوح والجوانب الإيجابية، إنسان التطبيق والتقنية والفنون كذلك"** .

ويـــرى ابن نبي في مسلمي آسيا ظهور " وعد بتركيب جديد للإنسان والتراب والزمن، وبالتالي ظهور حضارة جديدة" . (وجهة العالم الإسلامي) .

مـــنذ نهايـــة الحرب العالمية الثانية وآسيا تستقطب اهتمام الاستراتيجيين الغربيين بدأ من الإنجليزي جون هالفورد ماكيندر (Makinder) مبتدع العديد مـــن مفاهيم الجغرافيا السياسية والجيوسياسية وهو صاحب (الأساس الجغرافي للـــتاريخ) (Le pivot géographique de l'histoire) إلى زبينغنيو بريزنسكي مؤلف (الطريق الجديد للحرير) وما مشروع الشرق الأوسط الكبير إلا حلقة من حلقـــات هـــذا الاهـــتمام . وكان ابن نبي يتابع الرهانات التي تطرحها آسيا والمـــناورات التي تحاك لها.وتبرز عظمة المفكر كمنظر للعلاقات الدولية في كتابه (فكرة الإفريقية الآسيوية) وفيه دعوة لظهور توازن جديد يحفظ العالم الإسلامي مـــن الأطمـــاع والهيمـــنة لأنه كان يرى في نظرته الاستشرافية والاستباقية أن قسمات العالم التي سترسم بعد الحرب العالمية الثانية سوف تهدد العالم الإسلامي مـــا لم يتحد في كتلة جديدة تشمل الصين والهند والعالم الإسلامي تواجه كتلة القـــوة والإمكان الحضاري الذي يمثله محور واشنطن —موسكو في مقابل، محور الـــبقاء وغياب الإمكان الحضاري وهو الحيز الواقع بين طنجة وجكارتا. ومن شأن هذا التوازن أن يحفظ السلام العالمي كذلك.

غـــير أن الـــتطورات اللاحقـــة وغفلة المسلمين وإنشاء دولة باكستان والصـــراع الهندي الصيني على منطقة التيبت ثم فشل الوعود التي حملتها الفكرة الافروآسيوية، قد قضت على إحدى أكبر نظريات ابن نبي عمقا والتي أبان بها عن معرفة دقيقة لمكنون العلاقات الدولية والمآل الذي ستؤول إليه، وقد تحمس لهـــا أيمـــا تحمـــس وعانى من أجلها كثيرا كما فصل ذلك في كتابه : الصراع الفكري في البلدان المستعمرة، وهي الفكرة التي قتلها الجاهلون، كما قال بمرارة، وكـــان يقصـــد قـــادة العالم الثالث الذين خدعهم الاستعمار (كتاب : فكرة الأفريقية الآسيوية) . وقد اظهر ابن نبي براعة المنظر (théoricien) غير أنه تألم

وعـــز عليـــه وحزن لتجاهل القادة أفكاره وتصوره لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ما قيمة هذا التوقع ؟

أربعون سنة بعد صدور كتاب (فكرة الإفريقية الآسيوية) وما حوى من أفكـــار رائدة في العلاقات الدولية بقلم منظر ذو بصيرة، صدر كتاب (صراع الحضـــارات وإعـــادة صـــوغ النظام الدولي) لصامويل هنتغتون تحدث فيه عن مخـــاوف تحـــالف محتمل بين العالم الإسلامي والصين حيث كتب يقول " **إن المجتمعين الإسلامي والصيني ينظران إلى الغرب كخصم مشترك وتحدوهما كل أسباب التعاون بينهما للتحالف ضده**" (صفحة 269). هذا التحالف هو الذي دعـــا له ابن نبي كما رأينا و لم يلتفت إليه أحد، ورغم أن الأمور أخذت مجرى آخـــر إلا أنـــه احتمال لا يزال يؤرق مضاجع أهل السياسة والاستراتيجية في الغرب وما مشروع الشرق الأوسط الكبير إلا ثمرة لتفكير يراد من ورائه استباق مخاطـــر هذا التحالف، فما كيندار وبريزنسكي الذي يعمل على تحيين نظرياته يـــرى أن قلـــب العالم في وسط آسيا ومن يسيطر على هذه المنطقة إنما يضمن الهيمنة على العالم، والمتأمل في المشروع بإمعان وبعد الاستعانة بالخريطة سيدرك لا محالـــة أن الغرض هو تمزيق العالم الإسلامي والاستيلاء على ثرواته، ثم جعل الصـــين وروســـيا واليابان على حواشي هذه المنطقة وعلى أطرافها. يجدر إذن إعادة مطالعة كتاب الأفروآسيوية بتمعن لفهم هذه الرهانات.

كلمة عن قضية إنشاء دولة باكستان

رغم أن مسألة إنشاء دولة باكستان أصبحت تحصيل حاصل ويجب على المســـلمين أن يكونوا معها كما يمليه واجب التضامن الإسلامي والتآخي ورغم أن ابن نبي نفسه أصبح من المنافحين على هذه البلاد المسلمة وقد عبر عن وقوفه إلى جانـــب إخواننـــا في باكســـتان في حربهم مع الهند في سنة 1971 إلا أنه وللتذكير قد أصيب بمرارة لا توصف عندما أنشئت وانفصلت عن الهند واعتبر

ذلـــك كارثة على الإسلام تضاهي كارثة صفين وما أفرزت من تمزق للنسيج الإسلامي وظهور الملل والنحل بعدها.

أحببت أن أعود لهذه الحلقة من حلقات التاريخ الإسلامي الذي تعرض لـــلمكائد في ســـياق نظـــرته للتطورات العالمية التي هندس لها الغربيون طبقا لمصـــالحهم وعداوتهم للمسلمين. لقد اعتبر ابن نبي أن إنشاء دولة باكستان من مخططاتهم المستنبطة من نظريات ماكيندر ودهاء تشرتشيل، لأن مستقبل الإسلام يكـــون في هـــند موحدة. فلنتأمل الخريطة ولنضع أمامنا الخريطة ميزان الربح والخســـارة لـــنقدر ما حاق بالمسلمين من ويلات ومصائب من سوء تقديرهم وتهافتهم في موضوع الحقوق والاستقلال الناقص كما يسميه. فالدولتان خاضتا ثـــلاث حـــروب شابت لها الولدان لويلاتها وعند إنشاء باكستان بقيت أقلية مســـلمة تقدر مئات الملايين من البشر احتوتهم الهندوسية وذاقت الأمرين بفعل الحقـــد الهندوسي ولا تزال، وانتظر الأعداء الفرصة السانحة لتمزيق هذا الكيان فكانت حرب 1971 التي انفصل فيها الجانب الشرقي من الدولة الفتية وتسمى ببنغلاديش، كما أن كشمير المسلمة مأساة في ضمير كل مسلم يكتوي المصائب الـــتي تصب أهل هذه المنطقة. أما الهند فضيعناها و لم تعد في صفنا بل أصبحت حلـــيفا للعـــدو الصـــهيوني وبات الحليفان يكيدان ويتآمران ويتحينان الفرصة للقضاء على قوة باكستان النووية.

فلنتصـــور لو بقي المسلمون في دولة لشكلوا ثلث سكانه ولكانت شبه القـــارة الهندية في صفنا لا ضدنا ولن ندرك هذه الحقيقة ومرارتها إلا إذا تأملنا جيدا راهن العلاقات الدولية وما يحاك لدول الشرق الأوسط ولباكستان. الآتي أعظم إذا لم نتدارك الأمور ببصيرة وحكمة.

وأبني على المثال الباكستاني ومكائد الصراع العالمي وقائع أخرى جرت في السنوات الأخيرة وما عانه إخواننا في البوسنة والشيشان وكوسوفو وغيرها.

فالشعوب في هذه المناطق ذهبت ضحايا لما يسميه ابن نبي في كتابه القيم (الصراع الفكري) الإيحاءات (les insinuations) التي تطلقها المراصد المختصة في الغـــرب وتبـــثها مغلفـــة بحجج وإغراءات كالحقوق والمطالب والاستقلال المشبوه.

فقـــد قـــيل للباكستانيين من قبل : كيف تتعايشون مع الهندوس الذين يعبدون البقر وأنتم تستهلكونها ؟ طالبوا بانفصالكم وكان ما كان.ثم قيل نفس الحديث للمسلمين في الشيشان والكوسوفو والبوسنة أنهم لا يمكن أن يتعايشوا مع الصرب والكروات والروس، فثار المسلمون وكانت النتيجة ذاتها فارتكبت المجـــازر الرهيبة في حقهم من قبل مثلما ارتكبت الهندوس المتعصبين الفضائح في حق الباكستانيين .

وأربط خاتمة كلمتي بمقدمتها وأعود لعبارة الأستاذ محمد المبارك رحمه الله في شأن مالك بن نبي من أنه ينهل من النبوة وأذكر بما قاله المرحوم في آخريات أيامه عندما زاره في بيته مثقفون عرب في سنة 1973، فحذر من أننا إن لم نغير أنفسنا فسيغيرنا غيرنا إنها روح العصر وتنبأ بأن العقود الثلاث القادمة ستشهد تغيرات لم يعيشها العالم من قبل، فتماما كما تنبأ، فقد كانت سنة2003 بالفعل حبـــلى بـــالأحداث التي يراد من ورائها تغييرنا حسب مصالحهم وعلاوة عن مشـــروع الشـــرق الأوسط الكبير فإن العدو يريد أن يغير حتى مناهج تعليمنا وأسسه.

بهذه العجالة سأغمط لا محالة حق ابن نبي رحمه الله كثيرا، لأني لم أذكر كـــل توقعاتـــه وتنبؤاته التي تحققت سنين بعد أن أعلنها ببصريته وسعة اطلاعه وقـــدرة تفكـــيره. وسأمر على مثالين أرجو أن أبلغ بهما ما أروم به من وراء حديثي. فقد نص قبل غيره ومنذ نصف قرن تقريبا على اتجاه العالم بفعل العامل التكنولوجي نحو ما سماه "العالمية" (mondialisme) والعولمة التي تتخطى الحدود والحواجز سببها أصلا التقدم التكنولوجي وما أفرزه من شبكات اتصال وتبادل هائلـــة مســـت كل الجوانب. عندما كنت منكبا على ترجمة مؤلفه المعروف " الصـــراع الفكـــري" حيـــث نص فيه على أن الدولارات التي كانت تدفعها الولايات المتحدة للعديد من الدول الإفريقية والآسيوية لقاء بناء قواعد عسكرية أمريكـــية فيها إنما كان يخفي هدف إبعاد الضربات الصاروخية السوفييتية عن الحواضر الأمريكية ومراكز الإنتاج فيها هذه الدول لهذه الضربات، وقد وقع بين يـــدي مصـــادفة تقرير أعده ثلاث باحثين أمريكيين ونشرته الصحف في سنة 1999 بعد أن أطلعوا على وثائق سرية أمريكية بعد انقضاء الآجال القانونية التي

تحفـــظ طابعهـــا السري. مؤدى محتوى هذه الوثائق أن العديد من دول العالم الثالـــث، ومن بينها المملكة المغربية على سبيل المثال، كانت ستقصف بالسلاح النووي السوفييتي لو قدر واندلعت الحرب بين القوتين العظيمتين، أي كما قال ابن نبي بالتمام والكمال في سنة 1960.

عرض كتاب شروط النهضة
- لمالك بن نبي -

الدكتورة/ سعاد سطحي
جامعة الأمير عبد القادر

لقد كرس الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) حياته للإصلاح، وعمل في ميدان الفكر وتحلى بثقافة منهجية، مكنته من كشف أهم قضايا العالم المتخلف، وألف عدة كتب من بينها كتاب شروط النهضة الذي سوف نحاول بإذنه تعالى إعطاء نظرة عامة عما ورد فيه من أفكار جيدة ونفيسة .

احتوى هذا الكتاب على بابين :

الباب الأول والذي عنون بـ : الحاضر والتاريخ تناول فيه :

1. أنشودة رمزية .
2. دور الأبطال .
3. دور السياسة والفكرة .
4. دور الوثنية .

الباب الثاني والذي عنون بـ : المستقبل تناول فيه :

1. أنشودة رمزية .
2. من التكديس إلى البناء .
3. الدورة الخالدة .
4. العدّة الدائمة .

العنصر الأول : الإنسان .

فكرة التوجيه. توجيه الفكرة. التوجيه الأخلاقي. التوجيه الجمالي . المنطق العملي. الصناعة. المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي في بناء الحضارة. توجيه العمل.توجيه رأس المال. مشكلة المرأة . مشكلة الزي . الفنون الجميلة.

العنصر الثاني : التراب .

العنصر الثالث :الوقت .

ولقـــد نبه في كتابه شروط النهضة بأنه يجب أن نتنبه إلى حل المشاكل التي كانت عوامل مساعدة للاستعمار على تغلغله داخل البلاد .

وإن مشكلة كل شعب من الشعوب في حقيقتها هي مشكلة حضارته وأنه من المستحيل على أي شعب أن يفهم أو أن يجد حلولا لمشكلته إلا إذا سما بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وفهم فهما جيدا العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها .

إن الإسلام بما احتوى عليه من قوة روحية يعتبر درعا واقيا لمعتنقيه من الذوبان في شخصية المستعمر، فلقد حمى الشخصية العربية الإسلامية للشعوب التي استعمرت لعدة سنوات من كل محاولة طمس لها .

ولقـــد كـــان قولـــه ﷻ **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾** [1] أســـاس مـــنهاج حركة الإصلاح التي تولى زمامها العلماء الجزائريون، ولـــذا نجـــد أن هذه الحركة الإصلاحية كانت أقرب الحركات الإصلاحية إلى نفوس الناس وأكثرها تغلغلا إلى قلوبهم.

فصـــارت هـــذه الآيـــة شعارا لكل منضم لمنهج الإصلاح في المدرسة الباديســـية، وكانـــت قاعدة لكل تفكير، أينعت ثمارها وبرزت آثارها في كل مـــرحلة من مراحل الإصلاح حتى أيقن الشعب بأن التغيير ضرورة لا بد منه وأنه يجب إحياء شعائر المجتمع الإسلامي الأول .

وإن نشـــأة الحضـــارة كظاهـــرة اجتماعية لا يكون إلا في الظروف والشروط نفسها التي نشأة وظهرت فيها الحضارة الأولى .

وإن من سنن الله في خلقه أنه كلما اختفت الفكرة ظهر الصنم، وكلما ظهرت الفكرة اختفى الصنم .

والجهل في جوهره وثنية، لأنه ينصب أصناما بدل غرس الأفكار .

ويـــرى مالك بن نبي (رحمه الله) بأن الجزائر على الرغم من إسلامها كانت حتى سنة 1925 م تدين بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا، حيث كان

---

[1] سورة : الرعد ، آية رقم : 11 .

الجهـــل يدفـــع بالناس إلى الذهاب إلى هذه الأماكن طلبا للبركات، ولاقتناء الـــتمائم والتعاويذ (الحروز) التي كان يعتقد فيها الناس بأن لها أثرا وسحرا يصل إلى درجة المعجزات وخوارق العادات .

ولكـــن بـــبزوغ شمس الإصلاح والتغيير تحطمت تلك المعابد، وخرت الأوثان التي تحتويها منكسرة ومتلاشية، وخمدت نيران أهل الدروشة والزردة .

ولكن ما يؤسف له أن علماء الإصلاح عوض أن يقوّموا اعوجاج قادة السياســـة كـــانوا يسيرون معهم في الفلك نفسه، وبالتالي بعثت فكرة الزوايا ثانـــية، ولكن هذه المرة كانت ذات صبغة سياسية، والأصنام التي تحتويها ذات مسميات جديدة .

وغـــيرت أوراق الـــتمائم بـــأوراق الانتخابات، والمعجزات الكاذبة بمعجـــزات صـــناديق الانتخابات، والزردة التي كانت تتم في ساحات المشايخ بـــزردة الميدان السياسي، ومن حين إلى آخر كانت الأمة تعرض قربانا في هذه الزردة السياسية.

ويذكـــر الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) بأنه من الحقائق التي يجب علينـــا دائمـــا تذكـــرها وعدم الغفلة عنها أن الحكومة مهما كانت تعتبر آلة اجتماعية تتغير بحسب الوسط الذي تكون فيه، فإذا كان الشعب حرا ويرفض الاستعمار فإن الحكومة تعامله على هذا الأساس .

أمـــا إذا كانت عنده القابلية للاستعمار، فلا بد وأن تكون حكومته استعمارية، تقوم بنهب ماله وامتصاص دمه .

وهنا يذكرنا الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) بقوله ﷻ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [1] .

فبتغيير أنفسنا نساهم في تغيير الحكومة التي تتولى أمورنا .

إن العـــالم الإســـلامي بقي لسنوات طويلة خارج التاريخ يعيش بدون هـــدف ، ويعاني من المرض الذي أصبح جزءا لا يتجزأ منه، ويجب علينا لكي نقضـــي عـــلى هذا المرض أن نشخص هذه الحالة ونعرف حقيقة المرض لكي نعطي الدواء المناسب والشافي له .

---

[1] سورة : الرعد ، آية رقم : 11 .

وهـــذا المريض هو في حد ذاته يريد الشفاء من مرضه، فذهب مهرولا نحو صيدلية الحضارة الغربية بحثا عن ضالته هناك .

ولكن عندما نتمعن في هذه الحالة لا نجد بوادر الشفاء، ولا نعثر على حضارة لهذا العالم الإسلامي، رغم الجهود المبذولة، لأن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها .

إن الحضارة مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) وبين المجال الفكري .

فالمجـــال الحيوي (البيولوجي) هو المكان الذي يترعرع و يتقوى فيه هيكلها .

المجال الفكري هو المكان الذي تولد وتنمو فيه روحها .

فالعـــالم الإسلامي عندما يشتري منتجات هذه الحضارة الغربية، فهي تمـــنحه الهيكل والقالب العام والجسد، وتحرمه من روح الحضارة، حيث تقوم بتكديس منتجات الحضارة الغربية ولا نبني لأنفسنا حضارة حقيقية .

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت .

ويعطي لنا الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) مثالا على ذلك بالمصباح حيث يقول :

" ففـــي المصباح مثلا يوجد **الإنسان** خلف العملية العلمية والصناعية الـــتي يعد المصباح ثمرتها **والتراب** في عناصره من موصل وعازل، وهو يتدخل بعنصـــره الأول في نشـــأة الإنسان العضوية، **والوقت** (مناط) يبرز في جميع العملـــيات البيولوجـــية والتكنولوجية، وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين : الإنسان والتراب." [1]

ويوضـــح الأســـتاذ مـــالك بن نبي (رحمه الله) بأن للتاريخ دورة وتسلسلا، فهو يسجل للأمة مآثرها ومفاخرها، وأيضا عثراتها وكبواتها .

ولكـــي نحل مشكلاتنا الاجتماعية ونعالج مرضنا وجب علينا أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن نعرف أوضاعنا معرفة جيدة ومتفحصة، وندرك عوامل نهضتنا وازدهارنا وكذلك عوامل فشلنا واندحارنا .

---

[1] شروط النهضة ، ط : دار الفكر ، ص : 49 .

وبالتالي يسهل علينا أن نحدد مكاننا من دورة التاريخ، ونعرف أسباب وعوامل النهضة والانحطاط في تاريخنا .

وحل مشكلتنا التي نحن نتخبط فيها لا يكون باستيراد الحلول والمناهج الغربية، وفي اللجوء إلى التقليد الأعمى .

وفي ذلك يقول الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) :

" ... لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها ، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولا من المشرق أو المغرب، فإن في ذلك تضييعا للجهد، ومضاعفة للداء.

إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار .

وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ من ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة التي ندرسها .

فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية ومشاكل أخرى تولد في نطاق الدورة الإسلامية ."[1]

قال المولى ﷻ : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا** ﴾[2] وبالتالي يجب التمعن في سنن التاريخ التي لا تغيير ولا تبديل لها.

وأول ما يجب أن نبدأ به ونعرفه عن شعب حديث اليقظة من سباته ونومه العميق : هل هذا الشعب يملك أسباب وعوامل تقدمه وازدهاره ؟

يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[3]

فهذا النص القرآني يعتبر نصا مبدئيا للتاريخ التكويني .

ومن الملاحظ أن الدين له أثر في دورة الحضارة، فهذه الأخيرة لا تشع إلا بالعقيدة الدينية وفي ذلك يقول الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) :

---

[1] المرجع نفسه ، ص : 53 .

[2] سورة : الفتح ، آية رقم : 23 .

[3] سورة : الرعد ، آية رقم : 11 .

" فالحضـــارة لا تظهـــر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجا، أو هي ـــ على الأقل ـــ تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام ، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمـــس الحضـــارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبـــته، إذ حيـــنما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها ." [1]

العنصر الأول ـــ الإنسان :

يجـــب علينا أولا أن نكّون رجالا يواكبون التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب لتحقيق أهدافهم الكبرى .

وما نلاحظه أن الإنسان يؤثر في مجتمعه بفكره، وبعمله، وبماله .

فإن قضية الفرد منوطة بتوجيهه في ثلاث نواح، وهي :

1. توجيه الثقافة .
2. توجيه العمل .
3. توجيه رأس المال .

أولا ـــ توجيه الثقافة :

من الضروري أن نحدد أوضاعنا بطريقتين :

1. سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي .
2. إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل .

ومن الملاحظ أن الحضارة الإسلامية قد اشتملت على هذين التحديدين دفعة واحدة، فلقد جاء الإسلام لمحاربة الجاهلية بما احتوته من سلبيات، وأعطى البديل السليم الذي كان له دور فعال في التخطيط للمستقبل بطريقة إيجابية .

وهـــنا يذكرنا الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) بما قاله جعفر بن أبي طالـــب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة :" أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصـــنام و نأكل الميتة، و نأتي الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسيء الجوار، ويـــأكل القـــوي منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته و عفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده و لنعبده، ونخلع

---

[1] شروط النهضة ، ص : 56 .

مـــا كـــنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان و أمرنا بصدق الحديـــث، وأداء الأمانـــة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدمـــاء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة وأن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه و آمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده و لم نشرك به وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا ."[1]

ويذكـــر الأســـتاذ مـــالك بن نبي (رحمه الله) بأنه ليس المقصود من الـــتحديد الإيجابي وضع منهاج جديد للتفكير، وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية الضرورية للثقافة وهي :

1. الدستور الخلقي .
2. الذوق الجمالي .
3. المنطق العملي .
4. الصناعة .

ويعـــــرف الثقافـــة بقولـــه : " مجموعـــة من الصفـــات الخلقيـــة والقـــيـــم الاجتماعـــيـــة التي يلقاهـــا الفرد منذ ولادته، كرأسمال أولي في الوســـط الـــذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ."[2]

ثانيا ــ توجيه العمل :

يقول الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) :

" إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي عامة يعني سير الجهود الجماعـــية في اتجاه واحد، بما في ذلك جهد السائل والراعي وصاحب الحرفة، والتاجر والطالب والعالم والمرأة والمثقف والفلاح، لكي يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء ...

---

[1] صـــحيح ابـــن خزيمة ، كتاب : الزكاة ، باب : ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة حديث رقم : 2260 ، 13/4 .

[2] شروط النهضة ، ص : 89 .

وهكذا نجد أن توجيه الثقافة مع توجيه العمل يعدان ـــ دون أدنى شك ـــ للابســـي الأسمال وللعاطلين مكانهم في المجتمع، في ظل وارف من الكرامة والرفاهية ." [1]

وهنا يذكرنا الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) بـــ :

قوله ﷺ : " إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها ." [2]

و قوله ﷺ أيضا: " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ." [3]

و قوله ﷺ أيضا : " لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهـــره فيبـــيعها فـــيكف الله بها وجهه، خيرله من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه." (4)

ثالثا ـــ توجيه رأس المال :

ويقصد برأس المال، المال المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركـــته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجات الفرد الخاصة .

وأن ظهور تكوين رأس المال تزامن مع ظهور الصناعات الميكانيكية .

وتوجيه رأس المال يكون في تحريك المال وتنشيطه، لا بتكديس الثروة، وذلـــك بتحويل أموال الأمة من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك، ينشط الفكر والعمل ويبعث الحياة في البلاد .

العنصر الثاني : التراب:

يقول الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) :

" الـــتراب أحـــد العناصـــر الثلاثة التي تكون الحضارة، فإذا ما توفر (المركـــب الديـــني) لتركيب هذه العناصر فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديرا ببحثه هنا عاملا من عوامل الحضـــارة ." [1]

---

[1] المرجع نفسه ، ص : 114 و 116 .

[2] الأدب المفرد ، باب : اصطناع المال حديث رقم : 486 ، 138/1 .

[3] صحيح البخاري ، كتاب : البيوع ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، حديث رقم : 1402 ، 535/2 .

[4] صحيح البخاري ، كتاب : الزكاة ، باب : كسب الرجل وعمله بيده ، حديث رقم : 1966 ، 730/2 .

وكلامـــه عن التراب، لا يبتغي بذلك البحث عن خصائصه وطبيعته، ولكـــن البحث عن قيمته الاجتماعية المستمدة من قيمة مالكيه، وهذا التراب يرتفع قمة أو ينخفض انحطاطا تبعا لتقدم الأمة أو تخلفها .

العنصر الثالث ــ الوقت:

الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل .

يسعى الناس لصوت الساعات الهاربة، ويعرفون قيمتها التي لا يستعاض عـــنها بـــأي شـــيء آخر عندما يشعرون بضرورته للمحافظة على البقاء، أو لتحقيق التفوق على المشاكل والأخطار .

ففـــي هـــذا الوقت لا ينصب اهتمام الناس على الثروة أو السعادة أو الألم، وإنما يهتمون بالساعات نفسها .

فالوقت هو العملة الوحيدة الأغلى من الذهب، التي لا تبطل ولا تسترد إذا ضاعت .

إن الشـــعوب المسلمة لا تدرك من الوقت إلا اسمه، هذا الوقت الذي ينتهي عندها إلى العدم، فلا تعرف معناه ولا تجزئته الفنية، لأنها لا تدرك قيمة أجزائه من ساعة ودقيقة وثانية، ولا تعرف فكرة الزمن الوثيقة الصلة بالتاريخ .

واقـــترح مالك بن نبي أن نعلم المسلم علم الزمن، وذلك بأن يخصص كل فرد من أفراد الأمة سواء أكان طفلا أو رجلا أو امرأة نصف ساعة فقط يومـــيا للقيام بواجب معين فإذا فعل ذلك بصورة منتظمة وفعالة، ففي النهاية سوف يتحصل على ساعات عمل لمصلحة الحياة الإسلامية، في جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية .

وفي الأخير يقول:

" وســـيثبت نصف الساعة هذا عمليا فكرة الزمن في العقل الإسلامي، أي في أسلوب الحياة في المجتمع وفي سلوك أفراده، فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدى، ولم يمر كسولا في حقنا، فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي : وهذه هي الحضـــارة ." [2]

---

[1] شروط النهضة ، ص : 139 .

[2] شروط النهضة ، ص : 147 .

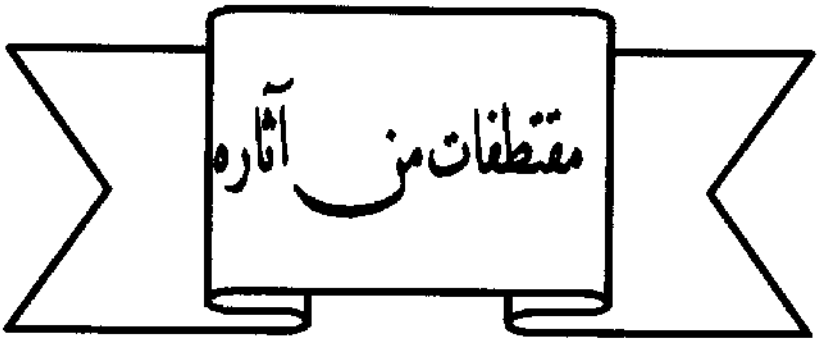
مقتطفات من آثاره

الأسس الحضارية لعالم الاقتصـــاد

إن الـــتغيرات الـــتي نشاهد نتائجها بعد مدة طويلة في عالم الاقتصاد، أحـــيانا، هي في جوهرها تغيرات حضارية تعتري القيم والأذواق والأخلاق في مـــنعطفات الـــتاريخ. بحيث تتغير معالم الحياة بتحول الإنسان نفسه في إرادته واتجاهه عندما يدرك معنى جديدا لوجوده في الكون.

وهـــذا التحول لا يؤثر في عالم الأشياء، ولا في المعقولات التي يتضمنها عالم الأفكار كأنماط تطبيقية (modalités opératoire)، أي لا يؤثر في عالم الاقتصاد بنوعيه — الشيء المصنوع والفكرة الدالة على طريقة صنعه- مالم يؤثر في محـــتوى الـــنفوس ذاتها، طبقا للآية الكريمة : ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).

ولو تدبر أهل الاختصاص في الاقتصاد من المسلمين، هذه الآية، أدركوا أنهـــا تضع هذه القضية وغيرها مما يخص أوضاع المجتمعات أولا في مستوى تغير مبررات الوجود في المجال النفسي، وفي كلمة واحدة وبصورة أوضح في المستوى الحضاري.

* المسلم في عالم الاقتصاد- دار الفكر دمشق سوريا- طبعة 1979 الصفحة 61

دور المال في اختزان العمـــل

إننا منذ الخطوة الأولى نفرن، في أذهاننا أو في مشروعاتنا ، قضية العمل بقضـــية المال، بحيث أصبح العمل مقيدا بشروط مالية لا ينطلق بدونها حتى في الـــبلاد الشيوعية الكلاسيكية، حيث لم تتغير هذه الشروط إلا في ملكية المال لا في دوره أساسا.

تحولـــت فعلا ملكية المال في هذه البلاد الشيوعية من الأيدي الخاصة أو البنك إلى يد واحدة، يد الدولة، ومن البنك إلى الخزينة.

ويكفـــي الزائـــر لموســـكو، على سبيل المثال، أن يرى تلك الدكاكين الخاصة، حيث يستطيع هو شراء ما يريد وبأثمان محددة ولكن بالعملة الصعبة، ولا يستطيع ذلك المواطن بالعملة المحلية.

فـــلا نـــرى أن العمل تخلص، على هذه الصورة، من القيود المالية، ولا تخلصـــت منها الأذهان أيضا. بحيث لا يزال المال مهيمنا عل تسخير العمل، مع بعض التخفيف درجة القيود عندما تنتقل من البلاد الرأسمالية الصريحة، إلى بلد شـــيوعي كلاســـيكي، حيـــث يصبح المال وكأنه يخفي دوره أو لا يخفيه في يوغوسلافيا ورومانيا.

[٢] المسلم في عالم الاقتصاد- دار الفكر دمشق سوريا- طبعة 1979 الصفحة 69

رسالتنا في العـــالم

هـــذا هو المقياس الذي يمكننا استخراجه من استعارة ((المجمع)) لتقيس به في موضوعنا. فإن الشعوب تعيش اليوم في ((مجمع)) عالمي وحظها فيه يقدر حـــتما عـــلى أساس تخصصها بالنسبة إلى مصلحة تمثل الهدف الذي تسير إليه الإنسانية خلال التطورات التي حدثت في تاريخها منذ الحرب العالمية الثانية. فلا بـــد لـــنا إذن من توضيح فكرة التخصص في التاريخ حتى نكون على بينة من مداهـــا في حياتنا. فإن هذه الفكرة قد دخلت التاريخ منذ ستة أو سبعة آلاف ســـنة حينما حدثت الثورة الزراعية التي غيرت جميع الأوضاع الاجتماعية التي كانـــت تعيش عليها الإنسانية من قبل. ولقد كان من بين نتائج هذه الثورة أنها أحدثـــت ما يسمى في علم الاجتماع ((تقسيم العمل)) الذي أدى بالتالي إلى التخصـــص المهني. إ[التخصص الذي يجعل كل فرد يعرف مواهبه في الحصول عـــلى مهـــنة معينة تجلب له قوته وتضعه بالتالي في مركز معين في المجتمع. ومن المعلوم أن هذه المهن كلها تعبر عن مختلف الحاجات في المجتمع ولا نستطيع أن نتصور مهنة دون حاجة معينة.. وهذا يعني أن مركز الفرد في المجتمع يحدد على أساس الحاجة التي تلبيها مهنته ويسدها تخصصه.

* حديث في البناء الجديد- منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت - الصفحة 146

الاستعمار يفتح وجهة ثالثة في التاريـــخ

عـــندما يترل جيش أجنبي بأرض شعب، فإن هذا الشعب يكون معرضا ليرى إما احتلالا مؤقتا في بلاده، وإما عملية ضم تضعه نهائيا تحت سلطة شعب آخر.

وكلا هذين الاحتمالين له خصائصه بالنسبة للشعب الذي يتعرض لهما:

فأمـــا الاحـــتلال المؤقت فإنه لا يؤثر في حياته إلا بصفة عابرة كمجرد حـــدث يخضـــعه مؤقتا لحاجات جيش أجنبي يفرض متطلباته من حيث الأمن والتموين في البلد المحتل وذلك طبقا لشروط يهيمن عليها قانون عسكري ينتهي نفوذه مع تصفية الوضع الحربي.

وأمـــا في حالة الضم فإن الأشياء تتخذ اتجاها آخر يؤثر في حياة الشعب جـــرت علـــيه عملية الضم من الداخل، حتى إنه يغير أحيانا مصيره في التاريخ بصورة مطلقة، وعندما يقع مثل هذا التغيير، فهو يظهر في صورة مجتمع جديد، تكون فيه البناءات الداخلية نتيجة اندماج خصائص الشعبين العنصرية، مصهورة في بوتقـــة أسرة جديدة، وهذا الاندماج قد يكون أحيانا مطبوعا بخصائص أحد الشـــعبين أكـــثر من خصائص الشعب الآخر، وليس حتما أن تكون خصائص الشـــعب الغالبة هي ذاتها خصائص الشعب المنتصر، فالصين على وجه المثال لم تتخذ طابع الشعوب التي احتلت أرضها عبر التاريخ، كالغول والمندشو، بل هي التي وضعت طابع حضارتها العريقة على تلك الشعوب.

* في مهب المعركة- دار الفكر دمشق سوريا- طبعة الثالثة 1981 الصفحة 32

الصراع الفكري في البلاد المستعمرة

إن واقعة صفين فصمت الوحدة الشاملة التي بناها محمد -صلى الله عليه وسلم – بأمر من ربه، فحطت بذلك من مستوى المعركة التي بدأت يوم بدر، وهذا الحط أو الهبوط الأيديولوجي لم يلبث أن أتى بنتائجه المشؤومة في الميدان السياسي... مصداقا لقوله عز وجل ((وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)) (الأنفال 46/8).

إن الاستعمار يطبق ضمنا هذه الاعتبارات في خططه المقررة ضد كفاح الشعوب المستعمرة: إنه يهدف أولا، إلى الحط من مستوى كفاحهم الأيديولوجي، وذلك بأنه يحاول قبل كل شيء فصم الوحدة الشاملة التي تضفي على ذلك الكفاح القداسة وتهبه قيمة خلقية عليا، وهو يعلم أنه يحقق بذلك الأهداف السياسية المقصودة.

* الصراع الفكري في البلاد المستعمرة- دار الفكر دمشق سوريا- طبعة الثالثة 1988 الصفحة 42

دور السياسة والفكرة

إن الكـــلمة لمن روح القدس، إنها تساهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعـــية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه، لتحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة.

فالكلمة يطلقها إنسان، تستطيع أن تكون عاملا من العوامل الاجتماعية حين تثير عواصف في النفوس تغير الأوضاع العالمية.

وهكذا كانت كلمة جمال الدين، فقد شقت كالمحراث في الجمع النائمة طـــريقها، فأحيت مواتها، ثم ألقت وراءها بذورا لفكرة بسيطة: فكرة النهوض، فسرعان ما آتت أكلها في الضمير الإسلامي ضعفين، وأصبحت قوية فعالة، بل غيرت ما بأنفس الناس من تقاليد، وبعثتهم إلى أسلوب في الحياة جديد.

وكـــان من آثار هذه الكلمة أن بعثت الحركة في كل مكان، وكشفت عـــن الشـــعوب الإسلامية غطاءها، ودفعته إلى نبذ ما كانت عليه من أوضاع ومـــناظر، فأنكـــرت من أمرها ما كانت تستحسن، واتخذت مظاهر جديدة لا تـــتلاءم حـــتى مع ثيابها التي كانت تلبسها، فنبذت النرجيلة والطربوش والحرز والزردة. ولقد بلغ تأثير تلك القوة الفعالة الجزائر فأخذت منها بنصيب.

فمأساة الجزائر مثلا حتى سنة 1918 لم تكن إلا رواية صامتة، أو أثرا من الآثار التاريخية وضع في متحف، أي في صدور قوم صامتين يعلمون السر الخفي للمأساة، حتى أرقت ضمائرهم، واحتوته أيضا ملفات الحكومة التي كانت تعلم مـــن أمـــرها مـــا تعلم، حتى إذا ظهرت الفكرة الإصلاحية حوالي سنة 1925 تحركت المشكلة الجزائرية، وقد أوتيت لسانا ينطق، وفكرة تنير لها الطريق.

* شروط النهضة- دار الفكر دمشق سوريا- الصفحة 22

من التكديس إلى البنـــاء

لقـــد ظـــل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهرا طويلا كأن لم يكن له هدف، استسلم المريض للمرض، وفقد شعوره بالألم حتى كأنه يؤلف جزءا من كـــيانه. وقبـــيل ميلاد هذا القرن سمع من يذكره بمرضه، ومن يحدثه عن العناية الإلهـــية التي استقرت على وسادته، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم. وبهذه الصحوة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الإسلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها: النهضة. ولكن ما مدلول هذه الصحوة؟ إن من الواجب أن نضع نصب أعيننا((المرض)) بالمصطلح الطبي لكي تكون لدينا عنه فكرة سليمة: فإن الحديث عن المرض أو الشعور به لا يعني بداهة ((الدواء)).

ونقطة الانطلاق هي أن الخمسين عاما الماضية تفسر لنا الحالة الراهنة التي يوجـــد فيها العالم الإسلامي اليوم، والتي يمكن أن تفسر بطريقتين متعارضتين: فهي من ناحية : النتيجة الموفقة للجهود المبذولة طوال نصف قرن من الزمان من أجل النهضة .

وهي من ناحية أخرى: النتيجة الخائبة لتطور استمر خلال هذه الحقبة، دون أن تشترك الآراء في تحديد أهدافه أو اتجاهاته.

ومـــن الممكـــن أن نفحص الآن سجلات هذه الحقبة، ففيها كثير من الوثـــائق والدراســـات، ومقـــالات الصحف، والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضـــة، هـــذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم، واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أعني دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا تدع مجالا للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون.

* شروط النهضة- دار الفكر دمشق سوريا- الصفحة 40

المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي
في بناء الحضارة

ما من حوار شجر بين الرجل والمرأة، منذ آدم وحواء، سواء كان ذلك في صـــورة رمزية ترمز إليها بعض الإشارات أو كان في صورة لغوية تنطق بها بعض الكلمات إلا والمرأة تحاول أن تظهر من خلال هذا الحوار في مظهر الجمال بيـــنما الـــرجل يحاول أن يتخذ له مظهر القوة في حين أن القوة هنا ضرب من الجمال كذلك الجمال الرياضي الذي تعبر عنه الألعاب الأولمبية، كما يصورها نحت فيدياس الخالد.

وإن هـــذا المظهر من قبل المرأة. وتلك المحاولة من طرف الرجل ليعبران عن ذوق الجمال في أبسط صوره، كما أنهما المرجع البعيد الذي إليه يرد تاريخ كل فن ومولده.

فكـــل علاقـــة تنشأ بين المرأة والرجل ، مهما تكن درجة البساطة في المجتمع الذي يعيشان فيه تقع بطبيعتها، وبحكم الغريزة. تحت قانون ذوق الجمال بما فيه من بساطة أو تعقد حسب تطور ذلك المجتمع.

والفنون جميعها: التصوير والموسيقى والشعر والنحت الخ.. إنما تعبر عن تلك العلاقة خلال القرون وعبر التاريخ.

* شروط النهضة- دار الفكر دمشق سوريا- الصفحة 99

عالم الأفكـــار

إن مجتمعنا في المرحلة السابقة على تحضره يواجه نشاطاته البدائية بحوافز وطرق عملية، تمثل عالمه الثقافي المتواضع.

ومـــع ذلـــك وحتى في هذه المرحلة فإن هذا العالم يشتمل على أفكار- رائـــدة، (نماذج) يرثها الجيل عن الجيل السابق ويرثها الذي يليه، وأفكار عملية يواجـــه بها كل جيل الظروف الخاصة بتاريخه، بع أن يدخل عليها تعديلا قل أو أكثر يلائم مسيرته.

أمـــا الأفكـــار الرائدة التي تحتضن نشاطه، فهي في هذه المرحلة مخزونه الأخلاقي.

وأما الأفكار العملية التي توجه نشاطه فهي وسائله التقنية.

فـــإذا ما انتقل المجتمع إلى المرحلة التالية فاستقل سيرورة حضارة ما فإن تحوـــله هذا يستجيب بالضبط لثورة ثقافية تعدل بقليل أو بكثير وسائله التقنية، وفي الغالـــب يكـــون الـــتعديل محـــدودا، لكنها تقلب بصورة جذرية قاعدته الأخلاقية.

* مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- دار الفكر دمشق سوريا- الصفحة 57-58

تغيير الإنسان

وبالفعل فالثورة التي لا تحركها هزة تكاد تكون شطحة صوفية فليست بثورة.

والتغييرات الثورية تصبح حلما من الأحلام إذا لم تقم على هذا الشرط، فتحويل سلطة سياسية من أيد إلى أخرى، وإعادة تنظيم الإدارة وأجهزة العدالة، وتغـــيير العملة، وتعديل النظام الاقتصادي، هذه كلها أمور تدخل بطبيعة الحال في نطاق الظاهرة الثورية.

وقـــد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، وقد يسند إلى أبناء الوطن وظـــائف كـــل المستعمرون يشغلونها، وقد تستبدل بالحروف اللاتينية حروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت، إلا أن التغييرات هذه جميعا تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه.

وقـــد يرتفع متوسط الدخل الفردي أيضا، دون أن يكون ذلك المقياس الصحيح الذي به تقاس الثورة.

إذ لـــو كـــان الأمر يقتضي مجرد زيادة في الأجور وفي وجبات الطعام، لكـــان عـــلى حد تعبير(جيفارا) مع تصرف قليل في كلماته... لكان استعمار جديد له نصيب من الذكاء أقرب إلى النجاح بالمعنى الثوري المحرف.

ولقد كان الشعب الجزائري الثائر، على إدارك تام لقضيته، عندما قال: ((لا))، في اســـتفتائه على مشروع قسنطينة، الذي كان يمنيه ويعده الاستجابة لكل ما قد يكون له من رغبات مادية.

فـــثورة ما لا تستطيع بناء وضع جديد والحفاظ على مكتسباتها إلا إذا كان أثره في تصفية الاستعمار، فعالا في تصفية الإنسان من القابلية للاستعمار، قضية الاستعمار في الإنسان تشرط تصفيته في الأرض ويجب أن تتقدمها.

* بين الرشاد والتيه- دار الفكر دمشق سوريا- الطبعة الأولى 1978م الصفحة 51

التاريخ والعلاقات الاجتماعية

فالعمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعا، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يتم عمل تاريخي إذ لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة لتربط أجزاءها في نطاقها الخاص وبين هذه العوالم، لتشكل كيانها العام، من أجل عمل مشترك.

وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة، فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها- وهي التي تتجسم في صورة ((حضارة)) يعد حضارة أيضا. وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود ((عالم)) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية أو ما نطلق عليه ((شبكة العلاقات الاجتماعية)).

ولقد أشرنا فيما مضى إلى أن المجتمع ليس مجرد كمية من الأفراد، وإنما هو اشتراك هؤلاء الأفراد في اتجاه واحد، من أجل القيام بوظيفة معينة ذات غاية، ونضيف الآن أن ((عمل)) المجتمع ليس مجرد اتفاق ((عفوي)) بين الأشخاص والأفكار والأشياء، بل هو تركيب هذه العوالم الاجتماعية الثلاثة، بحيث يحقق ناتج هذا التركيب في اتجاهه وفي مداه ((تغيير)) وجوه الحياة، أو بمعنى أصح: تطور هذا المجتمع.

* ميلاد مجتمع- دار الفكر دمشق سوريا- الصفحة 24

التقليد و (التمثل assimilation):

إن الـــذي يحصل بالفعل ، هو أن المجتمع الإسلامي، يقوم بتجربة مؤلمة، مـــنذ نصـــف قرن، وإذا أردنا الدقة قلنا منذ منتصف القرن التاسع عشر. فهذا المجـــتمع قد انضوى – منذ أن استيقظ على ضربات الترعة الاستعمارية، وعلى نـــداء رجـــال من أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده – في حركة (النهضة) : وقد تعورف على تسمية هذه المرحلة بالنهضة — وهي المرحلة التي تـــبدأ مـــنذ اليقظة الأولى لهذا المجتمع حوالي سنة 1858، وتستمر حتى وضعه الـــراهن- ولكنـــنا إذا ما حللنا هذه المرحلة لإبراز خصائص الفكر الإسلامي، طوال هذا القرن من تطوره، نجدها تنقسم إلى ثلاثة عصور متميزة:

أ –عصر النوم الذي استمر قرونا عديدة.

ب–وعصر الانتباه أو استرداد الوعي.

ج– وعصر الفوضى والذبذبة الراهنة.

وهذه العصور الثلاثة تتطابق بدقة، مع الأطوار الثلاثة لتجربة الطفل:

أ– الطور الأمومي: حيث لا يكون لدى الرضيع المتشبث بثدي أمه أي مفهوم لعالم الأشياء.

ب– والطـــور (قـــبل الاجتماعي) حيث يبدأ الطفل في الدخول إلى عالم الأشياء، وإن كان لا يزال يجهل كل شيء عن عالم الأفكار.

ج– والطـــور الاجـــتماعي (المدرسي وما بعد المدرسي) حيث يحاول الطفل أن يقيم في داخله الصلة بين عالم الأشياء وعالم الأفكار.

ولو حاول موجهو العالم الإسلامي تأمل هذا التخطيط البسيط، لتفهموا بكـــل تأكـــيد، وبطريقة أفضل، الآلية النفسية المهيمنة على تجربة الجيل الإسلامي الراهن، والصعوبات التي يتعين على هذا الجيل التفوق عليها، وكذلـــك المشـــاكل الـــناتجة عـــن هذه الصعوبات في المجال السياسي والاجتماعي.

* فكرة كمنوليث اسلامي-دار الفكر- ط2سنة 1990 -ص26-27

رسالة المسلم

فالـــيوم أيضا إذا أراد المسلم أن يقوم برسالة، فهذا يتطلب نوعا مـــن الإعجاز تفرضه الظروف الخاصة التي تمر بها الإنسانية اليوم، على اعتبار أن الإعجاز هو مجموعة شروط منطقية وغير منطقية أعني خارجة عن المنطق، مجموعة شروط تحقق أمرين : الاقتناع والإقناع.

الاقتناع أولا لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن للمسلم إن لم يقتـــنع بأن له رسالة أن يبلغ الآخرين الرسالة أو فحوى هذه الرسالة أو مفعـــول هـــذه الرسالة. إذن يجب أن يقتنع هو أولا. وأنا أعني قناعته برســـالته في الثلـــث الأخـــير من القرن العشرين ولا أتكلم عن اقتناعه بديـــنه.فكـــل مسلم مقتنع بدينه من يوم أن نزلت الآية الأولى في غار حـــراء. ومـــن يحاول أن يأتي للمسلمين بوسائل لاقتناعهم بدينهم فإنما يضيع وقته وربما يضيع وقت المسلمين أنفسهم.فالمهم في الأمر اليوم أن نلاحـــظ أن الشـــكوك الـــتي تسربت إلى عقول الآخرين عن المجتمع الإســـلامي إنمـــا تتناول رسالة المسلم لا عقيدته . فهل الإنسان الذي يستمع إلى المسلم وهو يتحدث عن رسالته. إنسان تفحص أو راجع أمر القـــرآن مـــن حيـــث هو فكرة صحيحة. إن هذا هو من شأن بعض الأخصـــائيين بعض الأفراد من النخبة مثل لامارتين الذي خصص أكبر فصـــل كتـــبه إنســـان لحياة النبي صلى الله عليه وسلم أو برناردشو أو توماس كارليل . أما المجموع الغفيرة من الناس فلا تصبر لتدليلنا المنطقي

أن الله واحـــد لا شريك له، وان النبي رسوله، وأن هذا الدين صحيح . لقد أصبح هذا كله مسلمات.

أما بالنسبة للآخرين، فإن كان من النخبة فيمكن أن يدركه من خـــلال كلامـــنا، وهو في الحقيقة لا ينتظر كلامنا، بل ينصرف بجهده الخاص إلى هذا النبع من النور ويشعر بأن الإسلام فعلا حقيقة منزلة من السماء.

* دور المسلم رسالته–دار الفكر–سنة 1989–ص: 50-51

توجيه الأفكار

مشـــكلة الـــثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجـــيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه، فهـــو بصـــفة عامة قوة في الأساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف: فكـــم من طاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نكتلها، وكم مـــن طاقات وقوى ضاعت فلم تحقق هدفها حين زحمتها قوى أخرى صادرة عن المصدر نفسه، منتجة إلى الهدف نفسه.

فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين الســـواعد العاملـــة والعقـــول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تســـتخدم في كل وقت : والمهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية.

وهـــذا الجهـــاز حـــين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية : وبلغة الاجتماع: الإنسان الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح).

مشكلة الثقافة-ط4- 1984-القاهرة ص:67

فكرة الأفرسيوية والعالمية

فهـــناك دائمـــا وحـــدة في المشكلة الإنسانية تنبثق عن المصير المشـــترك، وهـــي من حيث كونها مجرد مفهوم ميتافيزيقي متفاوت في درجة وضوحه –كانت تجعل المؤرخ الذي يتجاهل هذا التصور للأشياء أو يعارضه في موقف يمكنه ويحق له فيه أن يجهلها . ولكنها قد أصبحت واقعـــا ماديـــا، فوحدة التاريخ تتأكد في القرن العشرين بطريقة لا تدع مجـــالا للفكرة الكلاسيكية المألوفة، فكرة (الوحدات التاريخية) المستقلة، حيـــث تفهم كل وحدة في حدودها، فلقد دخلت الإنسانية مرحلة لم يعـــد ممكنا فيها تحديد (مجال الدراسة) الخاص على طريقة جون توينبي (J.Toynbee) ولعلـــه لـــلمرة الأولى ينـــبغي على التاريخ أن يضع مشـــكلته منهجيا في المصطلحات الميتافيزقية. فالفكر الديني الذي أبعده الـــتطور الديكارتي، وجهود الباحثين والعلماء عن نظريات التاريخ قد عـــاد غلـــيها بطـــرق عقلية حتى ولو عبرنا في مصطلحاته عن المشكلة الأساســـية الـــتي تتصور طبقا لها جميع المشكلات الأخرى لعبرنا عنها بمشـــكلة خلاص الجنس البشري، وتلك هي المرة الأولى التي تواجه فيها المشكلة مواجهة كلية، ولقد كان اعتناق تشرشل لفكرة التعايش حدثا يسجل هذه القضية في صحوة هذا الضمير . ولكن المشكلة تتضح على حقيقـــتها أكـــثر من ذلك في تفكير الرجل المتدين الذي يرى أن توقع التاريخ يصب دائما في الأبدية، لأن ضميره يضيء المشكلة من داخلها.

* فكرة الإفريقية الآسيوية-دار الفكر –ط3-2001ص: 201.

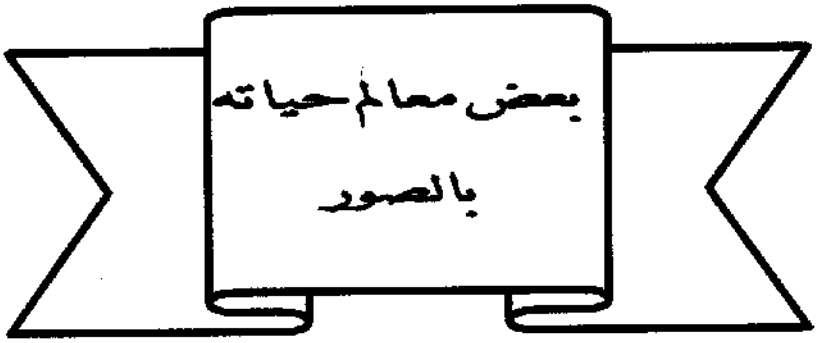
بعض معالم حياته
بالصور

السيدة: حرم مالك بن نبي

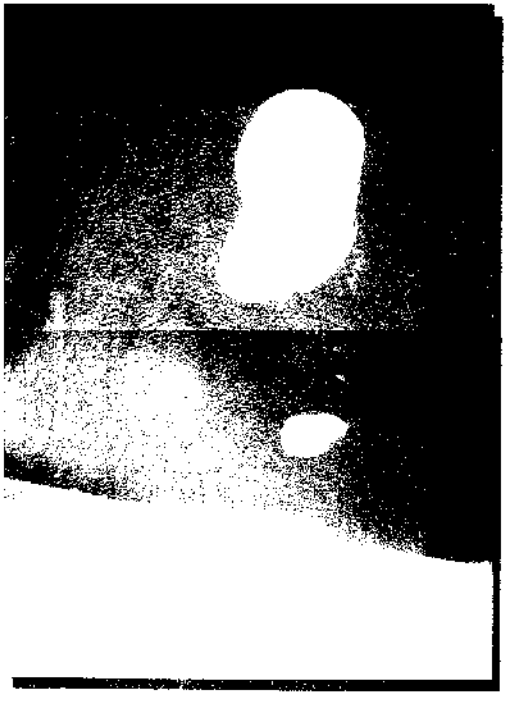

السيدة: ابنة مالك بن نبي

من اليمين إلى اليسار: الوزير نور الدين بوكروح، السيدة حرم مالك بن نبي، والي ولاية قسنطينة، الوزير عمر كامل المسقاوي في ندوة مالك بن نبي بجامعة الأمير عبد القادر في 02 فيفري 2005

افتتاح ندوة مالك بن نبي بجامعة الأمير عبد القادر يوم 2005/02/02

مالك بن نبي في القاهرة مع مجموعة من طلبته ومريديه، منهم: عمر كامل المسقاوي

مالك بن نبي في القاهرة في الخمسينات من القرن 20 مع مجموعة من الأصدقاء والطلبة

مالك بن نبي في القاهرة في الخمسينات من القرن 20 مع مجموعة من الأصدقاء والطلبة

مالك بن نبي في القاهرة في الخمسينات من القرن 20 مع مجموعة من الأصدقاء والطلبة

مالك بن نبي في القاهرة في الخمسينات من القرن 20 مع مجموعة من الأصدقاء والطلبة

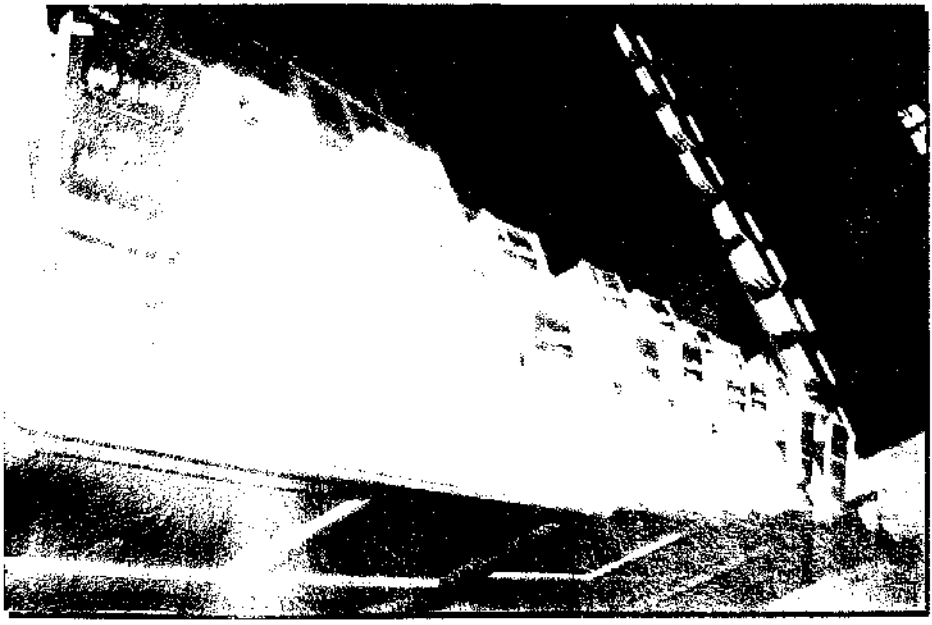

مجموعة مؤلفات مالك بن نبي

المحتويات

01- كلمة مدير الجامعة 05

أ.د/ عبد الله بوخلخال – مدير الجامعة –

02- تقديم

د/ إسماعيل سامعي– نائب مدير الجامعة للتكوين العالي والتكوين المتواصل والشهادات– 07

*** معالم حياة مالك بن نبي** 09-64

03- مالك بن نبي – حياته ونتاجه الفكري

د/ موسى لحرش– جامعة باجي مختار – عنابة – 11

04 – معالم من سيرة مالك بن نبي فقيه الحضارة 52

د/ نذير حمادو

05- ملامح من عبقرية مالك بن نبي في تحليل الظواهر واستشرافها 57

– تطبيق على الواقع المعاصر –

أ/ بشير قلاتي

*** الفكر الديني في منظور مالك بن نبي** 71-65

06 – الفكرة الدينية في الإسلام منطلق للتفاعل الحضاري عند مالك بن نبي

د/ إسماعيل سامعي 67

07 – التغيير الإنساني في فكر مالك بن نبي 72

أ/ أوليد بوعديلة – جامعة سكيكدة –

08 – أثر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلوم العصر في فكر مالك بن نبي 85

د/ بلقاسم شتوان

09 – الشواهد القرآنية في مؤلفات مالك بن نبي 95
– قراءة نماذج في منهج تفسيرها التحليلي –
د/ محمد البشير الهاشمي مغلي

*حركة التغيير في فكر مالك بن نبي 15

10 – مسيرة التغيير من الثورة إلى الاستقلال نظرة نقدية من منظور مالك بن نبي 10
د/ كمال لدرع
11 – مالك بن نبي وفكرة الأفروسيوية 120
أ/ عبد المجيد قدور
12 – مالك بن نبي وتصوره للثورة التحريرية 131
د/ عبد العزيز رأسمال – مدير الثقافة الإسلامية –
13 – بعض آراء مالك بن نبي ونظراته الاستشرافية في التطورات العالمية 137
أ/ نور الدين خندودي
14 – عرض كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي – 151
د/ سعاد سطحي 151

*مقتطفات من آثاره 178-160

*بعض معالم حياته بالصور 179

الإشراف العلمي والتقني:

- د/ إسماعيل سامعي
- سعد الله محمد فؤاد
- الشريف الربعي
- نعيمة رواص
- صبرينة علاق